

عبد اللہ بن الزبیرؓ

مُتَآلِیف

الدکتور علی حُسنی الخروبلی

مقدمة

هذه هي أول دراسة تاريخية لسيرة علم من أبرز أعلام العرب ٢ هو عبد الله بن الزبير . تلك الشخصية الكبيرة التي لم تنل بعد حقها من المؤرخين والباحثين . رغم أن ابن الزبير قد قام بالدور الرئيسى فى تاريخ الدولة العربية الاسلامية منذ عهد عثمان بن عفان الى أن قتل فى سنة ٧٣ هـ فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك ابن مروان . وقد تولى ابن الزبير الخلافة سنة ٦٤ هـ ودانت له جميع ولايات الدولة الاسلامية بالطاعة والولاء ، عدا رقعة صغيرة من الأرض ، هي اقليم الأردن الذى ظل مواليا للبيت الأموى .

ويجمع المؤرخون — عربا وغير عرب — على أن ابن الزبير يُعتبر من أبرز شخصيات صدر الاسلام . فيذكر المؤرخ (كاترمير) أنه لم يكن من بين العرب المتطلعين الى الخلافة فى القرن الأول الهجرى ، باستثناء على بن أبى طالب ، رجل اجتمعت له الحقوق والمؤهلات ، سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير .

وسيرة عبد الله بن الزبير تثبت عظمته وما بلغه من مجد . فقد وُلد بعد عشرين شهرا من الهجرة ، وكان أول طفل ولد فى المدينة فى الاسلام ، وأبدى الرسول وصحابته والمسلمون فرحهم لمولده فكبروا وهلتوا ، فقد زعم اليهود أنهم سحرُوا المسلمين فلا يولد

لهم ولد . ونشأ ابن الزبير في بيت الرسول ، فكان ربيباً لخالته عائشة حتى انها كانت تكنى بأم عبد الله . أما أبو عبد الله فهو الزبير بن العوام حوارى الرسول ، وابن عمته ، ومن صحابة الرسول المبشرين بالجنة . أما أمه ، فهي أسماء بنت أبي بكر الصديق ، ذات النطاقين ، وكان لها دورها يوم هجرة الرسول وأبى بكر الى المدينة .

بدأت نجابة عبد الله بن الزبير منذ حدثته ، فكان موضع تقدير الخليفة عمر بن الخطاب ، حتى اذا بلغ الرابعة عشرة من عمره ، اشترك في الفتوحات الاسلامية ، فحاض مع أبيه موقعة اليرموك وفتح مصر ، واشترك في فتح اصطخر ، وفي تدوين القرآن الكريم . كما تولى قيادة الجيوش الاسلامية التي فتحت شمالاً افريقية في عهد الخليفة عثمان بن عفان .

ولما حاصر الثوار دار الخليفة عثمان بن عفان ، دافع عبد الله ابن الزبير عنه ، وقاتل الثوار وأصيب بعدة جراح . حتى اذا شعر عثمان بخطورة الموقف وطلب ممن كان في داره الانصراف ، كان ابن الزبير آخر من غادر الدار ، ووثق عثمان فيه فعهد اليه بوصيته ، ويصف المؤرخون ابن الزبير بأنه كان أمير دار عثمان يوم الدار .

ونشب صراع سياسى بين الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وبين الخليفة على بن أبى طالب . وانضمت أم المؤمنين عائشة الى الزبير وطلحة . وقام عبد الله بن الزبير بدور كبير في حرب الجمل ، وعهدت عائشة الى ربيبها أن يصلّى بالمسلمين ، فصلّى وراءه

شيوخ قریش . وبعد معركة صفین ، بین علی ومعاوية ، اشترك ابن الزبير في التحكيم .

أعلن عبد الله بن الزبير معارضته لتولى البيت الأموي الخلافة في سنة ٤٠ هـ ، وعاب على معاوية صبغة الدولة الأموية بصبغة دنيوية . ولما طلب معاوية البيعة لابنه يزيد بولاية العهد ، أبدى ابن الزبير سخطه على تحويل الخلافة من نظام الشورى والانتخاب الى النظام الملكي الوراثي ، وتزعم حزب أبناء الصحابة المعارض ، كما تزعم حركة المعارضة في بلاد الحجاز .

حتى اذا تولى يزيد بن معاوية الخلافة ، أعلن ابن الزبير الثورة ، ودعا الى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين . ووجه يزيد بن معاوية جيوشه لقتال ابن الزبير ، فحاصرت مكة ، ولذا ابن الزبير بالكعبة وسمى نفسه (العائد بالبيت) . وتوالت النجدات من كل مكان على عبد الله بن الزبير ؛ فقدم الخوارج الأزارقة وقدم المختار وكثير من أهل الأمصار الاسلامية ، بل بعث نجاشي الحبشة جندا لصد هجوم الجيش الأموي . ومات يزيد ابن معاوية خلال حصار الكعبة ، وأعلن القائد الأموي ولاءه لابن الزبير ، وعرض عليه أن يخرج معه الى الشام ليلابعوه هناك بالخلافة . ولكن ابن الزبير رفض ما عرضه عليه ، فقد كان يرى أن تكون بلاد الحجاز حاضرة الدولة العربية الاسلامية ، كما كانت في عهد الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان .

وبعد وفاة يزيد ، أعلنت جميع ولايات الدولة العربية الاسلامية ولاءها لخليفة الحجاز عبد الله بن الزبير ، عدا اقليم الأردن

الصغير ، وأفل نجم الخلافة الأموية فترة . وأدرك البيت الأموي خطورة الموقف ، فوحد الأمويون صفوفهم وبايعوا مروان ابن الحكم بالخلافة ؛ وكان مروان حينئذ يفكر في البيعة لابن الزبير .

وبدأ صراع عنيف بين مروان خليفة الشام الأموي وبين عبد الله ابن الزبير خليفة الحجاز الثائر الذي خضعت له جميع ولايات الدولة العربية الاسلامية . ونجح مروان في انتزاع مصر من أيدي الزبيريين ، ولكن ابن الزبير استمر يسيطر على معظم الولايات الاسلامية . وتولى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أمر مناهضة ابن الزبير ، فنجح في الاستيلاء على بلاد العراق ، ثم وجه قائده المشهور الحجاج بن يوسف الثقفي الى بلاد الحجاز للقضاء على خلافة ابن الزبير .

وتقدم الحجاج الى مكة ؛ فحاصر ابن الزبير في الكعبة ، ووقفت أسماء بنت أبي بكر الى جانب ولدها تثير حماسه وتحثه على الصبر ، فاستمر يقاتل حتى لقي حتفه بعد أن ضرب مثلاً أعلى للبطولة والتمسك بالمبادئ . وكانت نهاية حياته نهاية عصر زاهر شهدته بلاد الحجاز ، فقد كانت الحجاز طوال خلافة ابن الزبير قلب الدولة الاسلامية الناهض .

أثر عبد الله بن الزبير في مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية طوال خلافته ، واستمر هذا التأثير في تاريخ الدولة الأموية بعد مصرعه . كما أثر ابن الزبير في تاريخ

جميع الأحزاب والفرق الإسلامية ، وخاصة أحزاب الشيعة ،
وبنى هاشم ، وأبناء الصحابة ، وبني أمية ، والخوارج ، والمرجئة ،
والتوايين . كما أثر في الحياة الأدبية في صدر الدولة الأموية ،
واقترن اسمه بالشاعر الزبيرى ابن قيس الرقيات .

هذه هي ملامح عامة لسيرة بطل عربى ، يجدها القارئ مفصلة
في أبواب الكتاب . أرجو أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه ،
والله المستعان .

المؤلف

١- فخر حياة عبد الله بن الزبير

الأب والأم

مولد ابن الزبير ونشأته

اشترك ابن الزبير في فتح شمال إفريقيا

ابن الزبير : صفاته وأسْرته

فجر حياة عبد الله بن الزبير

الأب والام :

أما الأب ، فهو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي . وأم الزبير هي صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول التي أسلمت وهاجرت الى المدينة وكانت من السابقات الى الاسلام . وكانت السيدة خديجة زوج الرسول عمة الزبير . وتزوج الزبير من أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وهي أخت عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم (١) .

ولد الزبير وعلى بن أبي طالب في عام واحد ، كما أسلما في عام واحد ، وكانا حينئذ في الثانية عشر من عمرهما ، وكان اسلامهما بعد اسلام أبي بكر بقليل (٢) ، وقد هاجر الزبير الى الحبشة حين اشتد ايذاء قريش للمسلمين ، وهاجر الى المدينة وهو ابن ثمان وعشرين (٣) . وجاهد في سبيل الله ونصرة الاسلام ، فكان أول من سل سيفاً في سبيل الله ، وشهد مواقع الرسول (٤) . وبذل فيها جهودا كبيرة ، مما جعله موضع تقدير الرسول

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٦١ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٣٥٦ .

(٣) ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٥ .

(٤) تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٣٥٧ .

وتكريمه ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ان لكل نبي حواريا ، وان حوارى الزبير » (١) . وكان الزبير يفتخر بهذا التقدير فكان يقول : « دعا لى رسول الله صلى الله عليه وسلم لى ولولدى ولولد ولدى » . والزبير هو أحد العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة .

وفي عهد الخليفين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، اشترك الزبير فى حركات الفتح العربى الاسلامى ، فكان فى مقدمة القواد الذين فتحوا بلاد الشام ، وأصبح بطلا من أبطال واقعة اليرموك فى الشام ، حتى أنهم كانوا يعتبرون سيف الزبير فى هذه الموقعة بثلاثة آلاف . كما قاد الزبير أحد الجيوش التى أمد بها عمر بن الخطاب وقائده عمرو بن العاص لفتح مصر ، وكان له فضل كبير فى فتح حصن بابلين الذى لاذ الروم به . وحينما طعن عمر بن الخطاب وشعر بقرب منيته اختار ستة من صحابة الرسول ورشحهم للخلافة ، وكان من بينهم الزبير .

أما الأم ، فهى أسماء بنت أبى بكر الصديق . وقد قامت بدور كبير يوم هجرة الرسول وأبى بكر من مكة الى المدينة . روت عائشة : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، اما بكرة واما عشية ، حتى اذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى

(١) اختلفت المفسرون فى تفسير كلمة حوارى : فقال بعضهم (الناصر) وقال الآخرون (الخليل) وقال فريق ثالث (الخالص من كل شئ) . - انظر طبقات ابن سعد ج ٣ ص ٧٣ .

الهجرة والخروج من مكة ؛ أانا بالهجرة في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : انه لم يأت في هذه الساعة الا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له عن سريه ، فجلس رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر الا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخرج عني من عندك . فقال : يا رسول الله انما هما ابتائى ، وما ذاك ، فذاك أبي وأمي ؟ . فقال : ان الله قد أذن في الخروج والهجرة .

علم القرشيون بهجرة محمد وأبي بكر فثارت ثائرتهم ، وخرج أبو جهل من فوره الى بيت أبي بكر ، وطرق الباب طرقات شديدة سريعة ، وهرعت أسماء تفتح الباب ، وصاح أبو جهل فيها : أين أبوك ؟ فقالت : لا أدري والله . فرفع يده ولطم وجهها لطمة شديدة أطاحت قرطها ، وغادرها ليلبحث عن الرسول ورفيقه .

تحدثت أسماء بنت أبي بكر عن يوم هجرة الرسول وأبي بكر فقالت : لما خرج رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه . فدخل علينا جدتي أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال : والله اني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قلت : كلا يا أبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيرا . فأخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت يده فقلت : يا أبي ، ضع يدك على هذا المال . فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، اذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله

ما ترك لنا شيئا ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك (١) .
وكانت أسماء تحمل الى الرسول والى أبيها الطعام والزاد خلال
وجودهما في غار جبل ثور .

مولد ابن الزبير ونشأته :

ولد عبد الله بن الزبير في المدينة في اليوم الثاني من شهر
شعبان بعد عشرين شهرا من الهجرة (فبراير ٦٢٢ م) ، فكان
بذلك أول طفل وُلد في المدينة في الاسلام ، كما كان أكبر أولاد
الزبير .

ولما ولد عبد الله ، حملته أمه أسماء بنت أبي بكر الى الرسول
« فحنكه بتمر » ، فكان أول من دخل في جوفه ريق رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فكبر الصحابة والمسلمون بمولده
استكبارا . وكان مولده بقاء وسماء رسول الله صلى الله عليه
وسلم عبد الله (٢) .

أما عن فرح الرسول وتكبير الصحابة فيرجع الى أن « اليهود
كانوا يقولون : سحرناهم فلا يولد لهم ولد » (٣) . وكان سرور
الرسول بمولد عبد الله عظيما حتى أنه قال لأمه أسماء بنت
أبي بكر : « أرضعيه ولو بماء عينيك » (٤) . وكان عبد الله من
السابقين الى الاسلام ، فقد بايع النبي وهو ابن ثمان سنين .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٣٩٧ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٨٢ .

(٤) ابن ظفر الصقلي : أنباء نجباء الأبناء ص ٨٥ .

وكان عبد الله ربيب عائشة زوجة الرسول ، فكانت تكنى بأُم عبد الله (١) .

وكان عبد الله ، وهو ما زال حدثا صغيرا ، يميل الى الامارة والزعامة ، فقد كان يلعب يوما مع الصبيان « فمر به رجل ، فصاح عليهم ففروا ، ومشى ابن الزبير القهقري ، وقال : يا صبيان اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه . ففعلوا » (٢) .

وتنبأ الخليفة عمر بن الخطاب لعبد الله بن الزبير بمستقبل عظيم . فقد مر عمر بعبد الله وهو يلعب مع رفاقه من الصبيان ، وأسرع الصبيان يلوذون بالفرار ، لما كان عمر عليه من هبة ووقار ، أما عبد الله فقد لزم مكانه ، فقال عمر له : مالك لم تفر معهم ؟ فقال عبد الله : لم أجزم فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيقة فأوسع لك » (٣) .

اشترك عبد الله مع أبيه الزبير في فتح بلاد الشام ، فشهد موقعة اليرموك (سنة ١٤ هـ = ٦٣٥ م) وكان وقتئذ في الرابعة عشرة من عمره . كما صاحب أباه في فتح مصر في عهد عمر . كما اشترك في تدوين القرآن الكريم .

اشترك ابن الزبير في فتح شمال افريقية :

قام عمرو بن العاص بفتح مصر في عهد الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب . وقد اشترك الزبير بن العوام في عمليات الفتح وأبلى

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٥٠ .

(٣) المصدر السابق .

بلاء حسنا . وقد أمّن عمرو حدود مصر الغربية ففتح اقليم برقة
سنة ٢١ هـ ثم فتح طرابلس سنة ٢٢ هـ .

وعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة عزل عمرو بن العاص
وولّى عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٧ هـ ، ورأى سعد أن
يتابع سياسة الفتح ، فيفتح بلاد افريقية ، وأذن عثمان له بذلك
بعد أن استشار كبار الصحابة . وبعث عثمان له جيشا من
المدينة يقوده بعض صحابة الرسول . ولكن أخبار هذا الجيش
انقطعت عن عثمان ، فبعث عثمان عبد الله بن الزبير في جماعة من
المسلمين لموافاته بأخبار ذلك الجيش .

وقف عبد الله بن الزبير على أخبار الجيش ، وأبدى عدم
رضائه عن الخطة التي اتبعها الوالى عبد الله بن سعد في الفتح ،
فقد كان يقاتل الأعداء من الصباح الى وقت الظهر ، ثم يعود كل
جيش الى معسكره .

وبدت مهارة ابن الزبير العسكرية ، فقد انتقد هذه الخطة
العربية التي تتيح للعدو فرصة للراحة والاستعداد . وعرض على
ابن سعد خطة عملية أخرى ، فنصحه بتقسيم الجيش الاسلامي
الى فرقتين ، تحارب فرقة العدو في أول النهار بينما تستريح الفرقة
الأخرى وتستعد للقتال في نصف اليوم الآخر حينما يعود العدو
الى معسكره .

ترك الوالى عبد الله بن سعد قيادة الجيش لعبد الله بن الزبير ،
وأعلن موافقته على خطته الحربية . حتى اذا جاء الموعد الذي

كان ينصرف الجيشان فيه الى معسكريهما ، بادرت الفرقة الاسلامية الثانية للهجوم على معسكر العدو ، فباغتتهم واجتاحت خيامهم ، وهزمتهم هزيمة ساحقة ، وقتلت ملكهم جرجير ، وحازت غنائما كثيرة حتى أن سهم الفارس بلغ ثلاثة آلاف دينار ، والراجل ألف دينار .

تحقق النصر على أيدي عبد الله بن الزبير ، وعاد الى المدينة يحمل نبا النصر وغنائم الفتح ، وأعلن عثمان والمسلمون فرحهم واستبشارهم ، وطلب عثمان من ابن الزبير أن يخطب الناس فقال ابن الزبير : « يا أمير المؤمنين ، انى أهيب لك منى لهم » . فخطب عثمان في المسلمين فقال : « أيها الناس ، ان الله قد فتح عليكم افريقية ، وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم بخبرها ان شاء الله » . فقام ابن الزبير يروى قصة انتصار المسلمين (١) .

حرص عبد الله بن الزبير على أن يشترك في مهام أمور الدولة العربية الاسلامية ، فقد اشترك في مطلع خلافة عثمان بن عفان في تدوين القرآن الكريم (٢) . كما اشترك في الجيوش الاسلامية التي فتحت اصطخر (٣) .

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٦٢ ، ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ج ٣ ص ٧١ .

(٢) Quatremere : Memoire His. Sur La Vie d'Abd-Allah ben

Zobeir, p 293.

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٤ .

ابن الزبير : صفاته وأسرته :

جمع ابن الزبير بين كثير من الصفات والسجايا الحميدة .
أبرزها التقوى والورع . فقد أجمع المؤرخون على ميل ابن الزبير
الى تقوى الله ، والتمسك بتعاليم الدين الاسلامى ، والمثل العليا
الأخلاقية ، فكان صواما قواما ، وسمى نفسه المستجير بالرب ،
والعائذ بالبيت ، فكان يمضى يومه الى جانب الكعبة ، يطوف
ويتبرك بها ، ويؤدى صلواته الخمس ومن ورائه أنصاره . وقد
وصفه عدوه اللدود عبد الملك بن مروان بأنه « طويل الصلاة ،
كثير الصيام » .

واتصف ابن الزبير بالشجاعة والبسالة ، فقد قضى معظم
أيامه فى ميادين القتال . فقد اشترك فى الفتوحات الاسلامية وهو
فى الرابعة عشر من عمره ، فاشترك فى فتوح الشام ومصر واصطخر
وشمال افريقية فى عهد الخلفاء الراشدين ، كما اشترك فى غزو
القسطنطينية فى عهد معاوية . وقضى بقية حياته يقاتل الخلفاء
الأمويين ، فقاتل جيوش يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم
وعبد الملك بن مروان . وحاصره الجيوش الأموية مرتين فى مكة ،
فحاصره الحصين بن نمير فى عهد يزيد بن معاوية ، وحاصره الحجاج
ابن يوسف الثقفى فى عهد عبد الملك بن مروان ، وظل يقاتل حتى
لقى حتفه وأبى الاستسلام .

واشتهر ابن الزبير بالبلاغة والفصاحة ، فكان خطيبا مفوها ،
يصل الى قلوب سامعيه ، فيقنعهم ويكسب تأييدهم ، ويخاطب

عقولهم وعواظهم . كما كان شاعرا مجيدا فكان بصوغ كثيرا من كتبه ورسائله شعرا رصينا .

وكان ابن الزبير صريحا ، لا يحب المداراة أو المكر أو الخداع ، وهى من مقتضيات السياسة أحيانا . حتى أن بعض معاصريه عابوا عليه هذه الصراحة فى القول ، كما انتقده بعض المؤرخين أيضا . وتميز ابن الزبير بالزهد ، فمال الى البساطة والتقشف ، وكان يبالغ فى زهده الى درجة اعتبرها معاصروه شحا وتقتيرا .

علمنا فضل الزبير بن العوام ، أبى عبد الله ، وأسماء بنت أبى بكر ، أمه . أما خالته أم المؤمنين عائشة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهى غنية عن التعريف . وقد أسبغت عطفها وحنانها على عبد الله بن الزبير ، فكان ربيها ، ونشأ فى دارها ، وأصبح موضع رعايتها واهتمامها ، حتى أصبحت تكنى بأم عبد الله . وعملت عائشة على أن يقوم عبد الله بدور كبير فى مجريات السياسة والأحداث ، حتى أنها عهدت له بالصلاة بشيوخ قريش يوم حرب الجمل ، فصلى خلفه أبوه الزبير وحليفه طلحة ابن عبيد الله ومروان بن الحكم وغيرهم .

كان مصعب بن الزبير أبرز اخوة عبد الله ، فكان الرجل الثانى فى الحركة الزبيرية ، وقد ارتفع ذكره فى بلاد العراق ، فتولى حكمها طوال فترة خلافة عبد الله بن الزبير ، وأخلص لأخيه كل الاخلاص ، ودافع عن مصالحه السياسية حتى لقى حتفه فى سبيلها . وقد حاول عبد الملك بن مروان ، خليفة الشام الأموى ، أن يستميل

مصعبا اليه فيحثه على خيانة أخيه ، وكانت بينهما صداقة ومودة قديمة ، ولكن مصعبا تمسك بإخلاصه وولائه الى النهاية .

ومن اخوة عبد الله بن الزبير ، عروة بن الزبير الذي كان عضد عبد الله في بلاد الحجاز ، بينما كان مصعب عضده في بلاد العراق . وقد استمر عروة يقاتل جيش الشام الى جانب أخيه ، حتى اذا شعر بقرب منيته ، دفعته عاطفة الأخوة الى الخروج الى الحجاج بن يوسف يلتمس منه الأمان لأخيه ، ولكن عبد الله أصر على المضي في القتال حتى لقي حتفه .

وكان لعبد الله بن الزبير أخ عاق ، وهو عمرو بن الزبير ، الذي فاصب أخاه العداء ، وأعلن ولاءه للخليفة يزيد بن معاوية ، وقبل أن يقود جيشا لقتال أخيه عبد الله ، ولكنه دفع ثمن غدره ، فقد قبض عليه عبد الله وألقى به في السجن .

وأشهر أولاد عبد الله بن الزبير حمزة الذي تولى حكم بلاد العراق فترة ، وخبيب ، والزبير . وكان الزبير أكثرهم شجاعة واستبسالا ، فقد وقف يدافع عن أبيه هجوم جند الشام وشاركه في مصيره المؤلم .

٢ - دفاع ابن الزبير عن عثمان بن عفان

ترشيح الزبير للخلافه بعد مصراع عمر

حزب البصري في الكوفه

ابن الزبير يذود عن عثمان

دفاع ابن الزبير عن عثمان بن عفان

ترشيح الزبير للخلافة بعد مصرع عمر :

كان اختيار أبى بكر بطريقة الانتخاب ، فان النبى لم يعين من يخلفه . وكادت هذه الطريقة أن توجد الانقسام بين صفوف المسلمين ؛ مما جعل أبى بكر يبعد تفكيره عن طريقة الانتخاب ويلجأ الى طريقة التعيين ، فرشح عمر بن الخطاب خليفة للمسلمين من بعده .

أما عمر فقد لجأ الى طريقتى الانتخاب والتعيين معا : فهو يعين ستة من صحابة رسول الله الذين توفى وهو عنهم راض ؛ وفى نفس الوقت يفسح المجال للمسلمين ليختاروا واحدا منهم وهؤلاء الستة هم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد ابن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ؛ وعبد الرحمن بن عوف .

وضع عمر أسس الشورى ، فقرر أن يجتمع المرشحون للخلافة ثلاثة أيام يتشاورون فى أمرهم ؛ ويصلى بالناس فى هذه الأثناء عبد رومانى يدعى (صهيب) . ولا بد أن يختاروا خليفتهم فى اليوم الرابع ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا دون أن يشمله الاختيار ؛ وإذا أجمع خمسة منهم أو أربعة على انتخاب أحدهم ،

وخالفهم فيه رجل أو اثنان ، قتل المعارضون . أما إذا وقف ثلاثة في جانب شخص ، ووقف الثلاثة الآخرون في جانب آخر ، كان رأى عبد الله بن عمر مرجحاً . فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر ، اختاروا رأى الفريق الذى فيه عبد الرحمن بن عوف . كانت هذه الخطة تدل على الديمقراطية الحقيقية ، فهو لم يدخل ابنه عبد الله ، رغم احترام المسلمين له ، بين المرشحين للخلافة ، وقال : حسب بنى الخطاب أن يتولى الخلافة واحد منهم . فهو لم يشأ تطبيق النظام الملكى الوراثى الذى كان متبعاً في الدولتين الفارسية والرومانية .

حدد عمر الاختيار في ستة من الصحابة ، ولكنه كان يرى أن الذى يلى الخلافة بعده واحد من اثنين : على بن أبى طالب أو عثمان بن عفان . ورغم تأكده من ذلك ، لم يشأ حصرها في هذا النطاق الضيق ، فقد كان هناك بعض صحابة النبى الذين لهم في نفوس الناس محبة واحترام ، كما كان يلتف حولهم كثير من المؤيدين ، فخاف أن يحصر الاختيار في على وعثمان ، حتى لا يخرج عن طاعة الخليفة أحد الأربعة الآخرين ، وحتى لا يؤدي ذلك الى انقسام كلمة المسلمين ، ولذا رأى أن يشركهم في الشورى ليقطع عليهم خط الرجعة ، وليضمن وفاءهم للخليفة الجديد .

كان طلحة غائباً عن المدينة ، وانحصر الأمر بين هؤلاء الخمسة من رجال الشورى ، واشتد التنافس بينهم ، فقد كان كل منهم شديد الحرص على أن تكون الخلافة له ، أو على الأقل لأحد من أقربائه أو ذوى عصبية . وكان على يعتقد منذ وفاة الرسول أنه

أحق المسلمين بالخلافة ، فهو ابن عم الرسول وصهره ، وأبلى بلاء حسنا في سبيل الاسلام ، كما أنه يمثل البيت الهاشمي بيت الرسول أما عثمان فكان يأمل تولي الخلافة ، فهو أكبر المرشحين سنا ، وقد تزوج ابنتين من بنات الرسول ، وضحت بثروته في نصرة الاسلام ، كما كان يمثل البيت الأموي .

أما الزبير فقد كان يأمل أن يتولى الخلافة . ولكن لم تكذباً الشورى ، حتى لاحظ أن الاختيار يدور حول علي وعثمان ، وأن الأنظار قد اتجهت الى هذين الصحابين دون غيرهما ، فكان عليه أن يقف في جانب أحدهما . وكان اختيار الزبير لعلي ابن أبي طالب بمثابة اعتراف منه بأحقية بنى هاشم بالخلافة دون غيرهم ، ولذا خشي أن تظل الخلافة محصورة في آل علي أو البيت الهاشمي ، مما يتعارض مع طموحه ومطامعه ، ويضيع عليه فرصة تولي الخلافة . ولذا مال الزبير الى تأييد ترشيح عثمان للخلافة ، فقد كان رجلا متقدما في السن في أواخر سني حياته ، فالخلافة ان فاتت الزبير هذه المرة ، فقد يدركها في المرة القادمة . كما كان عثمان سهلا لينا ، فلم يكن في حزم أبي بكر وعمر .

ومال سعد بن أبي وقاص أيضا الى اختيار عثمان للخلافة ، وكان طلحة غائبا كما ذكرنا . أما عبد الرحمن بن عوف ، فكان صاحب رأى سديد قدره عمر حق قدره ، فجعل لرأيه في الشورى أهمية خاصة . ولذا كان عبد الرحمن هو رجل الشورى بحق . ورأى اشتداد المنافسة ، وأن الأيام الثلاثة التي حددها عمر قاربت على النهاية دون أن يصلوا الى اختيار الخليفة الجديد . فاقترح

عبد الرحمن أن يتنحى واحد منهم عن حقه في الترشيح للخلافة على أن تكون له الكلمة الفاصلة ، فلم يجبه أحد . فأعلن أنه يخلع نفسه منها ، واستشار الصحابة وأمرء الأجناد ، فكان بعضهم يشير باختيار على ، والبعض الآخر يشير باختيار عثمان . واختار الزبير وسعد عثمان . وانتهى أمر الشورى باختيار عثمان ؛ فقد قبل العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين أبي بكر وعمر بلا قيد أو شرط ، على حين قال على " أنه سيعمل بمبلغ علمه وطاقته .

كان انتصار عثمان على على بن أبي طالب في الواقع انتصارا للحزب الأموي على بنى هاشم ، وكان هذان الحزبان يتنازعا في الرياسة منذ العصر الجاهلي ، ولكن الله عز وجل أعز بنى هاشم فجعل النبوة فيهم .

وهكذا كان هناك حزبان كبيران : الحزب الأموي بزعمارة عثمان ، وحزب بنى هاشم بزعمارة على بن أبي طالب . وبجانب هذين الحزبين الكبيرين ، كان هناك حزبان صغيران ناشئان هما حزب الزبير وكان يسانداه أهل الكوفة ، وحزب طلحة وسنده أهل البصرة . ووقف حزبي طلحة والزبير من كفاح هذين الحزبين الكبيرين موقف المتفرج المتأمل . أما الزبير فلم يكن هواه مع أحد الحزبين ، فلم يكن يرى تأييد بنى هاشم في كفاحهم لأن ذلك يؤدي حتما إلى خلافة على بن أبي طالب دونه . كما كان يرى في وجود الحزب الأموي منافسا لحزبه .

أهمل عثمان الزبير ، فلم يولّه حكم إحدى الولايات الإسلامية ، وولى أقاربه المناصب الكبرى ، مما أثار غضب الزبير وصحابة الرسول . وشاركهم في سخطهم أبناء الصحابة ، مثل عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، والحسن والحسين ابني علي ، ومحمد بن أبي بكر .

حزب زيبري في الكوفة :

في عهد عثمان بن عفان خرج الزبير بن العوام الى الكوفة حيث نجح في انشاء حزب زيبري . وقد كان عمر بن الخطاب حكيما يقدر عواقب الأمور ، ولذا منع أعلام قريش من المهاجرين من الخروج الى الأمصار الا باذن منه والى أجل مسمى . ولكن عثمان سمح لهؤلاء الصحابة بالرحيل الى الأقطار المفتوحة ، حيث أنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ، ولحمتها سبق في الاسلام وصحبة الرسول ^(١) . فقد التف الناس حولهم ، ملتصين بالبركات من أصحاب الرسول ، طامعين في هباتهم وأعطياتهم . ورحل الزبير الى الكوفة حيث حاز ثراء واسعا ، واستثمر أمواله ، وأغدق الصلات على أهل الكوفة ، فالتفوا حوله وتحزبوا له ، وعملوا على دفعه الى تولي الخلافة .

وعاد انتشار الصحابة في الأمصار عليهم بالثراء والرخاء ، فقد امتلكوا الضياع وشيدوا القصور في الأمصار ، وسمح عثمان لهم باستبدال أملاكهم في الحجاز بأملك أخرى في الأمصار . وليس

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ح ١ ص ٣٤٥ .

أدل على مقدار زيادة ثروتهم مما ذكره المسعودي ^(١) ؛ فقد روى أن الزبير « بنى داره بالبصرة .. وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية .. وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ؛ وخلف الزبير ألف فرس وألف أمة وخططا بحيث ذكرا من الأمصار » . ولم يكن الزبير وحده الذى حاز الثراء والعقار ؛ بل شاركه فى هذا طلحة بن عبيد الله وبعض الصحابة .

ولكن هذا الثراء قد أدى الى حسد القبائل العربية لقريش ؛ وشعورها بالحرمان من كثير من الثمرات المادية التى كانت تتمتع بها قريش . ولما تولى سعيد بن العاص حكم العراق ؛ شعر بخطرها هؤلاء الصحابة « فكتب الى عثمان بما انتهى اليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ؛ والغالب على تلك البلاد روادف ردف ، وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر الى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها . فكتب اليه عثمان : أما بعد ، ففضل أهل السابقة والقدمة من فتح الله عليه تلك البلاد ؛ وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم .. » ^(٢) . ويرى المؤرخ (كريم) ^(٣) أن العراق الذى اتخذته الأرستقراطية العربية موطنها طوال هذا العهد ، كان مركز تجمع لكل الاضطرابات والثورات التى قامت ضد بنى أمية . ويرى

(١) مروج الذهب ح ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) الطبرى ح ٥ ص ٦٣ .

(٣) كريم : الحضارة الاسلامية ص ٣٤ .

المؤرخ (ميور) ^(١) أن الصراع كان بين قرش ونبلاء المسلمين من ناحية وبين القبائل من ناحية أخرى ، ويأخذ على عثمان أنه لم يستطع أن يحفظ التوازن بين الفريقين .

ووصف المؤرخ (الطبرى) ^(٢) أحوال الكوفة فقال : « فكأنما كانت الكوفة ييسا شملته نار فانقطع الى ذلك الضرب ضربهم ، وفشت القالة والاذاعة » .

ابن الزبير يزود عن عثمان :

تكاثفت عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية على اشتعال نيران الثورة في قلوب أهل الأمصار ضد خلافة عثمان بن عفان . ثم جاء الدور الحاسم الذى انتهى بمقتل عثمان .

تراسل الثوار وانفقوا على الرحيل الى المدينة في زمن واحد ، وهو وقت خروج الولاة والعمال الى المدينة في زمن الحج . فلما اقترب هذا الموسم عام ٣٥ هـ ، خرجت وفود ثوار مصر والبصرة والكوفة من أمصارهم الى المدينة متظاهرين بالحج ، وبلغ عدد كل وفد ما بين ستمائة وألف ثائر ^(٣) . واتفق الثوار جميعا على خلع عثمان ، ولكنهم اختلفوا فيمن يخلفه ، فكان ثوار مصر هواهم في علي ، وكان ثوار البصرة يرغبون في تولية طلحة ، بينما رغب ثوار الكوفة في الزبير ^(٤) .

(١) Muir: The Caliphate, p.228

(٢) الطبرى ح ٥ ص ٦٣ .

(٣) الطبرى ح ٥ ص ١٠٣ .

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ح ١ ص ١٦٩ .

وتقابل الثوار مع عثمان « فاستعجبوه فأعجبهم وأرضاهم » (١). وكادت الأمور تنتهي الى سلام وخير ، لولا قصة الخطاب السرى الذى زعم المصريون أن عثمان أرسله الى عامل مصر يطلب فيه منه تعذيب وفد الثوار ، والذى وقع فى أيدي الثوار المصريين أثناء عودتهم الى مصر ، فعادوا ثانية الى المدينة ، حيث واجهوا عثمان به ، فنفى صدور الخطاب منه ، فطلبوا منه عزل ولاته بالأمصار ، فرفض ذلك . فخيروه بين عزل ولاته أو خلع نفسه أو قتله . فأبى أن يحقق لهم المطلبين الأولين . فلم يبق الا الحل الأخير ، وهو القتل ، فحاصروه أربعين يوما منعوا فيها عنه الماء والزاد ، ثم دخلوا عليه فقتلوه (٢) .

لم يكن الزبير يستطيع أن يضع حدا لحماسة أهل الكوفة ، فقد كانت حماسة جارفة طاغية ، لا تنفع معها النصيحة أو تهدئة النفوس . ولكن الزبير لم يكن سليبا ، فقد بعث ابنه عبد الله ابن الزبير ليدفع عن عثمان كيد الثوار . وهو ما فعله على ابن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله ، فقد أرسلوا أولادهما ليزودوا عن عثمان . وكان من العسير على هؤلاء الصحابة الثلاثة أن يواجهوا حماسة الثوار ، وقد ساء الموقف وزادت خطورته ، ووصف عثمان نفسه سوء الأحوال فقال : « بلغ السيل الزبى »

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٤ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ٤٢ .

وجاوز الحزام الطيين » ، ووصف ابن كثير (١) الثورة ، فذكر أن الثوار كانوا « قريبا من أقصى مقاتل من الأبطال ، وربما لم يكن في أهل المدينة هذه العدد من المقاتلة ، لأن الناس كانوا في الثغور وفي الأقاليم في كل جهة » .

لم يرض الزبير أو طلحة أو على عن مقتل عثمان ، وإن كانوا يرون أن يتنازل عثمان عن الخلافة . فيذكر المؤرخ ابن كثير (٢) : « وأما ما يذكره بعض الناس من أن بعض الصحابة أسلمه ورضى بقتله ، فهذا لا يصح عن أحد من الصحابة أنه رضى بقتل عثمان رضى الله عنه ، بل كلهم كرهه ومقته وسب من فعله ، ولكن بعضهم كان يود لو خلع نفسه من الأمر » .

اشترك عبد الله بن الزبير مع أبناء طلحة وعلى بن أبى طالب في الدفاع عن عثمان ، وجاهدوا في رد الثوار من داره ، وضربوا أمثلة للبطولة والاستبسال . وكان ابن الزبير موضع تقدير من عثمان ، فرأى أن يعهد اليه بوصيته . وفي ذلك يقول الطبرى (٣) : « فكان آخر من خرج عبد الله بن الزبير ، وأمره عثمان أن يصير إلى أبيه في وصيته بما أراد ، وأمره أن يأتى أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ، فخرج عبد الله بن الزبير آخرهم . فما زال يدعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه » . وهكذا كان عبد الله بن الزبير آخر من غادر دار عثمان ، فقد

(١) البداية والنهاية ح ٧ ص ١٩٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الطبرى ح ٣ ص ٤٢ .

دافع عنه الى اللحظة الأخيرة ، ولم يخرج الى بيته الا بعد الحاح
من عثمان ، وقد أراد أن يعهد اليه بوصيته ، ولم يشأ أن يشاركه
مصييره المؤلم ، وخرج ابن الزبير الى داره يداوى جراحه .

واستفاد عبد الله بن الزبير من هذا الموقف ، وكان يفخر دائماً
به من فوق المنابر ، فقد خطب يوماً على منبر مكة فقال : « والله
لقد استخلفني أمير المؤمنين عثمان على داره ، فلقد كنت أنا الذي
أقاتل بهم ، ولقد كنت أخرج في الكتيبة وأبأشر القتال بنفسى ،
فجرحت بضعة عشر جرحاً وانى لأضع اليوم يدي على بعض تلك
الجراحات ، فأرجو أن تكون خير أعمالى » (١) .

وظل عبد الله بن الزبير وفيّاً لعثمان الى آخر حياته ، فأصر
على تمجيد عثمان والاشادة بذكره ، رغم أن ابن الزبير لم يكن
ينتمى الى البيت الأموي ، كما أنه قضى طوال حياته يناهض الدولة
الأموية ويناصبها العداء ، وكان عثمان كما نعلم شيخ بنى أمية .
بل ان ابن الزبير فقد صداقة الخوارج الأزارقة لتصميمه على
امتداح عثمان ، مما أدى الى اثاره عدااء الخوارج فشنوا عليه
حرباً شعواء قضت على نفوذه في بلاد العراق .

٣ - دور ابن الزبير في حرب الجمل

موقف عبد الله بن الزبير من خلافة علي بن أبي طالب

طلائع حرب الجمل

ابن الزبير بطل حرب الجمل

موقف ابن الزبير من الصراع بين علي ومعاوية

دور ابن الزبير في حرب الجمل

موقف عبد الله بن الزبير من خلافة علي بن أبي طالب :

ظهرت مشكلة الخلافة من جديد بعد مقتل عثمان . ومنع البديهي أن يتطلع المسلمون الى أهل الشورى ؛ وقد أصبحوا بعد موت عبد الرحمن بن عوف ومقتل عثمان أربعة . ولكن سعد ابن أبي وقاص اعتزل الأمر وتجنب الفتنة ، فلم يبق اذا الا على ابن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله .

واختلف الثوار فيما بينهم : فرغب أهل مصر في علي* ، ورغب أهل الكوفة في الزبير ، بينما كان هوى أهل البصرة مع طلحة (١) . وكان كل فريق يختلف الى صاحبه يعرض عليه الخلافة ؛ فيمتنعون ويأبون ؛ فرأى الثوار أنهم لن يستطيعوا وحدهم أن يقيموا للناس اماما ؛ وأنه لابد من أن يعينهم المهاجرون والأنصار على ذلك بترشيح أحد هؤلاء الثلاثة (٢) . ولما رأى الثوار أن الغالبية العظمى تميل الى تولية علي* ؛ عملوا على تحقيق رغبتهم بأسرع وقت حتى يعودوا الى أمصارهم .

ورأى ثوار الكوفة والبصرة أن يبايعوا لعلي بن أبي طالب

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ح ١ ص ١٦٩ .

(٢) طه حسين : علي وبنوه ص ٩ .

خضوعاً لرأى غالبية المهاجرين والأنصار والثوار من جهة ؛ ولشعورهم بأن علياً سوف يصل الى الخلافة حتماً من جهة أخرى . فقد كان عليّ ذا شخصية قوية وسبق في الاسلام ولقرايته من رسول الله ، فضلاً عن أن اختييار الزبير يغضب البصرة ، واتخاب طلحة لا يرضى الكوفة ، مما يؤدي الى انقسامهم ثم الى ضعفهم ، فأروا أن في اختيارهم لعليّ تجنباً لهذا الانقسام ؛ وتوحيداً لكلمتهم ، وارضاء لثوار مصر الراغبين في عليّ ، وارضاء لأهل العراق الذين يتشيعون لعليّ ، وخاصة أن عليّاً يمثل بنى هاشم أعدى أعداء بنى أمية الذين قتلوا بالأمس زعيمهم عثمان ابن عفان .

أقبل ثوار الكوفة والبصرة ، أنصار الزبير وطلحة بالأمس ؛ على عليّ بن أبي طالب يعرضون عليه الخلافة . وامتنع عليّ في بداية الأمر ، ولكنهم ألحوا عليه وأرغموه على قبول البيعة . ثم رأى الثوار أن تكون بيعته عامة كبيعة من سبقه من الخلفاء ، فتوجهوا الى المهاجرين والأنصار ، فقالوا لهم : دونكم يا أهل المدينة ، فقد أجلبناكم يومين ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً عليّاً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً (١) . فأسرعوا الى البيعة لعليّ بالخلافة .

امتنع سعد بن أبي وقاص ؛ وعبد الله بن عمر ، وطلحة ، والزبير ، عن البيعة لعليّ فلم يهتم ثوار الكوفة والبصرة بسعد

(١) الطبرى ح ٥ ص ١٥٦ .

أو ابن عمر ، فليس هناك في الأمصار الإسلامية من يشايهما
 أو يرشحهما للخلافة . أما طلحة والزبير فقد أرغموهما على البيعة .
 ثم قامت عامة الناس فبايعوا عليًا بالخلافة ^(١) . وصور الطبرى ^(٢)
 الموقف فقال : « وأهل الكوفة وأهل البصرة شامتون بصاحبهم
 — أى الزبير وطلحة — وأهل مصر فرحون بما اجتمع عليه أهل
 المدينة ، وقد خشع أهل البصرة أن صاروا أتباعا لأهل مصر
 وحشوة منهم ، وازدادوا بذلك على طلحة والزبير غيظا » . وكان
 انتصار على على طلحة والزبير ، هو أيضا انتصار لبنى هاشم
 على بنى تميم وبنى أسد .

ثم بدأت مشكلة تعيين ولاية الأمصار ، فكان على على
 ابن أبى طالب أن يعزل ولاية عثمان الذين كان ظلمهم وجورهم
 سببا في قدوم الثوار الى المدينة ومقتل عثمان . وهنا تقدم
 المغيرة بن شعبة الى على ينصحه بأن يثبت معاوية على الشام ،
 ويولى طلحة والزبير مصرى العراق ؛ حتى تستقر لعلى الأمور .
 ولكن عليًا أبى ذلك وقال : ويحك ! ان العراقيين بهما الرجل
 والأموال ومتى تملكنا رقاب الناس يستميلنا السفينة بالطمع
 ويضربا الضعيف بالبلاء ويقويا على القوى بالسلطان ! ^(٣) .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ح ١ ص ١٧٢ .

(٢) الطبرى ح ٥ ص ١٥٦ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٦٢ .

طلّاع حرب الجمل :

عزل على بن أبى طالب ولاية عثمان . وأدرك طلحة والزبير أن عليا أصبح فى حاجة الى ولاية جدد يبعث بهم الى الأمصار الإسلامية ، فقدموا عليه وقالوا له : هل تدرى على ما بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : نعم ! على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان . فقالوا : لا ؛ ولكننا بايعناك على أنّا شريكك فى الأمر . قال على : لا ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون وعلى العجز والأولاد (١) .

رأى طلحة والزبير اصرار على بن أبى طالب على الاحتفاظ بسلطته كاملة ، فتقدما اليه بطلب آخر أهون شأنًا . فطلب منه الزبير أن يولّيه حكم الكوفة ليأتيه باجنود ، وطلب منه طلحة أن يولّيه حكم البصرة ، ليجنّد له الجند « ليقوى بهم على شوكة الخوارج وجهلة الأعراب الذين كانوا معهم فى قتل عثمان رضى الله عنه » (٢) .

وكان طلحة والزبير يريان فى توليتهما البصرة والكوفة خير ما يعوضهما عن ضياع آمالهما فى الوصول الى الخلافة . كما أن حكمهما لهذين القطرين يتيح لهما فرصة الابتعاد عن المدينة المنورة التى اضطربت أحوالها وسيطر الثوار على دفة سياستها . كما كانت بلاد العراق مورد المال والرجال ، فهناك يستطيعان تجنيد الأنصار ، وبث الدعاية لهما ؛ استعدادا لمعركة الخلافة القريبة

(١) المصدر السابق ح ١ ص ٤١ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٧ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

القادمة . ولعنها أرادا أن يحذوا حذو معاوية بن أبي سفيان الذي استطاع أن يثبت أقدامه في بلاد الشام وأخذ يناوىء على ابن أبي طالب .

وكان عليّ بن أبي طالب فطنا ذكيا ، فقد أدرك غرض طلحة والزبير وسر اختيارهما بلاد العراق ليتوليا حكمها . ففرض أن يحقق طلبهما ، وقال لهما أنه يود أن يقيما الى جواره ليستشيرهما في مهام الأمور .

بحث طلحة والزبير عن ثغرة أخرى ينفذان منها . فتقدما الى علي بن أبي طالب يطلبان منه الأخذ بثأر عثمان ، واقامة الحدود على مقاتليه . وكانا يدركان صعوبة تحقيق هذه المطالب في تلك الظروف الحرجة . ولذا أجابهما على فقال : يا اخوتاه ، انى لست أجهل ما تعلمون ، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم ؟! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثار اليهم أعرابكم ، وهم خلافكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موصعا لقدرة على شئ مما تريدون ؟ . فقالوا : لا . فلا والله لا أرى الا رأيا ترونه ان شاء الله ، ان هذا الأمر أمر جاهلية ، وان هؤلاء القوة مادة (١) .

وهكذا وافق عليّ بن أبي طالب على ما طالبه به طلحة والزبير ، وأقنعهما باستحالة تحقيقها في هذه الظروف المضطربة ، ووعدهما بأنه سيعمل برأيهما حين « يهدأ الناس وتقع القلوب

مواقعها وتؤخذ الحقوق ؛ فاهدءوا عنى وانظروا ماذا يأتكم
ثم عودوا » (١) .

غضب طلحة والزبير على على بن أبى طالب لأنه لم يحقق
أطماعهما فى توليتهما البصرة والكوفة . وكانا قد ركنا الى الهدوء
انتظارا لفرصة تسنح لهما . وجاءت هذه الفرصة حينما أعلن
معاوية الخلاف والعصيان فبدأ يعلنان الثورة على خلافة على ؑ
ليرغماه على أن يحارب فى ميدانين .

قدم طلحة والزبير على على بن أبى طالب يطلبان منه السماح
لهما بالخروج من المدينة الى مكة ، فقال على لهما : لعلكما تريدان
البصرة والشام ؟ فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة (٢) . وقد
اختارا قصد مكة لأنه كان هناك عائشة زوجة الرسول تؤدى
فريضة الحج ؛ وقد سمعت وهى فى طريقها الى المدينة ، بعد أدائها
فريضة الحج ، بمقتل عثمان والبيعة لعلى ، فعادت أدراجها الى
مكة ؛ وهناك التفت حولها كل ساخط على بيعة على ؑ .

أراد طلحة والزبير أن يصبغا حركة المعارضة التى يقودانها ؛
وهى حركة سياسية بحتة ، بصبغة دينية . فعائشة هى أم المؤمنين ،
زوجة الرسول ، وابنة أبى بكر الصديق أول من اعتنق الاسلام .
ورأى طلحة والزبير أن يحددوا هدفا واضحا يدعو الى ليكون
نواة لحركتهما ؛ فلم يريا خيرا من الدعوة للأخذ بشأر عثمان

(١) المصدر السابق .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ح ١ ص ٢٤٢ .

ابن عفان (١) . وفى مكة انضم الى عائشة وطلحة والزبير عبد الله ابن الزبير ، ومحمد بن طلحة ، وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة اللذان وليا الكوفة فى عهد عثمان ، وعبد الله بن عامر الذى سبق له أن ولى أمر البصرة .

رأى البعض قتال على فى المدينة ، ولكنهم أشفقوا عليها أن تكون مسرحا لمأساة أخرى ، وكفأها مأساة مصرع عثمان ، فضلا عن أن معظم أهل المدينة من أنصار على بن أبى طالب (٢) . واقترح البعض الكوفة وهناك من يميل الى الزبير ، ولكن كان هناك أبو موسى الأشعرى وقد ولاء على الامارة ، وكان أهل الكوفة لا يرضون بغيره بديلا . واقترح فريق ثالث الذهاب الى الشام . وقال الزبير مؤيدا هذا الاقتراح : الشام بها الرجال والأموال وعليها معاوية وهو ابن عم الرجل — يقصد عثمان — ومتى نجتمع يولنا عليه (٣) . ولكنهم سرعان ما عدلوا عن هذا رأى ، فقد كفاهم معاوية أمر الشام (٤) . وأخيرا استقر رأيهم على قصص البصرة ، فقد زعم لهم عبد الله بن عامر واليها السابق أن له بها صنائع ، وأن هنالك من يميل الى طلحة (٥) . ومدتهم ابن عامر بالأموال الكثيرة ، وأعطاهم يعلى بن أمية والى عثمان باليمن

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٦٩ .

(٢) الطبرى ح ٥ ص ١٦٧ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٦٤ .

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ح ١ ص ١٧٢ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب ح ١ ص ٢٤٢ .

الجل الذي ركبته عائشة وسميت موقعة الجمل باسمه ، ثم خرجوا الى البصرة في ثلاثة آلاف رجل (١) .

ابن الزبير بطل موقعة الجمل :

وهكذا برز حزبان كبيران ، حزب زيبري ترأسه الزبير ابن العوام وابنه عبد الله ، وحزب طلحة بن عبيد الله يعاونه ابنه محمد . واستند الحزبان على تأييد شخصية كبيرة كان لها جلالها وهيبتها وهى شخصية السيدة عائشة زوجة الرسول .

وعلم على بن أبى طالب برحيل هؤلاء القوم الى البصرة ، فتناهى معاوية والشام ، وعزم على صد طلحة والزبير عن موطن المال والرجال .

وهنا تبدأ نقطة تحول هام في التاريخ الاسلامى ، فقد خرج على من الحجاز الى الكوفة ، التى أصبحت منذ ذلك الحين مركزا للخلافة الاسلامية ، وبدأ شيعة على بالعراق يدافعون عما وصلوا اليه . ولكن انتصار معاوية — كما سيأتى — أضاع عليهم آمالهم . كما سنرى كيف هب الحجاز وراء عبد الله بن الزبير في سبيل عودة حاضرة الخلافة اليه . وهكذا كان خروج على الى العراق بداية صراع الأمصار الاسلامية على مركز الخلافة .

سيصبح الحجاز موطن الخلافة في عهد عبد الله بن الزبير ، بل سيكون العامل الأول لتأييد الحجازيين لابن الزبير هو حرصهم على وجود الحاضرة في بلدهم . ولذا أبدى الحجازيون ألمهم برحيل

(١) الطبرى ح ٥ ص ١٦٨ .

على بن أبي طالب . فطلب سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر
وأسماء بن زيد اغفاهم من مصاحبة جيش على . وأقبل الأشر
زعيم الكوفة فقال لعلى : « يا أمير المؤمنين اتا وان لم نكن من
المهاجرين والأنصار ، فانا من التابعين باحسان وان القوم وان
كانوا أولى بما سبقونا اليه فليسوا بأولى مما أشركناهم فيه ،
وهذه بيعة عامة ، الخارج منها طاعن مستعقب ، فعض هؤلاء
الذين يريدون التخلف عنك باللسان ، فان أبوا فادبهم
بالجس » (١) .

وخاف الحجازيون فوات الفرصة وضياع وجود الحاضرة في
بلدهم الى الأبد ، فلما هم على بن أبي طالب بالمسير الى العراق ،
اجتمع أشراف الأنصار فأقبلوا حتى دخلوا على على ، فتكلم
عقبة بن عامر ، وكان بدويا ، فقال : يا أمير المؤمنين ان الذى
يفوتك من الصلاة فى مسجد الرسول والسعى بين قبره ومنبره
أعظم مما ترجوه فى العراق . فقال على : ان الأموال والرجال
بالعراق ولأهل الشام وثبة أحب أكون قريبا منها (٢) . وهكذا
ثم النصر للعراق على الحجاز ، فانتقلت حاضرة الخلافة اليه .
وستنتقل الحاضرة الى دمشق فى العصر الأموى ، حتى تقوم دعوة
ابن الزبير ويتخذ مكة مركزا لخلافته .

وصل الزبير وابنه عبد الله ، وطلحة وابنه محمد ، والسيدة
عائشة ، الى البصرة ، حيث أعلن أهلها ولائهم . ورأى على

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ص ١٥٢ .

(٢) المصدر السابق .

ابن أبي طالب أن يستميل أهل الكوفة حتى لا ينضموا الى أعدائه .
ولكن أبا موسى الأشعري واليه على الكوفة رغب عن الفتنة وقتال
اخوان له في الدين ، متناسيا بيعته لعلي ، مما أثار غضبه فعزله
وولى قرظة بن كعب الأنصاري . واستأذن الأشتر من علي في
الرحيل الى الكوفة لتأديب أبي موسى ، وهناك أغار على
بيت المال وقصر الإمارة واستولى عليهما ، فخرج أبو موسى
الى مكة . واستحث حجر بن عدي أهل الكوفة على مناصرة علي
فاستجابوا لندائه (١) .

بالغ طلحة والزبير وابن الزبير في حسن ظنهم بأهل البصرة ،
فقد كان فريق كبير منهم يتشيعون لعلي . وعاب بعضهم عليهم
إخراج عائشة رضى الله عنها من بيتها . وشعر طلحة والزبير
بضعف حماس أهل البصرة ، فعمدوا الى الصلح مع عثمان
ابن حنيف أمير علي في البصرة ، على أن يكون لعثمان « دار
الإمارة ومسجدها وبيت المال ، وأن ينزل أصحابه حيث شاءوا
من البصرة ، وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا
حتى يقدم علي » ، فان اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس ، وأن
يتفرقوا ويلحق كل قوم بأهوائهم » (٢) .

ولكن هذا الصلح كان الى حين ، فما كاد طلحة والزبير يعلمان
أن عثمان قد نزع سلاحه ، حتى أغارا عليه ، وهو يصلى بالناس
صلاة العشاء ، فقبض جندهما عليه وضرباه ضربا مبرحا ، وهاجموا

(١) الطبرى ح ٥ ص ١٥٩ .

(٢) الطبرى ح ٥ ص ١٧٢ .

بيت المال ، وأدت هذه التصرفات الى انصراف أهل البصرة عن طلحة والزبير (١) .

كان طلحة والزبير يعلنان للناس أنهما انما خرجا طلبا لثأر عثمان . ولكن كان من بين المسلمين كثير يرون أنه لا حق لهما في ذلك . نرى هذا واضحا في كتاب سعد بن سور الى طلحة والزبير : « فان يك عثمان قتل ظلما فما لكما وله ؟ وان كان قتل مظلوما فغير كما أولى به ، وان كان أمره أشكل على من يشهده ، فهو على من غاب عنه أشكل » (٢) .

وقد خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير وقال لهما : ان ظفرتما لمن تجعلان الأمر ، أصدقاني ؟ قالا : نجعله لأحدنا أينما اختاره الناس . قال : بل تجعلونه لولد عثمان ، فانكم خرجتم تطلبون دمه . فقالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام !! (٣) . ولذا تخلّى الأمويون عن تأييد طلحة والزبير وحزبهما .

سار على حتى اقترب من البصرة والتقى الجمعان بمكان يقال له (الخريبة) في النصف الثاني من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، فدارت موقعة الجمل التي انتهت بمقتل طلحة والزبير ، ومصرع عشرة آلاف مسلم (٤) . وبايعت البصرة عليا ، واستعمل عليها عبد الله بن العباس ثم خرج قاصدا الكوفة ودانت له جميع الأمصار عدا الشام .

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٧٤ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٤٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٧ ص ٢٣٦ .

(٤) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ٧٦ .

قام عبد الله بن الزبير بالدور الأول في حرب الجمل . وقد كان
لنشأته أثر كبير في توجيه أطماعه نحو الخلافة . فقد كان أبوه
الزبير ابن عمة الرسول وحواريه . كما كان ربيب أم المؤمنين
عائشة ، وكان أول طفل يولد في الاسلام ، وفرح الرسول لولادته .
وكان ابن الزبير في صدر حياته يأمل في تولي أبيه الخلافة ، حتى
إذا شب عن الطوق وبلغ مبلغ الرجال عمل على أن يصل هو الى
الخلافة ، ولم ير بأسا أن يستعين بأبيه في تحقيق أطماعه . وقد
صلى أبوه خلفه ، اذ جعلته خالته عائشة اماما للجند ، وقد عاب
بعض المسلمين على الزبير صلاته خلف ابنه .

وقد بدأ طموح عبد الله بن الزبير الى الخلافة منذ كان أميرا
على بيت عثمان يوم الدار . وخاصة أن عثمان عهد اليه بوصيته
دون الآخرين . فاتخذ من هذا حجة على عهد عثمان له بالخلافة
كما عهد الرسول الى جده أبي بكر أن يصلى بالناس أثناء مرضه .
ووجد عبد الله في خالته عائشة أم المؤمنين نصيرا ومعينا . فقد
كان ربيبها حتى لقد كانت تكنى بأم عبد الله ، وقيل كناها بذلك
الرسول بابن أختها عبد الله (١) .

وكانت عائشة لا تميل الى تولية على بن أبي طالب الخلافة ،
وكانت تفضل عليه ابن عمها طلحة بن عبيد الله ، أو زوج أختها
أسماء وهو الزبير بن العوام ، أو ابن أختها عبد الله بن الزبير .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ٩١ .

وقد كانت تدفع بعبد الله الى الأمام ليناقس سائر أولاد الصحابة ،
وخاصة أولاد علي بن أبي طالب .

تحدث المؤرخ (ابن الأثير)^(١) عن تكريم عائشة لابن أختها
عبد الله بن الزبير وتقديمه على أبيه الزبير ، وعلى طلحة ، وسائر
قواد حرب الجمل ، فقال : « وخرجت عائشة ومن معها من مكة ،
فلما خرجوا أذن مروان بن الحكم ، ثم جاء حتى وقف على
طلحة والزبير ، فقال : على أيكما أسلم بالامرة وأوذن بالصلاة ؟
فقال عبد الله بن الزبير : على أبي عبد الله — يعنى أباه الزبير —
وقال محمد بن طلحة : على أبي محمد — يعنى أباه طلحة — .
فأرسلت عائشة الى مروان ، وقالت له : أتريد أن تفرق أمرنا ؟
ليصلى بالناس ابن أختى — تعنى عبد الله بن الزبير — » .

وكانت عائشة تحب عبد الله بن الزبير كثيرا ، فيذكر
ابن عساكر^(٢) : « ولم يكن أحب اليها بعد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وبعد أبيها ، من ابن الزبير ، وما سمعت تدعو لأحد
من الخلق مثل دعائها له ، وأوصت له بحجرتها » .

ويذكر المؤرخ (كاترمير)^(٣) انه لم يكن بين العرب الطامعين
في الخلافة في القرن الأول الهجرى ، باستثناء على ، رجل اجتمعت
له الحقوق والمؤهلات ، سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير .
وكان ابن الزبير في عهد علي بن أبي طالب يرى أحقيته بالخلافة ،

(١) الكامل ح ٣ ص ٨٨ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ح ٧ ص ٤٠٢ .

(٣) Quatremère : Memoire Hi 8^{es} d. 62 .

وقد عمل على تحقيق غرضه ، فعمل على تدعيم حزب الزبير وطلحة وعائشة سعيا وراء الخلافة ، وكان يد هذا الحزب ولسانه الناطق ، وكان لا يألو جهدا في جمع كلمته .

لقى طلحة والزبير حتفهما في موقعة الجمل ، ولو كانا قد انتصرا على علي بن أبي طالب لتنافسا على الخلافة وتطاحنا من أجلها . فقد قال أحد أنصارهما وهو معاذ بن عبيد : والله لو ظفرتنا لاقتلنا ، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ، ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر (١) .

موقف ابن الزبير من الصراع بين علي ومعاوية :

كانت أطماع عبد الله بن الزبير في السلطة والخلافة هي التي دفعته لتدعيم حزب أبيه الزبير وصاحبه طلحة ، وحث خالته عائشة على الانضمام اليهما ، ولكن الهزيمة التي لحقت بهذا الحزب أرغمت ابن الزبير على أن يرجئ أطماعه الى حين ، وكانت الهزيمة صدمة قاسية له ، فقد فتقد أباه الزبير ، وحليفه طلحة ، كما أصيب ابن الزبير بعدة جراح ، ولم يخلصه من الأسر سوى شفاعة عائشة له عند علي ، فعفا عنه . وزاد من يأس عبد الله أن ظهر على مسرح السياسة رجل قوى الشكيمة طامع في الخلافة هو معاوية بن أبي سفيان .

ووقف عبد الله بن الزبير من صراع علي ومعاوية موقف

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٣ ص ٨٨ .

المتفرج ، وهو يأمل أن تنتهى الحرب بالقضاء على واحد منهما واصابة قوى الآخر بالضعف .

اشتبك على ومعاوية فى موقعة صفين التى انتهت بالتحكيم ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار على أبا موسى الأشعرى . وبعث معاوية فى طلب عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ليحضرا التحكيم ، فأجاباه كارهين ، اذ لم يكن واحد منهما مقتنعا بأحقية معاوية فى الخلافة ، كما غضبا أشد الغضب لموقف معاوية وعمرو ابن العاص من على فى التحكيم (١) . ورغم ذلك ، فقد شهد ابن الزبير التحكيم وكان أحد الخمسة الذين وقعوا اتفاق أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص (٢) .

وكان مصرع على بن أبى طالب على يد أحد الخوارج هو نهاية لصراعه مع معاوية . فبايع المسلمون ولده الحسن بن على ؛ ولما هزمت جيوش الحسن أمام جند الشام ، نزل عن الخلافة لمعاوية حقنا للدماء ، على أن يكون الأمر بعد وفاة معاوية شورى بين المسلمين . ولذا بدأ دور جديد فى حياة ابن الزبير ، وهو دور صراعه مع معاوية والدولة الأموية .

(١) Quatremere : Memoire Hist . . . , p.300

(٢) هؤلاء الخمسة هم : عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ابن الخطاب ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وجبير بن مطعم ، وعبد الرحمن ابن الحارث بن هشام .

٤ - موقف ابن الزبير من قيام الدولة الأموية

ابن الزبير في صدر الدولة الأموية
موقف ابن الزبير من خلافة معاوية
ابن الزبير زعيم حزب المدينة
ابن الزبير زعيم حزب أبناء الصحابة
معاوية يحاول استمالة ابن الزبير
ابن الزبير يشترك في غزو القسطنطينية
معارضة ابن الزبير البيعة ليزيد بولاية العهد

موقف ابن الزبير من قيام الدولة الأموية

ابن الزبير في صدر الدولة الأموية :

اختلف موقف عامة المسلمين من خلافة معاوية ، بين التأييد والمعارضة . أما المؤيدون ، فقد بايعه بعضهم بقلبه وإيمانه ، والبعض الآخر مكرها أو سعيًا وراء منافع شخصيته . أما هؤلاء الذين بايعوا عن إيمان وعقيدة ، فقد رأوا في حزب بنى أمية حزب الدين والنظام ^(١) . ورأوا أنه ما دام الحسن قد نزل عن الخلافة لمعاوية ، فقد أصبحت خلافته أمراً محتوماً ، فعليهم السمع والطاعة له ، واحترام اجماع الأمة . ويعتبر معظمهم بيعه معاوية بيعه صحيحة . ورأت هذه الجماعة أن بيعه معاوية توافق تماماً ما جرت عليه القبائل العربية في الجاهلية ، فقد كانوا يختارون من يلي السابق في الأهمية بمجتمعهم ، واتباع هذا المبدأ في اختيار — أو تعيين — الخلفاء الثلاثة الأول : أبو بكر وعمر وعثمان . ويمكن أن نعتبر أيضاً أن علي بن أبي طالب وصل إلى الخلافة في الزمن الذي قدمته الظروف إلى الصف الأول ، دون أن يكون لذلك أى علاقة مع الارث أو التخصيص ، ولذا كان من الطبيعي

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٠ .

أن تؤول الخلافة بعد عليّ إلى معاوية ، فقد كان أبرز شخصية في ميدان السياسة (١) .

وكان معاوية جديرا بالخلافة ، فقد كان « مربى دول ، وسائس أمم ، وراعى ممالك » (٢) . وكان له من الخبرة والجربة ما يؤهله للخلافة ، فقد كان كاتب وحى الرسول ، ووالى عمر وعثمان على الشام لمدة عشرين سنة ، فتحنك فى الادارة ، وأصبح اماما فى صناعته (٣) .

وبجانب هذه الفئة المؤمنة بخلافة معاوية ، توجد فئة أخرى دفعتها الرغبة أو الرهبة إلى البيعة لمعاوية . فقد أصدق معاوية الأموال على رجالات الدولة ومعظم الأحزاب . وهناك من دفعتهم الرهبة إلى البيعة لمعاوية ، وان كرهوا ذلك ، « فكان الرجل يحضر فيقول : والله يا معاوية انى لأبايعك وانى لكاره لك . فيقول : بايع ، فان الله قد جعل فى المكروه خيرا كثيرا » (٤) .

والى جانب هؤلاء الراغبين والراهبين ، توجد فئة من عامة المسلمين أعلنت عداها صراحة لمعاوية وبنى أمية ، وفى مقدمتهم القبائل العربية المستقرة فى العراق وخاصة تميم وباهلة وبكر . كما اتحد الخوارج والشيعة على كراهية معاوية وبنى أمية رغم عدا هذه الحزبين بالأمس . لكن معاوية نجح فى القضاء على هذه

(١) رونلدىسن : عقيدة الشيعة ص ٨٢ .

(٢) الفخرى ص ٧٨ .

(٣) كرد على : الادارة الاسلامية ص ٦٥ .

(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ١٩٢ .

العقبات ، بالدهاء والسياسة تارة ، وبالتهديد أو ببذل الأموال تارة أخرى ، كما لجأ الى الدعاية لنفسه ، فبث القصاص فى المساجد والمجتمعات يدعون له ولأهل الشام ، ويقطعون المسلمين ويقصون عليهم ما يليّن قلوبهم (١) . وأثمرت هذه السياسة فركن معظم المعارضين الى الهدوء ، ولعلمهم أدركوا عبث مقاومتهم لخلافة معاوية التى فاز بها رغما عنهم .

موقف ابن الزبير من خلافة معاوية :

كان عبد الله بن الزبير وأهالى الحجاز من أشد المعارضين للدولة الأموية وخلافة معاوية . فقد ألمهم انتقال حاضرة الدولة العربية الاسلامية من المدينة بالحجاز الى دمشق بالشام . فقد رأى معاوية أن المدينة لم تعد تصلح لأن تكون حاضرة الدولة الاسلامية كما كانت فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان . وقد أدركه على بن أبى طالب حقيقة الأمور فنقل حاضرة خلافته الى الكوفة حيث شيعته وأنصاره . ثم نقل معاوية الحاضرة بدوره الى دمشق بحيث أنصاره .

ويرى المؤرخ (توماس أرنولد) (٢) أنه ما دامت الحكومة المركزية فى المدينة فالنفوذ الاسلامى هو المسيطر ، اذ كان بإمكان أصحاب النبى المخلصين أن يحاولوا تنظيم الجتمع الجديد حسب

(١) كرد على : الاسلام والحضارة العربية ص ٢ ص ١٤٨ .

(٢) الخلافة ص ١٠ - ١١ .

تعاليم الرسول ، ولكن عندما جعل معاوية دمشق عاصمة الدولة ، اعتبر العرب أنفسهم طبقة حاكمة سامية .

وكان وجود ابن الزبير وأبناء صحابة الرسول في المدينة وغيرها من مدن الحجاز ، دافعا لمعاوية في وضع سياسة متسيزة لحكم بلاد الحجاز ، تختلف تماما عن سياسته في حكم سائر الأقطار الاسلامية . ولكن هذه السياسة أثارت مشاعر أهل الحجاز ومهدت الطريق أمام ابن الزبير ليكتسب ولاء أهل الحجاز .

فقد اتبع معاوية سياسة فريدة في حكم بلاد الحجاز ، فكان يحرص على تولية أقاربه الأمويين على المدن الحجازية ، وحرص في نفس الوقت على الايقاع بينهم ، متبعا سياسة « فرّق تسد » .

ففي سنة ٥٤ هـ عزل معاوية عامله على المدينة سعيد بن العاص واستعمل بدله مروان بن الحكم ، وسبب ذلك أن معاوية غضب على مروان فأمر سعيدا بهدم داره ومصادرة أمواله ، فأبى سعيد تحقيق أمره . فعزل معاوية سعيدا وولى بدله مروان وأمره بهدم دار سعيد ومصادرة أمواله . فلما هم مروان بتنفيذ أوامر الخليفة عاتبه سعيد وأطلععه على كتاب معاوية اليه فامتنع عن هدم الدار^(١) .

وكتب سعيد الى معاوية كتابا يعاتبه فيه ، جاء فيه : « العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا في قرابتنا أن يضغن بعضنا على بعض ، فأمر المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره من الأخشين وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث الأولاد ذلك ، فوالله

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٣ ص ٢١٢ .

لو لم تكن بنى أب واحد الا ما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقا علينا أن نرعى ذلك» (١)
وكتب معاوية الى سعيد معتذرا ، لكنه لم يلبث أن عزل مروان سنة ٥٨ هـ ، وولّى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان . ويرى أحد الكتاب (٢) أن سبب هذه السياسة هو رغبة معاوية ايقاع الخلاف بين أقاربه الذى يخشى تفوذهم على يزيد وحفدته من بعده ، فكان يضرب بعضهم ببعض حتى يظلوا بحاجة الى عطفه وعنايته .

لكن معاوية لم يقع فيما وقع فيه عثمان ، فلم يطلق يد مروان ابن الحكم أو غيره من أقربائه شئون الخلافة ، فلم يول أحدهم أحد الأمصار الكبيرة كالعراق مثلا ، فقد كان يخاف أن يسيروا فى الطريق الذى سار فيه لتوطيد أمره فى الشام واكتفى بأن أوّطأ لذوى قرباه الحجاز ، فكان يولى أحدهم الطائف أولا ، فان رأى فيه خيرا ولائه مكة بعدها . ولعله رأى أن أقاربه من بنى أمية خير من يراقبون حركات أبناء الصحابة المقيمين فى الحجاز ، وخاصة الحسين بن على وعبد الله بن الزبير . كما أن هؤلاء الولاء الأمويين يكونون أرفق لهم وألين معاملة من ولائه الآخرين وخاصة المغيرة بن شعبة وزباد بن أبيه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان هذا التبديل والتغيير ، بالإضافة الى شدة الولاة الأمويين ، ثغرات نفذ عبد الله بن الزبير الى التمهيد

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢١٨ .

(٣) عمر أبو النصر : السياسة عند العرب ص ٩٨ .

لخلافته في الحجاز ، وتكوين حزب كبير من الساخطين على الحكم الأموي .

استفاد عبد الله بن الزبير من نقل معاوية الحاضرة الى دمشق ، وبيّن المقرئ ^(١) أثر هذا الانتقال ، فيقول عن معاوية أنه « لم يزل مستوطنا بالشام بمدينة دمشق الى أن تمكنت الخوارج في أقصى البلاد وتداخل الأمر بين العراقيين والحجازيين واليمانيين والشاميين ، وتفاقم بين كل منهم البغض والعداوة ، ولم يقدر لهم معاوية بشيء ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

ابن الزبير زعيم حزب المدينة :

كان أهل المدينة يتمسكون بالسنن النبوية ، والتقاليد العربية العتيقة ، ولذا لم يرضوا عن صبغ الدولة الأموية بصبغة زمنية دنيوية ، واقتباس بعض النظم الرومانية . ونجح عبد الله بن الزبير في الاستفادة من آراء أهل المدينة ، فقد استطاع أن يجمعهم حوله ويؤلف منهم حزبا قويا متماسكا .

ووقعت حادثة استفاد منها ابن الزبير في إثارة مشاعر أهل المدينة ضد معاوية . فيروي المؤرخ أبو المحاسن ^(٢) أنه في السنة الخمسين بعد الهجرة « أراد معاوية نقل منبر النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة وأن يحمل الى الشام وقال : لا يترك هو وعصا النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهم قتلة عثمان . فطلب العصا

(١) المقرئ : الجمان في أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ١٤٠ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٨ - ١٣٩ ..

وهي عند سعد القرظ ، وحرك المنبر فكسفت الشمس حتى رؤيت
النجوم بادية ، فأعظم الناس ذلك فتركه . وكان لهذا الحدث
أسوأ الأثر في نفوس أهل الحجاز قاطبة ، وشعر معاوية بخطئه
فاعتذر وزاد في المنبر ست درجات .

كما استفاد ابن الزبير من مظاهر الملك التي صبغت الدولة
الأموية ، ويلخص المؤرخ اليعقوبى ^(١) هذه المظاهر فيقول :
« وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرط والبوابين في
الاسلام ، وأرعى الستور واستكتب النصارى ، ومشى بين يديه
بالحراب ، وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس
تحتة ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء وسخر الناس في
البناء .. وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك » . ويرى المؤرخ
(نيكلسن) ^(٢) أن الأمويين كانوا ملوكا بالفعل خلفاء بالاسم .
ولذا لا عجب أن قارن أهل المدينة بين معاوية وبين زعيمهم عبد الله
ابن الزبير ، وقد اشتهر بينهم بالزهد والصلاح والبساطة .

واهتم معاوية بسبب على بن أبى طالب من فوق المنابر ،
مما أثار مشاعر الشيعة خاصة ومشاعر أهل الحجاز عامة . وعلى
الرغم من أن ابن الزبير قد اشترك مع أبيه الزبير في حرب الجمل
ضد على بن أبى طالب ، إلا أن ابن الزبير لم يحدث أن أساء الى
على بن أبى طالب بعد مصرعه ، بل كان صديقا لابنه الحسين
ابن على ، وكان يحرص على شهود مجالسه .

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٢) Lit. Hist. of the Arabs' p. 181

ابن الزبير زعيم حزب أبناء الصحابة :

كان أخشى ما يخشاه معاوية على الخلافة الأموية ، هو طمع الطامعين في الخلافة من أصحاب الرسول وأبنائهم الذين اتخذوا من المدينة مقاما لهم ومركزا لحركاتهم ، ونجحوا في تكوين حزب قوى متماسك يعارض الحكم الأموي دائما ، ويحاول هدم الدولة الأموية .

تزعّم حزب أبناء الصحابة الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير . وكان ابن الزبير أكثر طموحا من الحسين الى الخلافة في عهد معاوية ، فقد آثر الحسين الركون الى الهدوء بعد تنازل الحسن ابن علي عن الخلافة لمعاوية . وحفظ معاوية لهما صنيعهما ، فيروى الدينوري ^(١) أنه « لم ير الحسن ولا الحسين طول حياة معاوية منه سوءا في أنفسهما ولا مكروها ولا قطع عنهما شيئا مما كان شرط لهما ولا تغير لهما عن بر » .

أما سائر أبناء الصحابة فقد اتبع معهم معاوية سياسة الحلم وادرار المال فيذكر صاحب الفخرى ^(٢) : « فلا يزال أشرف الناس مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر الطيار ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبان ابن عثمان ، وفاس من آل أبي طالب — رضى الله عنهم — يقدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ، ويحسن قراهم ، ويقضى حوائجهم ، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ، وهو يداعبهم تارة ، ويتغافل

(١) الأخبار الطوال ص ٢٣٨ .

(٢) الفخرى ص ٩٢ .

عنهم أخرى ، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية ، والصلوات الجمعة .
ولم يكن معاوية يعمل على تدعيم حكمه أو خلافته فحسب .
بل كان يعمل على انشاء دولة أموية قوية كبرى ، واستمرار البيت
الأموي في حكم الدولة العربية الاسلامية . ولذا عمل على القضاء
على الحركات المعارضة ، واستخدم في سبيل ذلك شتى الوسائل ،
فأغدق الأموال ، ووهب المناصب ، وجيش الجيوش ، وبث
العيون والأرصاد والشرطة في الولايات ، وقرَّب الشعراء اليه
فانطلقت ألسنتهم بالمديح والثناء ، وحث القصاص على قص
القصص في المساجد ، تدعو المسلمين الى طاعة أولى الأمر .
ولذا سكنت الأحزاب الى حكمه وركنت الى الهدوء ، عدا حزب
أهل المدينة بزعامة عبد الله بن الزبير .

معاوية يحاول استمالة ابن الزبير :

نجح معاوية في حث الحسن والحسين بن علي على أن يركنا الى
الهدوء والسلام . وبقي أمامه خصم عتيد هو عبد الله بن الزبير
الذي انفرد بزعامة حزب أهل المدينة وحزب أبناء الصحابة . وبذل
معاوية كل جهد لاستمالة ابن الزبير وحثه على طاعة الدولة
الأموية .

فكان معاوية اذا لقي ابن الزبير يقول له : مرحبا بابن عمه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن حوارى رسول الله صلى الله
عليه وسلم . ثم يأمر بمنحه مائة ألف درهم (١) .

(١) تاريخ ابن عساكر ح ٧ ص ٣٩٨ .

حتى اذا لم يجند سلاح المال ، لجأ الى سلاح الاقناع . فكان معاوية يعقد المجالس مع ابن الزبير ، فيتناظران ، ويحاول كل منهما ابراز تقدمه وفضله . ويصف صاحب العقد الفريد (١) أحد هذه المجالس .

قال معاوية لابن الزبير في هذا المجلس : تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى ! فقال ابن الزبير : لِمَ لا أكون أحق به منك يا معاوية ، وقد اتبع أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الايمان ، واتبع الناس أباك على الكفر . فقال معاوية له : غلطت يا ابن الزبير ، وبعث الله ابن عمى نبيا فدعا أباك فأجابه ، فما أنت الا تابع لى ضالا كنت أو مهديا .

وهكذا تفاخر ابن الزبير بسبق أبيه الزبير فى الاسلام على أبى سفيان ، والد معاوية . وقد قاد أبو سفيان — كما نعلم — جيوش الوثنيين التى قاتلت الرسول والمسلمين فى الغزوات . بينما اعتبر معاوية الرسول صلى الله عليه وسلم ابن عمه ، اذ أن بنى أمية هم أبناء عمومة بنى هاشم .

وفى مجلس آخر ، تناظر معاوية وابن الزبير ، وتفاخرا ، وساق كل منهما الحجج والأسانيد ، ثم رأيا أن يحتكما الى واحد ممن حضروا هذا المجلس ، وهو أبو جهم بن حذيفة . فقال أبو جهم لمعاوية : نعم أمك هند ، وأمه أسماء بنت أبى بكر ، وأسماء خير من هند . وأبولك أبو سفيان ، وأبوه الزبير ، ومعا

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ١١٦ .

الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير . وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة
فله ان شاء الله .

وهكذا تفاخر معاوية وابن الزبير بالآباء والأمهات . وإذا كان
هذا رأى أبى جهم وقد وجد من الشجاعة ما جعله يبوح به في
حضرة معاوية ، دون حرج أو تردد ، فماذا كان رأى عبد الله
ابن الزبير وأتباعه من حزب المدينة وأبناء الصحابة ؟ !

أما رأى معاوية في ابن الزبير ، فانه يتمثل في هذه القصة التي
رواها ابن عساکر (١) : « وكان معاوية سائرا في طريق مكة فنام
ومعه ابن الزبير . فلما استيقظ قال له : أتنام وأنا معك ؟ أما تخاف
أن أقتلك ؟ ! فقال له : لست من قتال الملوك ؛ انما يصيد كل
طير قدره ، وانما أنت يا ابن الزبير ثعلب رواق تدخل من جحر
وتخرج من جحر » . وقد شبه معاوية خصمه ابن الزبير بالثعلب ،
فقد تميّز بالدهاء والمكر والحيلة والذكاء .

حاول معاوية استمالة ابن الزبير ، فاتخذ سلاح المال ، ثم
سلاح الاقتناع والمناظرة ، ثم لجأ الى سلاح الدهاء والحيلة .
فحاول أن يوقع بين زعيمى حزب أهل المدينة وأبناء الصحابة ،
عبد الله بن الزبير والحسين بن على ، فقد دخل الحسين بن على
قصر معاوية وكان في حضرته عبد الله بن الزبير ، فرحب معاوية
بالحسين وأجلسه معه على سريره ، ثم أشار له على ابن الزبير
وقال : ترى هذا القاعد ؟ فانه ليدركه الحسد لبنى عبد مناف .

فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن ان شئت أعلمتك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فعلته !! (١) .

وخير ما يمثل سياسة الحلم والدهاء التي اتبعها معاوية مع ابن الزبير ، قصة تذهب الى أن ابن الزبير لجأ الى معاوية شاكيا أحد ولاته وقد أحرق دارا له ، فطلب معاوية من ابن الزبير أن يقدّر ثمن هذه الدار ليدفعه له تعويضا عنها ، فقدرها بمائة ألف درهم ، وأتى بشاهد شهد له بذلك . حتى اذا انصرف ابن الزبير قال معاوية لمن حضروا مجلسه : والله لأعرف داره ، وما هي الا خصائص قصب ، ولكنهم يقولون فنسنع ، ويخادعوننا فننخدع !

واذا كان ابن الزبير طامعا في الخلافة ، واذا كان قادرا على أن يقف من معاوية موقف المجادل المناظر ، الا أن ابن الزبير لم يكن يستطيع أن يشن حربا أو يرفع راية العصيان ضد معاوية ، فلم يكن لابن الزبير بعد من القوة الحربية ما تمكنه من قتال معاوية أو معارضته . كما أن الدولة الأموية لا تزال في عنفوان قوتها . ويرى المؤرخ (وليم ميور) (٢) أن معاوية كان مطمئنا من ناحية ابن الزبير ويرى أنه لن يطالب بالخلافة طالما كان الحسين بن علي على قيد الحياة .

(١) المصدر السابق .

The Caliphate p. 386 (٢)

ابن الزبير يشترك في غزو القسطنطينية :

مما يزيد اعجابنا بعبد الله بن الزبير ، أنه ما من من حرب تهدف الى نشر الاسلام الا اشترك فيها . وقد رأيناه يشترك في موقعة اليرموك الى جانب أبيه الزبير بن العوام ، وكان عبد الله حينئذ في الرابعة عشرة من عمره ، وذلك في عهد أبي بكر . كما صحب عبد الله أباه الزبير في فتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب . ثم رأينا ابن الزبير بطل المسلمين في فتح افريقية في عهد عثمان ابن عفان ، وقد مر بنا الدور الكبير الذي قام به في هذه الحروب . ورغم ما كان من عداء ابن الزبير لمعاوية ، ورغم معارضته للدولة الأموية ، فانه يتناسى دائما هذه الخصومة السياسية ليلبى دعوة الواجب ، ويستجيب لنداء الجهاد في سبيل الاسلام . ولذا نراه في سنة ٥٥ هـ يشترك مع الجيش الاسلامي الذي وجهه معاوية لغزو القسطنطينية ، ورضى أن يعمل جنديا تحت قيادة يزيد بن معاوية .

نجح جيش معاوية في القضاء على حركات المردة ، واستطاع أسطوله محاصرة القسطنطينية حصارا شديدا ، برغم النار الحربية التي اخترعها الروم أثناء ذلك الحصار واستخدامها ضد المسلمين . ولم يلجأ معاوية الى رفع الحصار الا حين أحس بدنو أجله ، وأن الحكمة تقتضى وجود القوات الحربية للمحافظة على سلامة البيت الأموي خشية الفوضى والاضطراب (١) .

(١) العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٦٧ .

معارضة ابن الزبير البيعة ليزيد بولاية العهد :

كانت فكرة بيعة معاوية لابنه يزيد بولاية العهد نقطة تحول في موقف ابن الزبير من خلافة معاوية ومن الدولة الأموية . فقد ركن ابن الزبير الى الهدوء في الفترة الأولى من خلافة معاوية ، مكتفياً — كما رأينا — بإبداء سخطة مشافهة . وكان ابن الزبير يعلم أن تنازل الحسن بن علي لمعاوية كان مشروطاً بجعل الخلافة شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية ، ولذا بات ابن الزبير يتربص بموت معاوية ، فقد ينجح حينئذ في الوصول الى الخلافة فيستفيد من هذه الشورى ، وقد نجح في تكوين حزب مناصر له في المدينة لخاصة وفي الحجاز عامة ، كما يستطيع أن يضم اليه كل الساخطين على الحكم الأموي .

ولذا أعلن ابن الزبير معارضته الشديدة للبيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد . فقد كان يزيد في عنفوان شبابه ، وقد تطول خلافته فتضيع الفرص على ابن الزبير لتحقيق أطماعه . كما أن البيعة ليزيد تجعل الخلافة وراثية ، ومحصورة في البيت الأموي ، مما يقضى على آمال ابن الزبير وسائر أبناء الصحابة في تولي الخلافة . ولذا لا عجب أن تزعم ابن الزبير حركة المعارضة لاجباط البيعة ليزيد .

كان صاحب فكرة البيعة ليزيد هو المغيرة بن شعبة ، فقد أراد معاوية عزله عن الكوفة وتعيين سعيد بن العاص مكانه . ففكر المغيرة في وسيلة تحفظ له منصبه وتقربه من معاوية ، فاقترح عليه أخذ البيعة لابنه يزيد ، وذكره بالأحداث التي وقعت بعد

عثمان (١) . وأبدى معاوية سروره لهذا الاقتراح وأعاد المغيرة إلى ولايته مكافأة له على إخلاصه للبيت الأموي .

أخذ معاوية يمهّد الأمور ؛ باقناع العراق والحجاز بالبيعة ليزيد . أما العراق ، فأمره سهل هيتن ؛ فهناك ولاية قد قبضوا على ناصية الأمور بقبضة من حديد . أما الحجاز ؛ فهو موطن الصحابة وأولادهم ، وقد مر بهم سوابق اختيار الخلفاء الراشدين ، مما يحملهم على الوقوف موقف المعارضة .

وبدأ معاوية بالعراق ؛ حيث المغيرة وإلى الكوفة ، وزباد وإلى البصرة . وأرسل المغيرة عشرة من أهل الكوفة وعلى رأسهم ولده موسى ومنحهم بعض الأموال ليؤكدوا لمعاوية أن الكوفة تقبل البيعة ليزيد (٢) . ولكن زياد بن أبيه لم يكن كزميله المغيرة فأبى عليه إخلاصه أن يوافق معاوية على تحقيق هذه الفكرة ؛ فكان يرى أن يزيد بن معاوية غير جدير بالخلافة لما هو عليه من « تهاون مع ما قد أولع به من الصيد » (٣) . وقدم رسول زياد على معاوية فأبلغه أن زيادا يرى التؤدة والتروى في الأمر . وإذا كان هذا رأى زياد وهو أعظم ولاية الأمويين إخلاصا ؛ فماذا يكون رأى ابن الزبير وهو في مقدمة المناوئين للدولة الأموية ؟

ورأى معاوية أنه تسرع في الاقتناع بفكرة المغيرة ، وأن من الخير أن يتبع نصيحة زياد في التروى والتأني . وعلم معاوية أن

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ، ص ١٦٨ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٦٩ .

(٣) الطبري ج ٦ ص ١٧٠ .

أخلاق ابنه يزيد وسجاياء ستكون عقبة في البيعة له ، فطلب معاوية منه أن يقوم أخلاقه ، واستجاب يزيد لنداء أبيه فكف عن كثير مما كان يصنع

وآراد معاوية أن يستطلع رأى أهل الحجاز ، فرحل الى المدينة سنة ٥٠ هـ متظاهرا بالحج . ودعا اليه زعماء الصحابة من أمثال عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير . ولم يدع الحسن أو الحسين ابني علي بن أبي طالب . واقترح معاوية عليهم أن يعهد بولاية العهد لابنه يزيد ، فهبوا في وجهه يبدون معارضتهم واستنكارهم .

وكان عبد الله بن الزبير هو لسان أبناء الصحابة الناطق ، يعبر عن معارضتهم لفكرة البيعة ليزيد فقال : « أما بعد . فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء ، فائق الله يا معاوية وانصف عن نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذو الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله ابن الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلاف حسنا وحسنا ، وأنت تعلم من هما وما هما ، فائق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » (١) .

ونهج أبناء الصحابة نهج ابن الزبير ، فأعادوا حديثه ، وحاكوه في معارضته لاقتراح معاوية ، حتى اذا انتهوا من التعبير عن آرائهم

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٢٦ .

قال معاوية لهم : « قد قلت وقلتم ، وانه قد ذهب الآباء وبقيت الأبناء ، فابنى أحب الى من أبنائهم ، مع ان ابني اذا قاو لتموه وجد مقالا ، وانما كان هذا الأمر لبنى عبد مناف لأنهم أهل رسول الله ، فلما مضى رسول الله ولّى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة . ثم رجع الملك الى بنى عبد مناف فلا يزال فيهم الى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا ابن الزبير وأنت يا ابن عمر منها . فأما ابنا عمي هذان — الحسن والحسين — فليس بخارجين من الرأى ان شاء الله » (١) .

ويش معاوية من هؤلاء الصحابة ، فعاد أدراجه الى الشام ؛ ولم يهتم بأخذ البيعة منهم لابنه يزيد بولاية العهد ، ولم يقطع عنهم صلاتهم وأعطيائهم ، وترك أمر البيعة ليزيد رهنا للظروف ، وبات يترقب فرصة مواتية .

ثم جاءت الفرصة المواتية ، فأخرج معاوية هذه الفكرة الى حيز التنفيذ . أما عن الأسباب التي دفعت بمعاوية لاهياء المشروع القديم ، فقد اختلف المؤرخون فيها . فيرى ابن الأثير (٢) أن وفاة زياد بن أبيه هي سبب عودة الفكرة ، بينما يرى ابن قتيبة (٣) ذلك بوفاة الحسن بن على . ونحن نوافق على رأى ابن قتيبة ، فلم يكن معاوية يخشى من معارضة زياد بن أبيه وقد ضمن ولاءه منذ ولّاه حكم العراق وآخاه فألحقه بأبيه أبى سفيان .

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧ .

(٢) الكامل ح ٣ ص ٢١٥ .

(٣) الامامة والسياسية ح ١ ص ١٢٧ .

ورأى ابن قتيبة أقرب الى الواقع ، فمعاوية لم يكن يضمن نجاح مشروع البيعة ليزيد بولاية العهد طالما كان الحسن بن عليّ على قيد الحياة . فقد نزل الحسن لمعاوية عن الخلافة بشرط جعلها شورى بين المسلمين بعد وفاته ، حتى اذا مات الحسن شعر معاوية أنه في حلّ من هذا الشرط . وكان معاوية في رحلته الاستطلاعية الى الحجاز ، لم يدع الى مجلسه الحسن والحسين ، رغم دعوته سائر أبناء الصحابة . فقد كان من العسير على معاوية أن يواجه الحسن بطلب البيعة منه ليزيد .

وبعد وفاة الحسن بن عليّ ، خلا الجو لمعاوية ، فأخذ البيعة ليزيد في الشام ، وكتب ببيعته الى الأمصار الاسلامية ، ثم أراد أن يحصل على بيعة أهل الحجاز .

كتب معاوية الى مروان بن الحكم الوالى الأموى في المدينة المنورة ، يطلب منه أخذ البيعة من أهلها ليزيد ، فثار الصحابة في وجهه بعارضون المشروع ويهدمون من أساسه . وعبر عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق عن رأيهم فقال : « تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل ؟ ! » ^(١) . حتى اذا وجد مروان بن الحكم أنه عاجز عن اقناعهم ، بعث الى معاوية ينبئه بذلك ، فعزله معاوية وولّى بدله سعيد بن العاص . وفي الحق ، أن مروان بن الحكم قد تهاون في حمل هؤلاء المعارضين على البيعة ليزيد ، فقد كان هو نفسه طامعا في الخلافة كما سنبين ذلك فيما بعد .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢١٦ .

ورأى معاوية أن بعيد الكرّة بعد أن أخفق واليه مروان ، فطلب من واليه الجديد سعيد بن العاص أن يدعو أهل المدينة الى البيعة ليزيد . ورأى سعيد أن يأخذ الناس بالعزم والشدة ، إذ أنه خشى أن يكون مصيره كمصير سلفه مروان . فاستجاب لدعوته كثير من الناس بدافع الرهبة من سطوته ، ولم يخالفه سوى بنو هاشم .

قاد عبد الله بن الزبير حركة المعارضة في المدينة لمشروع البيعة ليزيد ، ويتضح هذا في خطاب سعيد بن العاص الى معاوية ، فقد جاء فيه : « .. واني أخبرك أن الناس عن ذلك بطاء لا سيما أهل البيت من بنى هاشم ، فانه لم يجبنى منهم وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته وابائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم الا بالخيّل والرجال ؛ أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى هذا ، والسلام » (١) .

اقترح سعيد بن العاص على معاوية اقتراحين ، أحدهما انقادة الجيوش لارغام ابن الزبير وأهل المدينة على البيعة ، وثانيهما أن يقدم معاوية بنفسه الى المدينة ليقنعهم بالحجة والبيان . وكان معاوية حليماً صبوراً ، كما كان ذكياً فطناً ، فأدرك أن البيعة لا تكون كرها حتى لا ينقضونها بعد وفاته ، ورأى أن يلجأ الى الاقتراح الثانى .

واتتهز معاوية فرصة موسم الحج ليخرج الى الحجاز ليأخذ

(١) ابن قتيبة : الاممة والسياسة ح ١ ص ١٢٩ .

بيعة أهلها بنفسه . ورأى معاوية أن يستفيد من الفترة السابقة
لحلول موسم الحج ، فكتب رسائل إلى أبناء الصحابة وطلب من
واليه سعيد بن العاص أن يبعث برؤسهم عليها إليه .

وكتب معاوية إلى عبد الله بن الزبير يستدعي الاهتمام حقا .
فقد كان الكتاب الوحيد الذي كتب بالشعر ، على حين كانت
سائر الكتب نثرا . وكان معاوية يدرك فصاحة ابن الزبير واجادته
نظم الشعر ، فظن أن الشعر قد يكون أوقع وأشد تأثيرا في نفسه .
وقد حملت آيات معاوية إلى ابن الزبير تحذيرا له ، فهو يخبره أنه
وإن كان قد تسامح معه فيما مضى ، فهو يحذره عاقبة اللؤم
والغش . وكان رد ابن الزبير على معاوية شعرا أيضا ، فهو ينكر
على معاوية حلمه معه ويحذره من تنفيذ ما يهدده به ، ويتوعده
بأنه سيلقى أسدا في عرينه ، ويشبه ابن الزبير نفسه بالأسد ،
والمدينة المنورة بالعرين . ثم يختم ابن الزبير رسالته بتهديد معاوية
فيقول :

وأقسم لولا بيعة لك لم أكن لأتقضها لم تنج مني مسلما (١)
ولما رأى معاوية صلابة عود أبناء الصحابة ، رأى أن يقدم
إلى المدينة لأخذ البيعة ليزيد بعد أن بايعه أهل العراق والشام .
فقدم إلى المدينة زمن الحج ، يدفعه الرغبة لأخذ البيعة ليزيد .
فلما خرج أبناء الصحابة إلى لقائه ، أساء لقاءهم وسبهم ، وكان
أشد تحاملا على عبد الله بن الزبير ، فقال معاوية له : لا مرحبا

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٢٠ .

ولا أهلا ، خبّ خبّ تلعة يدخل رأسه ويضرب بذنبه ويوشك
والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره » (١) . وهكذا وصف معاوية
ابن الزبير بأنه (خب) أى الرجل الخداع ، وأنه (تلعة) وهو
المكان المرتفع الذى يصعب الوصول إليه .

رفض معاوية أن يأذن لأبناء الصحابة بالدخول عليه ، فرحلوا
عن المدينة الى مكة . وقصد معاوية الى السيدة عائشة زوجة
الرسول رضى الله عنها ، وتوجه لها بالشكوى من أبناء الصحابة ،
وهدّد بقتلهم ، وقال لعائشة : « .. ولكنى بايعت ليزيد وبايعه
غيرهم ، أفترين أن أنقض بيعة تمت ؟ » (٢) واجتهدت السيدة
عائشة فى أن تهدئ من ثورة غضبه ، ونصحتة أن يعامل أبناء
الصحابة بالرفق حتى يوافقوه على طلبه ، فوعدها معاوية بذلك .
رحل معاوية من المدينة الى مكة . وهناك التقى بأبناء الصحابة
فأحسن لقاءهم ، ومنحهم صلاته وهباته ، وكان نصائح عائشة
قد أثمرت . ولكن أبناء الصحابة لم يحدوا عن معارضتهم وعزموا
على أن يصارحوه برأيهم ، واتفقوا على أن ينوب عنهم عبد الله
ابن الزبير فى مخاطبة معاوية والتعبير عن معارضتهم .

أصبح ابن الزبير لسان أبناء الصحابة الناطق ؛ ودعاهم معاوية
الى مجلسه ، وقال لهم : قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم ،
وحملى ما كان منكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن
تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أتم تغزلون وتؤمرون وتجبون المال

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢١٧ .

(٢) المصدر السابق ح ٣ ص ٢١٧ .

وتقسمونه ، لا يعارضكم في شيء من ذلك . وسكت أبناء الصحابة ،
 فقد تعاهدوا أن يعبر ابن الزبير وحده عن آرائهم . وأدرك معاوية
 هذه الحقيقة ، فتوجه اليه بالحديث فقال : هات لعمرى انك
 لخطيبهم . فقال ابن الزبير : نعم ، نخيرك بين ثلاث خصال . فقال
 معاوية : اعرضهن . فقال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ، أو كما صنع أبو بكر ، أو كما صنع عمر . فتساءل
 معاوية : ما صنعوا ؟ فأجاب ابن الزبير : قبض رسول الله صلى
 الله عليه وسلم ولم يستخلف أحدا ، فارتضى الناس أبا بكر . فقال
 معاوية : ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف . فقال
 ابن الزبير : صدقت ، واصنع كما صنع أبو بكر ، فانه عهد الى
 رجل من قاصية قریش ليس من بنى أمية فاستخلفه ، وان شئت
 فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم
 أحد من ولده ولا من بنى أمية . فقال معاوية : هل عندك غير
 هذا ؟ فأجاب ابن الزبير : لا (١) .

أدرك معاوية أن سياسة الحزم وبذل الأموال لم تعد تجدى ،
 فرأى أن يحيد عن هذه السياسة الى سياسة الشدة والحزم .
 فأمر معاوية المنادى أن ينادى في الناس ليجمعوا بالمسجد لأمر
 بهمهم ، فتوافدوا عليها ، وقصد الصحابة حول المنبر . ثم دعا
 معاوية صاحب حرسه وقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء
 رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فان ذهب رجل منهم يرد على
 كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما .

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٣ ص ٢١٧ .

ثم صعد معاوية المنبر وأخبر الناس أن أبناء الصحابة قد رضوا وباعوا ليزيد ، ثم طلب منهم البيعة ، فبايع الناس كلهم . ثم ركب معاوية رواحله وغادر مكة الى المدينة حيث بايعه أهلها ، ثم غادرها الى الشام ، حيث بدأ سياسة جديدة تنطوي على مفاجاة بنى هاشم .

عاب المؤرخون على معاوية أنه اختار ابنه يزيد دون سائر أبناء الصحابة ، رغم ما اشتهر به من لهو ولعب . ولكن معاوية كان مدفوعا في اختيار يزيد بعاطفته الأبوية التي حجت عنه كل عيوب ابنه . كما رأى أن يجنى ابنه ثمار جهوده التي بذلها ، فقد تولى إمارة الشام عشرين عاما ، ثم تولى الخلافة عشرين عاما أخرى . وبرر معاوية ما أقدم عليه بقوله : « اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيته من فضله فبلّغه ما أملت وأعنه ، وان كنت انما حملني حب الوالد لولده وأنه ليس ما صنعت به أهلا ، فأقبض قبل أن يبلغ ذلك » (١) .

ولام الأمويون معاوية لأنه لم يختار أحد أولاد عثمان بدلا من يزيد ، فقال له سعيد بن عثمان بن عفان : « يا أمير المؤمنين علام تباع ليزيد وتتركني ، فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه ، وأمي خير من أمه ، وأنت انما نلت ما أنت فيه بأبي » (٢) . فأرضاه

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٨٠ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٢٨ .

معاوية بأن ولاه حكم خراسان . كما لام بعض الأمويين معاوية لاغفاله مروان بن الحكم شيخ بنى أمية وأعلن مروان العصيان وقال : « .. فأقم الأمرياء بن أبي سفيان واهداً من تأميرك الصبيان واعلم أن لك في قومك نظراً وإن لهم على مناوأتك وزراً » (١) وهدأ معاوية من ثورة غضبه ومنأه الأمانى فقال له : « .. فأنت نظير أمير المؤمنين بعده ، وفى كل شدة عضده ، وأليك بعد عهده ، فقد وليتك قومك ، وأعظمتنا فى الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ومحسن رفدك » (٢) . وأخذ عبد الله بن الزبير يرقب هذه الانقسامات بعين ملؤها السرور والحبور .

كان تحويل الخلافة من نظام الشورى والانتخاب الى نظام ملكى وراثى ، أمراً بدا غريباً فى نظر ابن الزبير ، وقد أبدى عجبه من أخذ البيعة بولاية العهد ليزيد ومعاوية لا يزال على قيد الحياة ، مما يتنافى مع التقاليد العربية القديمة ، فقال ابن الزبير : « أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرأيت أن بايعناه ، أيكما نطيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ؟ ان كنت ملئت الخلافة فأخرج منها وباع ليزيد فنحن نبايعه !! » (٣) .

ويعلق المؤرخ السيد أمير على- (٤) . على موقف ابن الزبير فيقول : وقد كان لعبد الله بن الزبير ، الذى يسميه معاوية ثعلب

-
- (١) المصدر السابق .
 (٢) ابن ائتيية : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٢٨ .
 (٣) المصدر السابق ح ١ ص ١٣٧ .
 (٤) مختصر تاريخ العرب ص ٧٠ .

قرش ، عين ترنو الى الخلافة ، أما الباقون فكانوا يبغضون يزيد
لهنات ينقمونها عليه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان اهمال معاوية لرأى ابن الزبير ؛
وارغامه له على البيعة سببا في خلق معارض شديد البأس ،
وسرى كيف كان ابن الزبير شوكة دائمة في جنب خلافة يزيد
والدولة الأموية .

هـ - ثورة ابن الزبير على خلافة يزيد بمعاوية

ابن الزبير في وصية معاوية ليزيد
يزيد يحاول الفوز ببيعة ابن الزبير
ابن الزبير العائد بالبيت
موقف ابن الزبير من ثورة الحسين بن علي
عوامل انتشار دعوة ابن الزبير
موقف أبناء الصحابة من الدعوة لابن الزبير
أهل المدينة يعلنون ولاءهم لابن الزبير

ثورة ابن الزبير على خلافة يزيد بن معاوية

ابن الزبير في وصية معاوية ليزيد :

وُلد يزيد في العام السادس والعشرين للهجرة ، وكان أبوه واليا على الشام في عهد عثمان بن عفان . فشب في وسط مظاهر الملك والترف ، بعيدا عن بساطة الحجاز . وكان أبوه يرشحه للخلافة منذ حداثة ، فولاه إمارة الحج مرتين ، وولاه الصائفة مرة ، وأرسله في الجيش الذي غزا القسطنطينية .

ولما مرض معاوية مرضه الأخير ، وشعر بقرب وفاته ، أراد أن يوصي ابنه وولي عهده يزيد ^(١) . فأخذ يذكره بأنه قد مهّد له الطريق ؛ ودلّل له الصعاب ، فكفاه شر أعدائه الروم ، ثم رحل إلى الحجاز فكفاه معارضة أبناء الصحابة ، وخلف له دولة واسعة مترامية الأطراف ، فيقول معاوية : « يا بني اني قد كفيتك الشد والترحال ، ووطأت لك الأمور ، ودللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك مالم يجمعه أحد » ^(٢) . وأراد معاوية أن يلخص لابنه يزيد حالة الأمصار الإسلامية وأهواءها في كلمات موجزة ليتخذها دستوراً ومنهجاً له ، فوضع

(١) يذكر بعض المؤرخين أن يزيد كان غائبا وقت وفاة أبيه ، فعهد معاوية بوصيته إلى الضحّاك بن قيس ومسلم بن عقبة وطلب منهما إبلاغها ليزيد عند عودته .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٢ .

في هذه الكلمات خلاصة خبرة أربعين عاما في الامارة والخلافة .
ورأى معاوية أن يحذر ولده من ثلاثة أشخاص ، في مقدمتهم
عبد الله بن الزبير ، وأخذ يحلل نفسية كل منهم في دقة تجعلنا
نؤمن أن معاوية كان عالما بعلم النفس .

قال معاوية لابنه يزيد : « أنظر أهل الحجاز ، فانهم اصلك
فاكرم من قدم عليك منهم ، وتعاهد من غلب . وانظر أهل العراق ،
فان سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل
أحب الى من أن تشهر عليك مائة ألف سيف . وانظر أهل الشام
فليكونوا بطانتك وعييتك ، فان نأبك شيء من عدوك فانتصر بهم ،
فاذا أصبتهم فأررد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير
بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم . وائني لست أخاف من قريش
الا ثلاثة : حسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير .
فأما ابن عمر فرجل قد وقده الدين ^(٣) فليس ملتصبا شيئا قبلك .
وأما الحسين بن علي فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله
بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وانا له رحما ماسة وحقا عظيما وقرابة
من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن أهل العراق تاركينه حتى
يخرجوه ، فان قدرت عليه فأصفح عنه ، فاني لو أني صاحبه عفوت
عنه . وأما ابن الزبير خبّ ضبّ ، فاذا شخص لك فالبدلة الا أن
يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك
ما استطعت » (٢) .

(٣) وقده الدين : شغله الدين .
(١) الطبري ح ٤ ص ٢٣٨ (طبعة الحسينية) .

وهكذا مات معاوية وهو لا يزال على رأيه الأول في عبد الله ابن الزبير ، وهو أنه العدو الأول ليزيد والبيت الأموي . وكان معاوية يرى أن ابن الزبير أكثر طموحا الى الخلافة من الحسين ابن علي وعبد الله بن عمر ، فهو يقول لابنه يزيد « .. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها بك فظفرت به ، فقطعه اربا اربا .. » (١) .

يزيد يحاول الفوز ببيعة ابن الزبير :

كان همّ يزيد منذ أصبح خليفة للمسلمين ، أن يأخذ البيعة من الأمصار الاسلامية فلبّت نداءه ، ولم يستعص عليه سوى بلاد الحجاز حيث يعيش أبناء الصحابة ، الذين نجحوا في أن يجمعوا أهلها على آرائهم في بيعة يزيد . وكما يقول المؤرخ الدينوري (٢) « لم تكن ليزيد همّة الا بيعة هؤلاء نفر » .

كتب يزيد الى الوالى الأموي بالمدينة المنورة ؛ الوليد ابن عقبة بن أبي سفيان ، كتابين . أما الكتاب الأول ، فيخبره يزيد فيه بموت معاوية ويطلب منه أن يأخذ له البيعة من أهل المدينة عامة ومن أبناء الصحابة خاصة . وكان هذا الكتاب يسيل رقة وعذوبة ، فقد رأى أن يجرب سياسة اللين والتسامح التي نصحه بها أبوه معاوية ، وقد تجددى أكثر مما تعود به سياسة العنف والشدّة ، فيقول يزيد في هذا الكتاب : « .. ان أهل قومنا ورجالنا

(١) ابن الاثير الكامل ج ٤ ص ٣ .

(٢) الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .

ومن لم نزل على حسن الرأى فيهم والاستعداد بهم ، واتباع
 أثر الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثال لديهم من الاقبال عليهم ،
 والتقبل من محسنهم ، والتجاوز عن مسيئتهم ، فبايع لنا قومنا
 من قبلك من رجالنا بيعة منشحة بها صدوركم طيبة عليها أنفسكم .
 وليكن أول من بايعك من قومنا وأهلنا الحسين بن على وعبد الله
 ابن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر ،
 ويحلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة » (١) .

أما الكتاب الثانى ، فلم يكن سوى « صحيفة كأنها أذن
 الفأرة » (٢) . وقد جاء فى هذا الكتاب ما أراد يزيد أن يسهه
 لواليه ، مما لا يستطيع الجهر به للناس ، فهو يقول فيه :
 « أما بعد . فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة
 أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » (٣) .

فلما ورد هذان الكتابان على الوليد ، ذهل لوفاة معاوية
 التى كانت مفاجأة له ، كما قدر دقة موقعه وعظم المسئولية الملقاة على
 عاتقه ، فرأى ألا يتحملها وحده ، بل رأى أن يشاركه فيها شيخ
 بنى أمية مروان بن الحكم ، ولو أن هذا لم يكن محبباً الى
 نفسه فقد « كان الذى بينهما متباعداً » (٤) فدعا الوليد مروان
 وأطلعه على الكتابين ، فأبدى مروان دهشته لنبا وفاة معاوية ،

(١) الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ١٤٦ .

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٤٠ .

(٤) الطبرى ح ٤ ص ٢٥٠ . (طبعة الحسينية) .

ثم أشار على الوليد برأيه : « أرى أن تدعوهم الساعة وتأمرهم بالبيعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وإن أبوا ضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية . فانهم ان علموا بموته وثب كل رجل بناحية وأظهر الخلاف ودعا الى نفسه — يقصد ابن الزبير والحسين — أما ابن عمر فلا يرى القتال ولا يجب أن يلى على الناس الا أن يدفع اليه هذا الأمر عفوا » (١) .

وأراد الوليد أن يأخذ البيعة من الحسين وابن الزبير باعتبارهما يتزعمان المعارضين . فبعث غلاما صغيرا هو عبد الله بن عمرو ابن عثمان يستدعيهما اليه ، فوجدهما في مسجد المدينة . وأبدي الحسين وابن الزبير دهشتهما لهذه الدعوة ، وأخذا يفكران في الدافع اليها ، حتى فطنا الى أن وفاة معاوية هي الدافع الوحيد . ولذا أخذا يفكران في موقفهما من هذه الدعوة ، واتفقا على أن يذهب الحسين الى دار الوالى لاستطلاع الأمر ، فقد كان الوليد لا يجرؤ على أن يلحق الضرر بالحسين ، باعتباره حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وخشى الحسين أن يكون في هذا الأمر مكيدة ، فاصطحب معه أهله ورجاله وطلب منهم أن ينتظروا بالباب ، وأن يعيئوه اذا استنجد بهم . ثم دخل الحسين على الوليد ، فقرأ له كتاب يزيد ونعى له معاوية ، ودعاه الى البيعة ليزيد . فترحم الحسين على معاوية ثم قال : أما البيعة فأنا مثلى لا يبايع سرا ، ولا يجزى

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٦ .

بها منى سرا ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحدا » (١) .

وسمح الوليد للحسين بالانصراف ، ولامه مروان على ضياع هذه الفرصة ، وأشار عليه بحبس الحسين حتى يبايع والا ضرب عنقه (٢) ولكن الوليد ، رغم انتمائه للحزب الأموي ، واخلاصه للخليفة ، أبى أن يقتل الحسين رضى الله عنه ، فقال لمروان : ويحك أتشير على أن أقتل الحسين ؟ ! فوالله ما يسرني أن لى الدنيا وما فيها ، وما أحسب أن قاتله يلقى الله بدمه الا خفيف الميزان يوم القيامة ! » (٣) .

أما عبد الله بن الزبير ، فقد وعد الوليد بالحضور اليه ، ولكنه أسرع الى داره فكنن فيها متحرزا بأصحابه وأنصاره من أهل المدينة . وبعث الوليد فى طلبه مرات ، وكان ابن الزبير فى كل مرة يعلمهم بالحضور ، حتى اذا استحثه أعوان الوليد قال ابن الزبير : والله قد استربت بكثرة الارسال وتتابع هذه الرجال ، فلا تعجلونى حتى أبعث الى الأمير من يأتينى برأيه وأمره . وبعث عبد الله أخاه جعفر بن الزبير الى الوليد فقال له : رحمك الله ، لكف عن عبد الله فانك قد أفزعته وذعرتة بكثرة رسلك ، وهو آتيك غدا ان شاء الله ، فمر رسلك فلينصرفوا عنه (٤) .

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ١٤٧ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٥٠ .

(٤) الطبرى ، ح ٤ ص ٢٥٢ .

وازاء الحاح الوليد وخوف عبد الله بن الزبير من لقائه ، رأى أن يرحل الى مكة حيث يجد الأمن والطمأنينة بجوار بيت الله الحرام ، وخرج عبد الله بن الزبير وأخوه جعفر ، وتجنبا الطريق المعتاد الذى يجتازه المسافرون من المدينة الى مكة عادة . وعلم الوليد برحيل ابن الزبير وأخيه ، فبعث بعض رجاله فى أثرهما للقبض عليهما ، ولكنهم أخفقوا تماما ، ولم يكرر الوليد المحاولة ، فقد انشغل بالحسين عن ابن الزبير .

وكان فرار ابن الزبير من وجه الوليد ، وعدم بيعته ليزيد ، مما مهد الطريق أمام نجاح دعوته . وبعد رحيل ابن الزبير ، تفرغ الوليد للحسين بن على ، فأخذ يبعث برسله لاستدعائه ، والحسين فى كل مرة يعدهم بالحضور فى صباح اليوم التالى . ولكنه كان قد اتوى أن يحذو حذو ابن الزبير فيرحل من المدينة الى مكة . ولم يجد الوليد من أبناء الصحابة سوى عبد الله بن عمر وعبد الله ابن العباس بن عبد المطلب ، فاستدعاهما اليه ، فبايعا ليزيد كما بايع سائر الناس (١) . وقد أثار اخفاق الوليد فى الحصول على بيعه ابن الزبير والحسين غضب يزيد فعزله عن ولاية المدينة وأضاف حكمها الى عمرو بن سعيد بن العاص واليه على مكة (٢).

ابن الزبير العائد بالبيت :

وجد ابن الزبير فى مكة الأمن والطمأنينة التى افتقدها فى المدينة ، واستطاع أن يكتسب عطف المسلمين وتأيدهم حينما قال

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ١٤٨ .

لهم « أنا عائذ بالبيت » (١) حتى اذا شعر بقوته بدأ يناوىء الأمويين ، وبدا هذا واضحا في أنه « لم يكن يصلى بصلاتهم ، ولا يفيض بافاضتهم ، كان هو وأصحابه فاحية ، ثم يفيض بهم وحده ، ويصلى بهم وحده » (٢) .

وقد رأى عمرو بن سعيد بن العاص ما حل بسلفه الوليد ابن عقبة نتيجة تساهله وتسامحه مع الحسين وابن الزبير . ورأى أن يتبع سياسة الشدة والعنف ، وأن يبدأ بابن الزبير . ووجد أن خير من يوليه الشرطة هو عمرو بن الزبير ، لما كان يعلمه من عدائه وكرهيته لأخيه عبد الله . وكان عمرو بن الزبير عند حسن ظن الوالى ، فأرسل الى قفر من أهل المدينة ، فضربهم ضربا شديدا لهوهم في أخيه عبد الله ومنهم أخوه المنذر بن الزبير وابنه محمد ابن المنذر (٣) .

ولم يكن اضطهاد عمرو بن الزبير أنصار أخيه مما يثنيه عن المضى في مناهضة الدولة الأموية . فمنع الحارس بن خالد المخزومي نائب عمرو بن سعيد في مكة من أن يصلى بالناس (٤) . وغضب الخليفة يزيد بن معاوية وأقسم ألا يقبل بيعة عبد الله بن الزبير الا اذا أتى اليه وفي عنقه جامعة من فضة (٥) .

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٧ .

(٢) الطبرى ح ٤ ص ٢٥٤ .

(٣) ابن الأثير : العامل ح ٤ ص ٨ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ١٤٩ .

(٥) الجامعة : هو ما يوضع في العنق .

وأراد عمرو بن سعيد أن ينال رضا الخليفة فيقبض على عبد الله بن الزبير ويرسله الى الخليفة في دمشق وفي عنقه جامعة من فضة . فبعث عمرو بن الزبير على رأس جيش للقبض عليه . ولم يرض مروان بن الحكم عن هذه السياسة ، رغم أنه كان شيخ بنى أمية في الحجاز ، فتقدم مروان الى عمرو بن سعيد ينهاه عما شرع فيه ويقول : لا تغز مكة واتق الله ولا تحل حرمة البيت ، وخلصوا ابن الزبير فقد كبر هذا وله بضع وستون ، وهو رجل لجوج ، والله لئن لم تقتلوه ليموتن .. فقال عمرو بن الزبير : والله لنقاتلنه في جوف الكعبة على رغم أنف من رغم . فقال مروان : والله ان ذلك ليسوءني (١) .

وأدرك كثير من المسلمين خطورة غزو عبد الله بن الزبير في مكة ، البلدة الحرام ، فتقدم أحد زعمائهم ، وهو أبو شريح الخزاعي الى عمرو فقال له : لا تغزو مكة فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (انما أذن لى بالقتال فيها ساعة من نهار ، ثم عادت كحرمتها بالأمس) . فقال له عمرو : نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ !! (٢) .

وتقدم عمرو بن الزبير في مقدمة ألفى رجل قاصدا أخيه عبد الله بن الزبير ، غير عابىء بحرمة البيت الحرام ، أو بعاطفة الأخوة ، بل كان كل همه الانتقام من أخيه وارضاء الوالى الأموى . ويتضح ذلك في خطاب عمرو بن الزبير الى أخيه عبد الله ، فقد

(١) الطبرى ح ٤ ص ٢٥٥ .

(٢) بن الاثير : الكامل ح ٤ ص ٨ .

جاء فيه : « بر يمين الخليفة ، واجعل في عنقك جامعة من فضة لا ترى ولا يضرب الناس بعضهم بعضا ، واتق الله فانك في بلد حرام » (١) .

وتحقق النصر لعبد الله بن الزبير ، فقد نجح هو وأنصاره من هزيمة جيش أخيه عمرو ، وألقى القبض عليه ، وحكم أنصاره عليه بالسجن .

كان يزيد بن معاوية قد اشتهر بين المسلمين بميله الى اللهو والترف والصيد . وقد استفاد ابن الزبير من هذه الصفات ، واتخذها سلاحا للدعاية ضد خلافة يزيد ، ولقيت هذه الدعاية ترحيبا كبيرا من المسلمين لما يعرفونه عن ابن الزبير من تقوى وزهد وصلاح . ونجح ابن الزبير في أن يحرّك العاطفة الدينية عند أهل الحجاز ، ثم عرف كيف يستخدمها في تحقيق برنامجيه السياسى

وإذا كانت نشأة ابن الزبير الدينية ، وبيئة الحجاز التى شب فيها ، قد أكسبته ما كان عليه من صلاح وتقوى ، فإن يزيد بن معاوية قد نشأ في بيئة مختلفة تماما ، مما كان له أكبر الأثر في أخلاقه وطباعه . فقد وُلد يزيد من امرأة بدوية تزوج بها معاوية قبل توليته الخلافة ، غير أنها لم تحتمل المعيشة في دمشق فردها معاوية الى أهلها ، فنشأ يزيد على ما عودته عليه أمه من حياة البدو ، وحب الله وعدم مراعاة القوانين (٢) .

(١) المصدر السابق .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام - ح ١ ص ٤١٧ .

وشبه يزيد في بيئة شامية تختلف تماما عن بيئة الحجاز التي عاش فيها عبد الله بن الزبير ، وشتان بين الحجاز حيث الزهد والتقشف والتمسك بتعاليم الاسلام وأحكامه ، وبين دمشق حاضرة الشام في عهد البيزنطيين ، وقد نالت قسما كبيرا من الحضارة والمدنية .

موقف ابن الزبير من ثورة الحسين بن علي :

لما استقرت الخلافة لمعاوية ، كان الحسين يتردد عليه مع أخيه الحسن ، فيكرمهما معاوية ويحسن استقبالهما ، ويمنحهما الصلات والعطايا . ولما توفي الحسن ، كان الحسين ينفذ الى معاوية في كل عام فيعطيه ويكرمه . واشترك الحسين في الجيش الذي أنفذه معاوية لغزو القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية سنة ٥١ هـ .

وكان مروان بن الحكم شيخ بنى أمية في الحجاز يدرك أن الحسين بن علي لابد أن يخرج الى العراق حيث يعلن ثورته على الدولة الأموية ، فقال لمعاوية : تخرجه معك الى الشام فنقطعه عن أهل العراق ونقطعهم عنه . فقال معاوية لمروان : أردت والله أن تستريح منه وتبتليني به ، فان صبرت عليه صبرت على ما أكره ، وان أسأت اليه كنت قد قطعت رحمه ^(١) . وكان معاوية اذا لمس مراسلة أهل العراق للحسين يرسل له الكتب يذكره ببيعته ويحذره في رفق ، فيقول له : « ان من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ح ٢ ص ١١٦ .

بالوفاء ، وقد أنبت أن قوماً من أهل الكوفة قد دعسوك الى الشقاق ، وأهل العراق قد جربت ، وقد أفسدوا على أهلك وأخيك ، فاتق الله واذكر الميثاق » (١) .

وجعل معاوية للحسين بن علي نصيباً في وصيته لابنه يزيد فقال عنه : « أنظر حسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ، فانه أحب الناس الى الناس ؛ فصل رحمه وارفق به ، يصلح لك أمره ، فان يكن منه شيء فاني أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه .. » (٢) .

ولما توفي معاوية وخلفه يزيد ، عارض الحسين ، كما عارض ابن الزبير ، البيعة له . وحذا الحسين حذو ابن الزبير ، فرحل من المدينة الى مكة ، حيث أقبل أهلها عليه مرحبين متبركين .

ورأى ابن الزبير التفاف المسلمين حول الحسين الذي نجح في تحريك عاطفتهم الدينية . وبحث ابن الزبير عن طريق آخر — غير طريق القرابة من الرسول — ليحرك عاطفة المسلمين الدينية ، حتى تنجح سياسته . فكان أن لاذ بالكعبة وسمى نفسه (العائد بالبيت) وقام يصلي بجوار الكعبة ليلاً ونهاراً ، فيطيل السجود ، ويكثر من التسييح وذكر الله ، فأجبه المسلمون وأعجبوا بصلاحه وتقواه . وكان وجود ابن الزبير الى جوار الكعبة يتيح له فرصة اجتماعه بالمسلمين الذين يقدمون الى الكعبة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ١٦٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ١٦٢ .

للطواف والتبرك بها وأداء العمرة ، حيث يث دعوته السياسية
فيهم ، ويشير فيهم روح السخط على خلافة يزيد .

وأدى انتصار عبد الله بن الزبير على جيش أخيه عمرو
ابن الزبير الذي بعثه الوالي الأموي لقتاله الى ازدياد أنصاره ،
واشتهر أمره وذاع صيته في بلاد الحجاز جميعها . ولكن كان
الحسين بن علي منافسا خطيرا له ، فقد التف حوله كثير من
المسلمين . وان كان الحسين وابن الزبير يتفقان في معارضة الخلافة
الأموية ، الا أنهما اختلفا في الوسيلة .

وصف المؤرخ ابن كثير ^(١) الموقف في مكة ، فقال : « انتصر
عبد الله بن الزبير على من أراد هلاكه من اليزيديين ، وضرب أخاه
عمرا وسجنه واقتص منه وأهانته ، وعظم شأن ابن الزبير عند
ذلك ببلاد الحجاز ، فاشتهر أمره وبعد صيته ، ومع هذا كله ليس
هو معظما عند الناس مثل الحسين ، بل الناس انما ميلهم الى
الحسين لأنه السيد الكبير ، وابن بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه » .
وشعر ابن الزبير بمنافسة الحسين ، ولكنه كان صديقا حريصا
له ، وحرص دائما على الابقاء على صلات المودة والصداقة ،
ما دام يجمعهما هدف مشترك . وكان ابن الزبير ممن يفدون
على الحسين ، ويجلسون اليه ، ويستمعون الى حديثه .
رأت شيعة العراق أن الفرصة قد حانت لحياء الخلافة

العلوية ونقل حاضرة الخلافة الى الكوفة ، فاجتمعت الشيعة في منزل زعيمهم سليمان بن صرد واتفقوا على « أن يكتبوا الى الحسين يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر اليه ، ويطردوا النعمان بن بشير » (١) . وتتابع كتب أشرف الكوفة على الحسين حتى بلغت خمسين كتابا . وأمام هذه الكتب والوعود ، وأى الحسين أن يستجيب للدعوة ، ولكنه أراد أن يتحقق من صدق مقالة الشيعة ، فرأى أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم ابن عقيل بن أبى طالب ليمهد له الطريق ويعرف أهواء الناس .

وقدم مسلم الى الكوفة . فالتفت حوله الشيعة وبايعوه ، وساعد على نجاحه في مهمته أن النعمان بن بشير والى الكوفة لم يبادر الى الضرب على أيدي الشيعة . ولكن بعض بنى أمية لم يعجبهم سكوت النعمان عن هذه الفتنة ، فكتبوا الى يزيد بأمره ، فعزله ، وولى عبيد الله بن زياد والى البصرة (٢) . ونجح ابن زياد في القبض على مسلم وقتله ، فقد ألقى به من أعلى قصر الامارة ، فمات ، ثم صلبه ، فكان « أول قتيل صلبت جثته من بنى هاشم » (٣) .

ولما علم يزيد بمقتل مسلم ، كتب الى ابن زياد يشن عليه ويخبره أنه علم بعزم الحسين على الخروج الى العراق ، ويأمره

-
- (١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٤٣ .
 (٢) الجهشيارى : انكتاب والوزراء ص ٣١ .
 (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٩ ص ٩٣ .

بصده عنها (١) . وهكذا انتهت الجولة الأولى لنزاع الشيعة بالعراق وبنى أمية بالشام بقتل مسلم ، وبقيت الجولة الثانية والتي ستنتهى بقتل الحسين ، فيتم النصر لبنى أمية .

خرج الحسين من مكة الى الكوفة في ٨ من ذى الحجة سنة ٦٠ هـ وحاول الكثيرون أن يشنوه عن عزمه ويذكروه بتخاذل أهل الكوفة عن نصرة أييه وأخيه ، ولكنه أصر على الرحيل ، وعندما بلغ القادسية علم بقتل مسلم فأثر العودة ، ولكن اخوة مسلم أصرّوا على السير قدما للأخذ بثأره . وأرسل ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص لقتال الحسين ولكنه تباطأ في قتاله ، فبعث شمر بن ذى الجوشن والحسين بن نمير وشبث بن ربعي في جيش عدته عشرون ألفا ما بين فارس وراجل (٢) ، ليقاتلوا الحسين وكان في تسعين نفسا ما بين رجل وامرأة وطفل . وقاتلهم الحسين في كربلاء حتى قتل (٣) .

لا شك أن ابن الزبير قد استفاد من مصرع الحسين بن علي . فقد أثارت فاجعة كربلاء مشاعر المسلمين في كل مكان ، وجعلتهم يسخطون على يزيد بن معاوية والدولة الأموية ، وتعلت أصوات الاحتجاج والمعارضة ، ونجح ابن الزبير في أن يجمع هؤلاء الساخطين حوله ويؤلف منهم حزبا قويا متماسكا . وهذا ما جعل بعض المؤرخين يذهبون الى أن ابن الزبير كان قرير العين اد غادر الحسين مكة ، وأنه شجعه على الخروج الى الكوفة .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٢١٢ .

(٢) ابن الصباغ : الفصول المهمة ص ١٥٧ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ٢ ص ٦ .

ولكن المؤرخ الطبرى (١) وهو من ثقة المؤرخين ؛ يذكر أن ابن الزبير عرض على الحسين أن يقيم في مكة ولا يرحل الى الكوفة ، وعرض عليه تقديم المساعدة ، فيذكر الطبرى أن ابن الزبير كان يقول للحسين : ان شئت أن تقيم أقمت فوليت هذا الأمر ، فأزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبابناك . فقال له الحسين : ان أبى حدثنى أن بها كبشا يستحل حرمتها ، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش . فقال له ابن الزبير : فأقم ان شئت وتولينى أنا الأمر فتطاع ولا تعصى . فقال الحسين : وما أريد هذا أيضا .

وهكذا عرض ابن الزبير على الحسين خدماته وجهوده ، بل عرض عليه أن ينضوى تحت رايته وأبدى له استعداداه لمبايعته ، ولكن الحسين أبى ذلك برغم الحاح ابن الزبير ، وأصر على الرحيل الى الكوفة . وكان الحسين يعتقد أن بقاءه في مكة فيه هلاك له ، فكان يقول : « والله لأن أقتل خارجا منها بشيرين أحب الى من أن أقتل خارجا منها بشير ، وأيم الله لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا بى حاجتهم ، والله ليعتدى على كما اعتدت اليهود فى السبت » (٢) .

ولم يكن خروج الحسين من مكة راجعا الى وجود ابن الزبير فيها ، انما كان ذلك لأن مكة لم تعد تصلح لأن تكون مركزا لحركة سياسية ، فقد غدت عرضة لغزوات الجيوش الأموية . فقد

(١) الطبرى ح ٦ ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٣ ص ١٧ .

بعث الخليفة يزيد بن معاوية بجيش لقتال ابن الزبير بقيادة عمرو ابن الزبير . ورأى الحسين أن وجوده بين شيعته بالكوفة قد يوفر له الأمن والطمأنينة ، ويهيئ لحركته السياسية سبل النجاح . الى جانب قلة موارد الحجاز ، بينما كانت بلاد العراق — كما وصفها أبوه — مورد المال والرجال .

حاول كثير من المسلمين ^(١) أن يحثوا الحسين على البقاء في الحجاز ، فقال له عبد الله بن مطيع : فايك أن تقرب الكوفة ، فانها بلدة مشئومة ، بها قُتل أبوك وخُذِل أخوك واعتل بطعنة كادت تأتى على نفسه ، الزم الحرم فانك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجاز أحداً ، ويتداعى اليك الناس من كل جانب . لا تفارق الحرم فذاك عمى وخالى ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك ! ^(٢) .

استفاد ابن الزبير من بعض العيوب التى شابت تنظيم حركة الحسين السياسية ، فعمل ابن الزبير على تلافيتها ، والاستفادة من تجارب الماضى .

كان الحسين وعبد الله بن الزبير زعيمى المعارضة فى خلافة يزيد بن معاوية ، وقد سبق الحسين صاحبه فى القيام بالدور الايجابى فى مقاومة البيت الأموى ، ولكن لم يقدر له النجاح واستشهد فى كربلاء . وخلفه ابن الزبير فى زعامة حركة المقاومة .

(١) ومنهم عبد الله ابن العباس ، وعمر بن عبد الرحمن بن الحرث وعبد الله بن عمر بن الخطاب وغيرهم .
(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٣ ص ١٦ .

عزم ابن الزبير على أن يتخذ من الحجاز مركزا لحركته السياسية ، بعد أن لمس تخاذل الكوفة عن نصره الحسين ، كما كان يعلم أن بلاد العراق كانت تزخر بالأحزاب الكثيرة المتنافسة المتناحرة ، وخاصة الشيعة والخوارج والمرجئة الى جانب حركات الموالي ، وغيرها . وأراد ابن الزبير أن يعمل بنصيحة عبد الله ابن مطيع للحسين حين نصحه بالموث في الحجاز فقال له : الزم الحرم ، فانك سيد العرب ، لا تعدل بك أهل الحجاز أحدا . ولكن ابن الزبير لم يهمل أمر العراق ، فقد كان في حاجة الى الرجال والأموال ؛ ولذا عمل على بسط نفوذه على بلاد العراق ، وان لم يرحل اليها أو يتخذها مركزا لحركته . وعمل ابن الزبير بنصيحة عبد الله بن العباس بن عبد المطلب للحسين بن علي اذ قال له : أقم في هذا البلد — أى الحجاز — حتى ينفى أهل العراق عدوهم ، ثم أقدم عليهم ، وكن عن الناس في معزل ، وأكتب اليهم وبث دعائك فيهم ، فاني أرجو اذا فعلت أن يكون ما تحب (١) . ولذا اهتم ابن الزبير بتنظيم دعوته ، وبث دعاته في بلاد العراق . استفاد ابن الزبير من نصائح بعض زعماء المسلمين للحسين ابن علي . فقد قال عبد الله بن العباس للحسين : فان أبيت الا أن تخرج ، فسر الى اليمن فان بها حصونا وشعبا ، وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عند الناس في عزلة ، فتكتب الى الناس وترسل وتبث دعائك . ولذا فان ابن الزبير حينما علم

يُخْرَجُ بَعْضُ أَهَالِي الْيَمَنِ وَمَعَارِضَتُهُمْ لِلدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، نَاصِرُهُمْ
وَأَيَّدُهُمْ ، وَقَدْ وَقَفُوا إِلَى جَانِبِهِ فِي حَصَارِ مَكَّةِ الْأُولَى .

أَدْرَكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْبِرِ مَدَى تَأْثِيرِ ضَعْفِ الْوَالِي الْأُمَوِيِّ
أَوْ قُوَّتِهِ فِي نَجَاحِ حَرَكَةِ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ اخْفَاقِهَا . فَقَدْ كَانَ تَسَاهُلُ
وَالِي الْمَدِينَةِ الْوَلِيدُ بْنُ عَتْبَةَ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ مَعَ الْحُسَيْنِ وَابْنِ الزَّيْبِرِ
مِمَّا جَعَلَهُمَا يَنْجَوَانِ مِنْ قَبْضَتِهِ فَيَفِرَانِ مِنْ وَجْهِهِ إِلَى مَكَّةَ . بَيْنَمَا
كَانَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ وَالْيَا حَازِمًا ، وَقَدْ رَأَيْنَاهُ يُوجِّهُ
جَيْشًا بِقِيَادَةِ عَمْرُو بْنِ الزَّيْبِرِ لِقِتَالِ أَخِيهِ . وَكَانَ تَسَاهُلُ النُّعْمَانُ
ابْنَ بَشِيرٍ الْوَالِي الْأُمَوِيُّ بِالْكُوفَةِ مِمَّا مَهَّدَ الطَّرِيقَ أَمَامَ مُسْلِمِ
ابْنَ عَقِيلٍ مَبْعُوثِ الْحُسَيْنِ لِلْفُوزِ بِبَيْعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ . وَلَكِنْ حَزَمَ
عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ كَانَ عَامِلًا هَامَا فِي مَأْسَاةِ كَرْبَلَاءَ .

وَلِذَا عَمِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْبِرِ عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَلَاةَ الْأُمَوِيَّينَ
فِي بِلَادِ الْحِجَازِ مِمَّنْ تَمِيزُوا بِالتَّسَاهُلِ وَالتَّسَامُحِ . فَقَدْ أَثَارَ ابْنَ
الزَّيْبِرِ عَاصِفَةٌ مِنَ الْأَشْعَاتِ جَعَلَتْ الْخَلِيفَةَ الْأُمَوِيَّ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ
يَعْزِلُ وَالْيَا عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ وَيُولِي بِدَلَهُ الْوَلِيدُ بْنُ عَتْبَةَ
ابْنَ أَبِي سَفْيَانَ وَقَدْ لَمَسَ ابْنَ الزَّيْبِرِ تَسَاهُلَهُ مَعَهُ وَمَعَ الْحُسَيْنِ
ابْنَ عَلِيٍّ . وَلَكِنْ الْوَلِيدُ اسْتَفَادَ مِنْ تَجَارِبِ الْمَاضِي ، فَحَادَ عَنْ
تَسَامُحِهِ إِلَى سِيَاسَةِ الْحَزْمِ وَالشَّدَةِ . وَلَجَأَ ابْنُ الزَّيْبِرِ إِلَى الْحِيلَةِ
وَالدَّهَاءِ ، فَأَوْقَعَ بَيْنَ الْوَلِيدِ وَالْخَلِيفَةِ يَزِيدَ ، فَعَزَلَهُ يَزِيدُ وَوَلَّى
بَدَلَهُ عُثْمَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ ابْنَ أَبِي سَفْيَانَ وَهُوَ « فَتَى غَرَّ حَدَثَ غَمَرِ
لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ وَلَمْ يَحْنُكْهُ السَّنُ وَلَمْ تَضُرْسِهِ التَّجَارِبُ وَكَانَ

لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه ولا عمله « (١) . وكان ضعف هذا الوالى الجديد فى مقدمة العوامل التى ساعدت على نجاح حركة ابن الزبير .

اكتفى الحسين بأن أعلن الثورة على الدولة الأموية ، ولكنه لم يبايع لنفسه بالخلافة ، وربما لم تمهله الأيام حتى يأخذ البيعة من الناس . وكانت هذه البيعة تضى على ثورته صبغة شرعية ضرورية لتوفر أسباب النجاح . ولذا بادر ابن الزبير بالبيعة لنفسه بالخلافة ليبدو أمام أنصاره كخليفة شرعى يدافع عن حقه فى الخلافة ، وليس ثائرا أو عاصيا . وبدا ابن الزبير فى خطبه ومكاتباته واثقا من نفسه ، مصرا على حقه ، متمسكا بخلافته . فكان يبدأ خطاباته للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بهذه العبارة : « من أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير الى عبد الملك بن مروان .. » .

عوامل انتشار دعوة ابن الزبير :

كان الحسين بن على وعبد الله بن الزبير زعيمى حركة المعارضة لخلافة يزيد بن معاوية خاصة ، وللخلافة الأموية عامة . حتى اذا استشهد الحسين ، قاد ابن الزبير لواء المعارضة . وتكاثفت عدة عوامل على انتشار دعوة ابن الزبير ونجاحها .

أولا : زهد الصحابة فى الخلافة : كان عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس ، ومحمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، قد أبدوا معارضتهم لمعاوية حينما طالبهم بالبيعة

(١) الطبرى ح ٦ ص ٢١٥ .

ليزيد ، كما تلكأوا في البيعة بعد وفاة معاوية ، ولكن الوليد ابن عتبة نجح في الحصول على بيعتهم أخيرا ، وركنوا الى الهدوء والطاعة ، حتى بعد مقتل الحسين ، فخلا الجو لابن الزبير .

ثانيا : تعدد ولاية الحجاز وضعف الحامية الأموية به : كانت الحامية الأموية في الحجاز على درجة كبيرة من الضعف حتى أن عمرو بن سعيد بن العاص لم يجد من يرسله لقتال عبد الله ابن الزبير سوى أخاه عمرو بن الزبير ، فبعثه في ثغر قليل فكان مصيره الاخفاق . ولم يكن هؤلاء النفر من الجند المدربين على القتال ، بل كانوا من رجال الشرطة الذين لا يصلحون الا للقبض على الخارجين على القانون ، دون الخارجين على الدولة . واثنا لنعجب من سياسة معاوية نحو الحجاز ، فبينما نراه يعين دهاة العرب على الأمصار ، مثل المغيرة بن شعبة والى الكوفة وزيد بن أبيه والى البصرة ، نراه يهمل أمر الحجاز ، فيعين بعض الولاة الذين لا يتصفون بالعزم والحزم أمثال مروان ابن الحكم والوليد بن عتبة ، مكتفيا باخلاصهم للبيت الأموي الذي ينتسبون اليه . وأوقع معاوية بين هذين الوالين حتى شغلا بهذا النزاع عن تلك الحركات السياسية التي أخذت في الظهور ، فلم يقضوا عليها وهي في المهد . ثم زاد يزيد الطين بلّة ، فهو يغيّر ويبدّل في ولايته ، مما أدّى الى اضطراب السياسة الأموية في الحجاز

وإذا أردنا دليلا على ضعف الحامية الأموية ، فاننا لا نجد

خيرا من اعتراف عمرو بن سعيد بن العاص الوالى الأموى ؛ فقد دافع عن نفسه أمام اتهام يزيد له بالاهمال فى القبض على ابن الزبير فقال : « ان جلّ أهل مكة وأهل المدينة كانوا قد مالوا اليه — ابن الزبير — وحووه وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم سرا وعلانية ، ولم يكن معى جند أقوى بهم عليه لو ناهضته .. » (١) .

ويذكر المؤرخ فان فلوتن (٢) أن الأمويين كانوا يختارون عمالهم وولاتهم من بين أولئك المهددين فى النعمة والترف ، والذين تعودوا الاستمتاع بما فى الحياة من عبث ولهو دون أن يذوقوا عناء العمل ومشقته .

ثالثا : سياسة الأمويين الاقتصادية فى الحجاز : لا شك أن استقرار الأحوال الاقتصادية فى قطر من الأقطار ، يؤدى حتما الى استقرار الأحوال السياسية فيه . واذا علمنا أن البيئة الحجازية فقيرة ، لأدركنا أن أى نقص فى سياسة الأمويين الاقتصادية نحو الحجاز سيؤدى حتما الى زيادة بؤس أهله . كما أن معاوية قد تعمّد اضعاف الحجاز سياسيا واقتصاديا ، فلم يبذل للحجازيين فى العطاء ، مما اضطرهم الى بيع ممتلكاتهم التى اشتراها منهم بأبخس الأثمان . ولما ظهرت حركة ابن الزبير رأى أهل الحجاز أنها تخلصهم من هذه السياسة الأموية . قال بعض أهل المدينة : « .. ان هذه الأموال كلها لنا ونالتنا المجاعة ؛

(١) الطبرى ح ٤ ص ٣٦٧ (طبعة الحسينية) .

(٢) السادة العربية ص ٢٥ .

فاستراها — يقصد معاوية — بجزء من مئة من ثمنها » (١) .
وروى اليعقوبى (٢) أنه حينما أرسل يزيد الى عبد الله بن عباس
بعض المال مكافأة له على امتناعه عن البيعة لابن الزبير ، كتب
اليه يقول : « .. فلعمري ما تؤتينا مما فى يدك من حقنا الا القليل ،
وانك لتجس عنا منه العريض الطويل » . وحاول يزيد أن
يحسن الأحوال الاقتصادية فكتب الى أهل المدينة : « .. فان
أقرتوا بالطاعة ونزعوا من غيهم وضلالهم ، فلهم على عهد الله
وميثاقه أن لهم عطاءين فى كل عام ما لا أفعله بأحد من الناس طول
حياتى ، عطاء فى الشتاء وعطاء فى الصيف ، ولهم على عهدان :
أجعل الحنطة عندهم كسعر الحنطة عندنا ، والعطاء الذين يذكرون
أنه احتبس عنهم فى زمان معاوية فهو على لهم وافرا كاملا (٣) .. » .
وهذه الرسالة تدل على أن معاوية أهل الحجاز كانت تخالف معاملة
الأمويين لأهل الشام .

رابعا : السخط العام على الحكم الأموى : تحولت الخلافة
من طريق الشورى والانتخاب الى التعيين والوراثة مما أغضب
كثيرا من المسلمين . كما استعان معاوية ببعض الولاة قساة
القلوب من أمثال المغيرة بن شعبة وزيد بن أبيه ، كما قصرُوا
المناصب الهامة على الأمويين . فكره المسلمون الحكم الأموى ؛

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٥١ .

(٢) تاريخ اليعقوبى ح ٢ ص ٢٢١ .

(٣) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٥١ .

وساعدوا كل الخارجين على الأمويين ، وفي مقدمتهم عبد الله ابن الزبير .

خامسا : عبث يزيد وتقوى ابن الزبير : كان ابن الزبير صالحا تقيا ، فكان كما وصفه المؤرخ ابن الأثير ^(١) : « .. فليله قائم حتى الصباح ، وليله راكم حتى الصباح ، وليله ساجد حتى الصباح » . أما يزيد بن معاوية فكان كما وصفه عبد الله بن الزبير : « يزيد الخمر ، ويزيد الفجور ، ويزيد الفهود ، ويزيد القروء ، ويزيد الكلاب ، ويزيد النشوات ، ويزيد الفلوات » ^(٢) .

سادسا : مصرع الحسين : بعد مصرع الحسين في كربلاء ، أظهر ابن الزبير دعوته ، فوقف يخطب في المسلمين ، فهاجم يزيد في أخلاقه وسجاياءه واقباله على الملذات ، ثم بكى حسينا واستبكى الناس عليه ، ومدحه وأظنب في مدحه ، وسب أهل الكوفة ولامهم على تخاذلهم عن نصرته الحسين ^(٣) . وما كاد ينتهي من خطبته حتى هب المسلمون طالبين منه أن يبايع لنفسه ، ولكنه رأى ألا يجيبهم الى ذلك . وربما كان يعتقد أن الوقت لم يحن بعد ليعلن نفسه خليفة ، وربما أراد أن يظهر للمسلمين زهده في الخلافة . قال الطبري ^(٤) : « فثار اليه أصحابه فقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك فانه لم يبق أحد اذ هلك الحسين ينازعك هذا

(١) الكامل ح ٤ ص ١٥٠ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ح ٤ ص ٣٠ .

(٣) انظر الخطبة في تاريخ الطبري ح ٤ ص ٣٦٤ .

(٤) تاريخ الطبري ح ٤ ص ٣٦٤ .

الأمر . قد كان يبايع الناس سرا ، ويظهر أنه عائد بالبيت ، فقال لهم : لا تعجلوا » .

ورأى ابن الزبير أن يكتفى بقلب (العائد بالبيت) . ويروى ابن عساكر ^(١) أن سبب تمسكه بالاحتماء بالكعبة دون الخروج الى الأمصار الإسلامية فيقول : « الذي دعا عبد الله بن الزبير الى التعوذ بالبيت شيء سمعه من أبيه حين سار من مكة الى البصرة ، وذلك أن الزبير التفت الى البيت بعدما ودع وتوجه يريد الركوب ، وأقبل الى ابنه عبد الله وقال : أما والله ما رأيت مثلاً لطالب رغبة أو خائف رهبة » .

وما كادت أنباء التفاف الناس حول ابن الزبير وطلبهم منه البيعة لنفسه تصل الى أسماع الخليفة يزيد حتى استشاط غضبا ، وأقسم أن يوثقه في سلسلة ^(٢) . وعلم مروان بن الحكم ، شيخ بنى أمية بالحجاز ، بأمر هذه السلسلة من عامل البريد ، ورأى استحالة تنفيذ طلب الخليفة ، فقد استفحل شأن ابن الزبير وانتشرت دعوته ، ولذا رد السلسلة الى عامل البريد وأنشد :

خذها فليست للعزیز بخطة وفيها مقال لامرئ متضعف
وقد شهدنا بالأمس عمرو بن سعيد بن العاص ، والى يزيد
يدى شدة وحزما ، فبعث بجيش يقوده عمرو بن الزبير لقتال
عبد الله بن الزبير . ولكنه اليوم رأى عدم جدوى انقاذ جيش
لقتال ابن الزبير ، وتحقيق رغبة الخليفة في أن يوثق ابن الزبير

(١) تاريخ ابن عساكر ح ٧ ص ٤٠٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٤٣ .

في سلسلة . فيقول المؤرخ ابن الأثير ^(١) : « وعمرو بن سعيد يومئذ عامل مكة ، وهو أشد شيء على ابن الزبير ، وهو مع ذلك يدارى ويرفق » .

ومن الطريف أن عمرو بن سعيد أراد أن يعرف ما تخبئه الأقدار لعبد الله بن الزبير . فكتب رسالة الى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكان صديقا له ، وكان ابن عمرو قد قرأ كتب دانيال واشتهر بالعلم . فطلب عمرو منه أن يخبره عن مستقبل ابن الزبير . فكتب عبد الله بن عمرو اليه يقول : « لا أرى صاحبك الا أحد الملوك الذين تتم أمورهم حتى يموتوا وهم ملوك . فلم يزد عند ذلك الا شدة على ابن الزبير وأصحابه مع الرفق بهم والمدارة لهم » ^(٢) .

تلاقى عبد الله بن الزبير مع عامل البريد الذي بعثه يزيد بن معاوية . وأذره عامل البريد أن مصيره سيكون مصير الحسين . فقال ابن الزبير له : ان الحسين بن علي خرج الى من لا يعرف حقه ، وان المسلمين قد اجتمعوا على . فقال عامل البريد : فهذا ابن عباس وابن عمر لم يبايعاك ^(٣) .

موقف أبناء الصحابة من الدعوة لابن الزبير :

ورأى ابن الزبير أنه لابد من أن ينال بيعة هذين الزعيمين الكبيرين ، وكان لهما منزله كبرى بين أبناء الصحابة وأهل مكة .

(١) الكامل ح ٤ ص ٤٣ .

(٢) البيهقي : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام

(مخطوط) ح ٢ ورقة رقم ٣٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ح ٣ ص ٢٢٠ .

وبداً بعبد الله بن عمر بن الخطاب . ولم تكن مهمة ابن الزبير معه سهلة ميسورة ، فقد بايع ابن عمر من قبل ليزيد بن معاوية ، وكان من العسير أن يقنع ابن الزبير ابن عمر أن ينكث بيعته ليزيد . والتقى ابن الزبير بزوجة ابن عمر ، وهى صفية بنت أبى عبيد الثقفى « وذكر لها أن خروجه كان غضبا لله ورسوله وللمهاجرين والأنصار من أثر معاوية وابنه يزيد بالقىء » . وطلب ابن الزبير من صفية أن تسأل زوجها البيعة له . وتحدثت صفية لزوجها ، فقال : أما رأيت بغلات معاوية التى كان يحج عليها الشهباء ، فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن ^(١) ! . يقصد أن ابن الزبير يرمى الى تولى الخلافة .

أما عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فكان قد بايع ليزيد ، فلم يشأ أن ينكث بيعته ، ولذا رفض البيعة لابن الزبير . فقد آثر السلامة والبعد عن تيارات السياسة .

وكان لامتناع ابن العباس عن البيعة لابن الزبير رنة فرح وسرور فى نفس الخليفة يزيد بن معاوية . فكتب يزيد له رسالة يشكره فيها ويعرض عليه أن يكون عوناً له ضد ابن الزبير . ولكن امتناع ابن العباس عن البيعة لابن الزبير لم يكن نتيجة اخلاصه ليزيد أو اقتناعه بأحقية بنى أمية بالخلافة . فقد كتب ابن عباس الى يزيد رسالة جاء فيها : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك بذكر دعاء ابن الزبير اياى الى نفسه وامتناعى عليه فى الذى دعانى اليه من

(١) البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام (مخطوط) ح ٢ ورقة رقم ٣٢ .

بيعته ، فإن يك ذلك كما بلغت فلست حمدك أردت ولا ودك ..
وسألتني أن أحث الناس عليك وأخذلهم عن ابن الزبير ،
فلا ولا سرورا ولا حبورا ، وأنت قتلت الحسين بن علي .. » (١) .
وشاءت الأقدار أن تساعد ابن الزبير ، فإن الوليد بن عتبة
ابن أبي سفيان ، لم ينس أنه كان واليا على المدينة فترة طويلة
في عهد معاوية ، وأن يزيد قد عزله عنها لاتهامه بالتساهل مع
ابن الزبير والحسين ، ورأى أن ولاية عمرو بن سعيد قد طالت ،
وبدأ يتطلع الى العودة الى الحكم ، فبعث الى يزيد يتهم عمرا
بالتهاون في مناهضة ابن الزبير . وكانت كل الشواهد تدل على
صدق هذا الاتهام ، فاستجاب يزيد له وعزل عمرو بن سعيد
وعين الوليد بن عتبة بدله . وخرج عمرو الى الشام ولقى الخليفة ،
وأخذ يدافع عن نفسه . وهذا الدفاع خير ما يصور لنا مقدار
اتساع حركة ابن الزبير ونجاحها ، فيقول : « يا أمير المؤمنين ،
الشاهد يرى ما لا يرى الغائب . وإن جل أهل مكة والحجاز قد
كانوا مالوا معه ، وهووه وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم اليه
بعضا سرا وعلانية ، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ،
وقد كان يحذرني فيحترز مني . وكنت أرفق به وأداريه لأستمكن
منه فأثب عليه ، مع أنني قد ضيقت عليه وصنعت من أشياء كثيرة
لو تركت وأتاها كانت له معونة . وجعلت على مكة وطرقها وشعابها
رجالا لا يدعون أحدا يدخلها حتى يكتبوا الى باسمه واسم أبيه

ومن أى بلد هو وما جاء به وما يريد . فان كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريد رددته صاغرا فان كان ممن لا أتهم خليت سبيله . وقد بعثت الوليد وسأته من عمله وأثره ما لعلك تعرف به فضل مبالغتى فى أمرك ومناصحتى لك ، والله لا يضيع لك وبكىت عدوك يا أمير المؤمنين » (١) .

قصد الوليد بن عتبة المدينة وأراد أن يثبت للخليفة أنه أبعد همّة من سلفه عمرو بن سعيد ، ولكن ابن الزبير أدرك حماسته ووقف على أغراضه . فكان كلما طلبه الوليد تمنع واحترز فلا يستطيع اليه سيلا . وشاءت المقادير أن تجعل الوليد بين نارين : ابن الزبير الذى أخذت حركته تزداد يوما بعد يوم ، ونجدة بن عامر الحنفى الذى ثار باليمامة بعد مصرع الحسين ، وخالف يزيد ولم يخالف ابن الزبير وان لم ينطوى تحت لوائه (٢) . ولكن نجدة كان « يلقى ابن الزبير فيكثر محادثته حتى يظن الناس أنه سيبايعه » (٣) .

ورأى عبد الله بن الزبير أن يقاوم الوليد بن عتبة بالمرء والحيلة ، فكتب الى الخليفة يزيد بن معاوية : « انك بعثت الينا رجلا أخرج لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوى لعظة الحكيم ، ولو بعثت الينا رجلا سهل الخلق لسن الكتف ، رجوت أن يسهل

(١) الطبرى ح ٣٦٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ٢١٥ .

(٣) البياسى : الأعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام

(مخطوط) ح ٢ ورقة ٣٢ .

من الأمور ما أنت وعز منها وأن يجتمع ما تفرق . وانظر في ذلك ،
فإن فيه صلاح خواصنا وأعواننا إن شاء الله والسلام .
وجازت حيلة ابن الزبير على يزيد ، فعزل الوليد بن عتبة عن
المدينة بعد أن تولى حكمها فترة طويلة فخبرها ووقف على
أحوالها . وولى يزيد بدله عثمان بن محمد بن أبي سفيان وقد
وصفه المؤرخ ابن الأثير ^(١) بأنه « فتى غر حدث غمر لم يجرب
الأمور ولم يخنكه السن ، لا يكاد ينظر في شيء من سلطانه
ولأعماله » .

هدف يزيد من عزل يزيد تغيير سياسة العنف والشدة التي
اتبعها عمرو بن سعيد والوليد بن عتبة بعد أن رأى اخفاق هذه
السياسة . ورأى يزيد أن يجرب سياسة جديدة تقوم على اللين
والحكمة . ولكن الوالى الجديد عثمان بن محمد لم يكن جديرا
بنصبه كما أجمع المؤرخون . وبدأ عثمان عهده بأن أرسل وفدا
من أهل المدينة الى يزيد ، وظن أن اكرام يزيد لهم يقنعهم بأحقية
بالخلافة دون عبد الله بن الزبير ، فيعود أهل المدينة ويكونوا لسانا
ناطقا معبرا عن رغبات يزيد ، ويناهضوا دعوة ابن الزبير .

أهل المدينة يعلنون ولائهم لابن الزبير :

قدم وفد أهل المدينة على الخليفة يزيد في دمشق ، وترأس
الوفد عبد الله بن حنظلة الغسيل ، والمنذر بن الزبير ، وعبد الله
ابن أبي عمرو بن خوص وهم من أشرف المدينة . وبالحق يزيد في

(١) الكامل ح ٤ ص ٤٤ .

الحفاوة بهم واکرامهم ، ولكنهم ما کادوا يعودون الى المدينة حتى بادروا الى هجاء يزيد والتشهير به ، فقالوا : انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، ويشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالکلاب ، ويسامر الخراب والفتيان ، وانا نشهدکم انا قد خلعناه (١) .

وقام عبد الله بن حنظلة الغسيل ، أحد رؤساء الوفد ، فقال : جئتکم من عند رجل لو لم أجد الا بنى هؤلاء ، لجاهدته بهم ، فقد أعطاني وأکرمنى ، وما قبلت منه عطاءه الا لأتقوى به ! وأعلن أهل المدينة أنهم يخلعون طاعة يزيد (٢) .

أما المنذر بن الزبير ، فانه لم يرجع الى المدينة ، بل ذهب الى زيارة صديقه الحميم القديم عبيد الله بن زياد بالعراق . ولما علم الخليفة يزيد بموقف أهل المدينة منه ، أرسل الى ابن زياد يأمره بسجن المنذر . ولكن ابن زياد خالف أمر الخليفة ويسر للمنذر سبل الفرار .

وهذا يدل دلالة واضحة على ضياع رهبة الخليفة يزيد من قلوب ولاته ، واستهانتهم بأوامره . وكان ابن زياد من أخلص الولاة الأمويين .

وما کاد المنذر بن الزبير يعود الى المدينة حتى أخذ يحرض الناس على يزيد ، فقال : انه قد أجازنى بمائة ألف ، ولا يمنعنى

(١) الطبرى ح ٤ ص ٣٦٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٤٥٠ .

ما صنع به أن أخبركم خبره ، والله انه ليشرب الخمر ، والله انه ليسكر حتى يدع الصلاة (١) .

حاول محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، أن يدافع عن يزيد بن معاوية ، مما أثار غضب أهل المدينة ، وظنوا أنه في دفاعه عن يزيد انما يكره الدعوة الزيرية ، فعرضوا عليه أن يولوه حكم المدينة ، فأبى ابن الحنفية ذلك ، بل رحل عن المدينة الى مكة .

غضب الخليفة يزيد بن معاوية لتسكر أهل المدينة له ، واقدامهم على سبته وشتمه ، وأراد أن يحذرهم ويهديهم الى سواء السبيل ، فبعث مندوبا عنه هو النعمان بن بشير الأنصارى ، وقال يزيد له : آت الناس وقومك فردهم عما يريدون فانهم ان لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترئ الناس على خلافي وبها من عسيرتى من لا أحب أن ينهض في هذا الفتنة فيهلك .

وقدم النعمان بن بشير الى المدينة ، ودعا الناس اليه ، وأمرهم بالطاعة ولزوم الجماعة ، وخوفهم الفتنة ، ووضح لهم أنه لا طاقة لهم بأهل الشام . فقال له عبد الله بن مطيع : ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا ؟ وقام عراك شديد بين أهل المدينة والأمويين الذين قدموا مع النعمان . وعاد النعمان الى دمشق وقد أخفق في مهمته تماما ورأى يزيد أن يعيد الكرة ، فينذر أهل المدينة ويحذرهم وينصحهم .

(١) المصدر السابق .

فكتب رسالة الى أهل المدينة ، وأمر واليه عثمان بن محمد أن يقرأها عليهم ، وفي ختام الرسالة يهدد يزيد أهل المدينة فيقول : « .. فوالله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أقيـل بها عدوكم وأنركم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود وأنه لا يأتيني منكم أدل على خلافكم .. » . ولكن أهل المدينة ما كادوا يسمعون هذه الرسالة حتى انهالوا على الوالى والخليفة شتما وسباً .

اتفق أهل المدينة على خلع طاعة الخليفة يزيد بن معاوية ، وثاروا على الوالى الأموى عثمان بن محمد وعلى الأمويين المقيمين فى المدينة وكان عددهم ألف رجل ، فاضطروا جميعا الى الاحتماء ببـيت مروان بن الحكم شيخ بنى أمية . وبعث الأمويون رسالة الى الخليفة يزيد يستجدون به . وما لبث أهل المدينة أن طردوا الأمويين عن بلدتهم ، وخرج وراءهم الصبيان وسفهاء الناس يرمونهم بالحجارة .

وقرأ يزيد رسالة الأمويين فثار غضبه وأيقن أن سياسة اللين والتسامح لم تعد تجدى مع أهل المدينة ، ورأى أن يجيد عنها الى سياسة الحزم والعنف ، وأنشد هذا البيت :

لقد بدلوا الحلم الذى من سـجيتى

فبدلت قـومى غلظة بليسان
وكان هذا ايذاناً ببداية دور جديد ، فقد بدأت المقاومة الايجابية لعبد الله بن الزبير ، وبدأت هذه المقاومة بواقعة الحرة ، و انتهت بحصار ابن الزبير فى مكة .

٦- خلافة ابن الزبير وسيطرته على الدولة الإسلامية

مقاومة يزيد الإيجابية لدعوة ابن الزبير.
واقعة الحرّة

غزو ابن الزبير في الكعبة
الأمويون يعرضون الخلافة على ابن الزبير
نقد وتحليل لرفض ابن الزبير الخلافة الأموية
تنازل معاوية الثاني عن الخلافة
البيعة لابن الزبير بالخلافة
بيعة الحجاز لابن الزبير
بلاد العراق تباع لابن الزبير
البيعة لابن الزبير في مصر
البيعة لابن الزبير في الولايات الإسلامية
نفوذ ابن الزبير بالشام
مؤتمر الجابية

خلافة ابن الزبير وسيطرته على الدولة الإسلامية

مقاومة يزيد الإيجابية لدعوة ابن الزبير :

رأى يزيد أن سياسة الحلم واللين لم تعد تجدى ؛ ورأى العودة الى سياسة العنف والشدة . فقد لمس اتساع نطاق الحركة الزبيرية ؛ فقد نجح عبد الله بن الزبير في السيطرة على بلاد الحجاز . كما أن أهل المدينة قد تمادوا في عصيانهم لخلافته وأوقعوا الأذى بالأمويين بالمدينة .

تحدث المؤرخ المسعودي ^(١) عن خلع أهل المدينة طاعة يزيد ابن معاوية وولائهم لعبد الله بن الزبير ، فقال : « ولما شمل الناس جور يزيد وعماله وعمهم ظلمه .. أخرج أهل المدينة عامله عليهم — وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان — ومروان بن الحكم وسائر بني أمية ؛ وذلك عند تمسك ابن الزبير واطهار الدعوة لنفسه ؛ وذلك في سنة ثلاث وستين ؛ وكان اخراجهم لما ذكرنا من بني أمية وعامل يزيد عن اذن ابن الزبير ، فأعنتها مروان منهم اذ لم يقبضوا عليهم ويحملوهم الى ابن الزبير فحثوا السير نحو الشام » .

(١) مروج الذهب ح ٣ ص ١٦ - ١٧ .

تعجب يزيد من اقدام الأمويين على الفرار من المدينة دون الدفاع عن مصالحهم ، فسأل رسول بنى أمية اليه : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ؟ قال : بلى والله وأكثر . فقال يزيد : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار ؟ فأجاب الرسول : يا أمير المؤمنين أجمع الناس كلهم عليهم فلم يكن يجمع الناس طاقة (١) .

رأى يزيد أن يبعث جيشا أمويا للقضاء على حركة عبد الله ابن الزبير في الحجاز ، فيبدأ الجيش باخضاع المدينة ، ثم يواصل الزحف الى مكة معقل ابن الزبير .

وفكر يزيد فيمن يوليه قيادة هذا الجيش ، فاختر عمر بن سعيد ولكنه رفض قيادة الجيش ، وقال : « فقد كنت ضببت لك الأمور والبلاد ، فأما الآن اذا صارت دماء قريش تهرق بالصعيد فلا أحب أن أتولى ذلك » (٢) . فاختر يزيد واليه بالعراق عبيد الله بن زياد ولكنه أبى أن يقود الجيش أيضا وقال : والله لا جمعتها للفاسق ، أقتل ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغزو مدينته والكعبة (٣) ! .

وتذكر يزيد وصية أبيه معاوية له ؛ فقد قال معاوية : ان لك من أهل المدينة يوما ؛ فان فعلوا فأرهمهم بمسلم بن عقبة فانه رجل قد عرفت نصيحته . واستدعى يزيد مسلم بن عقبة ، فهرع اليه

(١) الطبري ح ٤ ص ٣٧٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٤٨ .

(٣) الفخرى ص ١٠١ .

رغم مرضه وشيخوخته ، وأمره يزيد أن يسرع في التوجه الى
الحجاز لنجدة الأمويين هناك .

تردد كثير من أهل الشام في الانضمام الى جيش مسلم لغزو
الحجاز وقتال ابن الزبير . فبعث مسلم مناديه ينادى في طرقات
دمشق : سيروا الى الحجاز على أخذ أعظياتكم كملا ومعونة
مائة دينار توضع في يد الرجل من ساعته . وخرج مسلم في
اثني عشر ألف جندي (١) .

واقعة الحرة :

انفرد يزيد بقائده مسلم بن عقبة فرسم له خط سيره وسياسته
مع ابن الزبير ، فقال : ان حدث بك حدث فأمر الجيش الى حصين
ابن نمير ، فانهض باسم الله الى ابن الزبير ، واتخذ المدينة طريقا
اليك ، فان صدوك أو قاتلوك فاقتل من ظفرت به منهم وانهبها
ثلاثا ، فاذا قدمت المدينة فمن عاقلك عن دخولها أن نصب لك
الحرب فالسيف السيف ، اجهز على جريحهم واقبل على مدبرهم ،
واياك أن تبقى عليهم ، وان لم يتعرضوا لك فامض الى
ابن الزبير (٢) . ثم خرج يزيد يستعرض الجيش ثم أنشد :

أبلغ أبا بكر اذا الليل مرى وهبط القوم على وادى القرى
أجمع سكران من القوم ترى أم جمع يقظان نفى عنه الكرى
أما أبو بكر ، فهو عبد الله بن الزبير . أما السكران ، فيقصد
يزيد به نفسه ، مثلما كان ابن الزبير يسميه دائما .

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٤٨ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ١ ص ١٥٢ .

وعلم أهل المدينة بمسير مسلم بن عقبة اليهم ، فحاصروا
 الأمويين في دار مروان بن الحكم ، وهددوهم بالقتل ان امتنعوا
 عن أن يقسموا لهم ألا يغدروا بهم أو يطلعوا الجيش الأموي على
 أحوالهم . وسمح أهل المدينة لهم بالرحيل ، فخرجوا عن المدينة
 حتى قدموا على الجيش الأموي . وحاول مسلم أن يقف منهم
 على أحوال المدينة ، ولكن عمرو بن عثمان بن عفان رفض اذ تعهد
 لأهل المدينة ألا يغدر بهم . أما مروان بن الحكم فلم ير بأسا من
 احاطة مسلم علما بكل ما أراد معرفته .

وقدم مسلم الى المدينة ، فأمهل أهلها ثلاثة أيام ، ثم سألهم
 عما عزموا عليه ، فأعلنوا اصرارهم على القتال وكانوا قد اتخذوا
 خندقا كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وأبدى أهل الشام
 حرجا في قتال اخوتهم المسلمين من أهل المدينة ، فأخذ مسلم يشير
 حماستهم ، ونجح الجيش الأموي في هزيمة أهل المدينة ، ثم بدأ
 الأمويون ينكلون بأعدائهم ، ووصف المؤرخون الكثير من أعمال
 العنف والقسوة ، فيذكرون أن الأمويين أحرقوا معظم أحياء
 المدينة ، وقتلوا النساء والأطفال ، ونهبوا المنازل . فيذكر المؤرخ
 الطبري : « وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون
 الأموال فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة ^(١) . وقال
 يعقوبى ^(٢) : « فلم يبق بها كثير أحد الا قتل » ويعدد ابن قتيبة

(١) الطبري ح ٤ ص ٥١ .

(٢) تاريخ يعقوبى ح ٢ ص ٢٢٣ .

قتلى الحرة فيقول : « قتل يوم الحرة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثمانون رجلا ، ولم يبق يدري بعد ذلك ، ومن قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس من الموالى والعرب عشرة آلاف » وتحدث ابن الأثير ^(١) عن معاملة مسلم لأهل المدينة فقال : « دعا مسلم الناس الى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم من شاء فمن امتنع من ذلك قتله » .

غزو ابن الزبير في الكعبة :

لما فرغ مسام القائد الأموي من تأديب أهل المدينة على هذا النحو ، قصد ابن الزبير الذي كان قد تحصن في مكة . وغادر مسلم المدينة بعد أن استخلف عليها روح بن زنباع الجذامي . ولكنه في الطريق ثقل عليه مرضه ، وشعر بدنو أجله ، فدعا اليه حصين بن نمير وعهد اليه بقيادة الجيش كما أمره الخليفة يزيد بذلك . ثم قال مسلم : اللهم اني لم أعمل قط بعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله عملا أحب اليّ من قتل أهل المدينة ولا أرجى عندي في الآخرة ^(٢) .

وما كاد عبد الله بن الزبير يعلم بقدوم الحصين بن نمير عليه حتى تحصن في الكعبة ، بعد أن أحكم مراصد مكة . وأبدى المسلمون جميعا سخطهم لاقدام الجيش الأموي على غزو الكعبة ومكة . وبدا هذا السخط واضحا في قدوم كثير من النجدات

(١) الكامل ح ٤ ص ٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٣ ص ٥٢ .

من كل مكان . فجاءه أهل المدينة الذين نجوا من قبضة مسلم ابن عقبة . ثم جاءه نجدة بن عامر الحنفى الذى ثار فى اليمامة على الحكم الأموى (١) . وقدم الخوارج الأزارقة على ابن الزبير يريدون مؤازرته ، فقبل مساعدتهم برغم مخالفتهم له فى مبادئه . كما انضم الى ابن الزبير شخصية كبيرة من أبرز شخصيات ذلك العصر ، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى . وأخيرا جاءت الى ابن الزبير نجدة لم يكن يتوقعها وقد انفرد المؤرخ البلاذرى (٢) بذكر خبرها ، فقال : « أرسل النجاشى جماعة من الحبش للدفع عن الكعبة ، وأعان ابن الزبير بهم فضمهم الى أخيه مصعب ابن الزبير فكانوا يقاتلون معه » .

ثم بدأ القتال بين جيش ابن الزبير والجيش الأموى . فخرج المنذر بن الزبير فبارز رجلاً من أهل الشام ، فضرب كل واحد منهما صاحبه ضربة أدت الى موتهما . واستمر القتال بين الفريقين بقية شهر المحرم ، وشهر صفر كله ، حتى اذا مضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ، رموا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار (٣) .

وكان عبد الله بن عمير الليثى ، قاضى ابن الزبير ، اذا توقف القتال فترة بين الفريقين ، يصعد الى الكعبة فينادى بأعلى صوته : يا أهل الشام ، هذا حرم الله الذى كان مأمناً فى الجاهلية

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ح ١ ص ١٦٥ .

(٢) انساب الأشراف ، القسم الثانى من ح ٤ ص ٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٥٢ .

يأمن فيه الطير والصيد ، فاتقوا الله يا أهل الشام فصيح جند الشام : الطاعة الطاعة ، الكرة الكرة ، الرواح قبل المساء . وما لبثت أن اشتعلت النيران في الكعبة (١) .

الأمويون يعرضون الخلافة على ابن الزبير :

ظل جيش الحصين بن نمير يحاصر ابن الزبير حتى كان اليوم الرابع من شهر ربيع الأول عام ٦٤ هـ حيث توفي الحليفه يزيد ابن معاوية . وقد علم عبد الله بن الزبير بهذا النبأ قبل أن يعلم به الجيش الأموي ، فناداهم ابن الزبير فقال : علام تقتلون وقد هلك طاغيتم ؟ ! فلم يصدق حصين بن نمير مقالته وظن أنها خدعة . ولكن سرعان ما جاء نبأ ذلك من الشام فلما تحقق حصين من موت الخليفة ، اتفق مع ابن الزبير على عقد مؤتمر في (الأبطح) .

التقى ابن الزبير بحصين بن نمير ، وكل منهما على صهوة جواده ، فراث فرس الحصين ، فجاء حمام الحرم يلتقط روث الفرس ، فكف الحصين فرسه عن هذا الحمام وقال : أخاف أن يقتل فرسي حمام الحرم . فقال ابن الزبير : تتخرجون من هذا وأنتم تقتلون المسلمين في الحرم ! .

عرض الحصين على ابن الزبير الخلافة على أن يخرج معهم الى دمشق بالشام حيث يتولاها هناك ، فقال الحصين : أنت أحق بهذا الأمر ، هلم لنبايعك ثم اخرج معنا الى الشام ، فان هذا

(١) تاريخ اليعقوبي ح ٢ ص ٢٢٤ .

الجند الذين معى من وجوه الشام وفرسانهم ، فوالله لا يختلف عليك اثنان ، وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم . فقال له : أنا لا أهدر الدماء ؛ والله لا أَرْضَى أَنْ أَقْتُلَ بِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَشْرَةَ مِنْكُمْ . وأخذ الحصين يكلم ابن الزبير سرا وهو يجهر ويقول : والله لا أفعل . فقال له الحصين : قَبِّحَ اللهُ مَنْ يَعِدُّكَ بَعْدَ هَبَا وَآيَا ؛ فَقَدْ كُنْتَ أَظُنُّ أَنَّ لَكَ رَأْيَا ، وَأَنَا أَكَلِّمُكَ سِرًّا وَتَكَلِّمُنِي جَهْرًا ، وَأَدْعُوكَ إِلَى الْخِلَافَةِ وَأَنْتَ لَا تَرِيدُ إِلَّا الْقَتْلَ وَالْهَلَكَةَ (١) !!

أبدى ابن الزبير استعداداه لقبول الخلافة على أَنْ يَتَوَلَّاهَا فِي الْحِجَازِ . فَبَعَثَ إِلَى الْحَصِينِ يَقُولُ لَهُ : أَمَا أَنْ أَسِيرَ إِلَى الشَّامِ فَلَسْتُ فَاعِلًا وَأَكْرَهُ الْخُرُوجَ مِنْ مَكَّةَ ، وَلَكِنْ بَايَعُوا لِي هُنَا فَأَنِي مُؤْمِنُكُمْ وَعَادِلٌ فِيكُمْ . فَأَجَابَ الْحَصِينُ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ تَقْدَمْ بِنَفْسِكَ وَوَجَدْتَ هُنَاكَ أَنَاسًا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ يَطْلُبُونَهَا يَجِيبُهُمُ النَّاسُ مَا أَنَا صَانِعٌ (٢) !! .

نقد وتحليل لرفض ابن الزبير الخلافة الأموية :

عاب بعض المؤرخين على عبد الله بن الزبير أنه رفض ما عرضه الحصين عليه ، وظنوا أَنَّ الطَّرِيقَ قَدْ أَصْبَحَ مُمَهَّدًا أَمَامَهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى الْخِلَافَةِ لَوْ أَنَّهُ اسْتَمَعَ إِلَى مَا أَشَارَ بِهِ الْحَصِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ مَاتَ الْخَلِيفَةُ يُزِيدُ ، وَخَلَفَهُ ابْنُهُ مَعَاوِيَةُ الثَّانِي

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٣ ص ٥٥ .

(٢) الطبرى ح ٤ ص ٣٨٦ .

وقد كان صغير السن ضعيف الشخصية . وقد عرض قائد جيوش الشام على ابن الزبير الطاعة والبيعة ، وتعهد له بتمهيد الطريق . وفي مقدمة هؤلاء المؤرخين ابن الأثير ^(١) الذي قال : « ولو خرج معهم ابن الزبير لم يختلف عليه أحد » . كما قال أبو الفدا ^(٢) : « ولو سار ابن الزبير مع الحصين الى الشام أو صانع بنى أمية ومروان لاستقر أمره » . وقال السيد أمير على ^(٣) : « ولو كان ابن الزبير قد غادر مكة وسارع الى الشام لاستطاع أن يقوض دعائم الأسرة الأموية ويستخلص الخلافة لنفسه ، ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بمكة وحدها فأتاح للأمويين فرصة ليوحدوا كلمتهم ويلموا شعثهم » .

ولكننا نؤيد ابن الزبير في رفضه ما عرضه الأمويون عليه . فأهل الشام لا يدينون بالولاء الا للأمويين ، وليس لابن الزبير في الشام عصبية وأنصار يعتمد عليهم كما أن بلاد الحجاز كانت قد عانت كثيرا من الحكم الأموي ، وناصر الحجازيون ابن الزبير لأنه أصبح المعارض الوحيد للحكم الأموي ، فماذا يكون موقفهم منه لو رأوه يرحل مع الأمويين الى حاضرتهم وعلى رأس جيشهم ؟ لا شك أنهم كانوا يتخلّون عنه ، فيفقد بذلك أنصاره وجنده . وكان ابن الزبير حريصا على مشاعر الحجازيين ، فهم أنصاره وعصبيته ، نرى هذا واضحا في حوارهِ مع الحصين ؛ فكان الحصين

(١) الكامل ج ٤ ص ٥٥ .

(٢) المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ٧٥ .

(٣) مختصر تاريخ العرب .

يكلمه سرا بينما يجيبه ابن الزبير جهرا . ولم يكن ذلك سذاجة
منه كما ظن الحصين ، فقد كان أنصاره يجلسون على مقربة منه ،
فأراد أن يسمعهم ما يسرّ خاطرهم ، فتعمّد أن يسمعهم قوله
للحصين انه لا يرضى الا بقتل عشرة من أهل الشام مقابل كل
رجل يقتل من أهل الحجاز . وكانت حركة ابن الزبير قبل كل
شيء ، هى حركة الحجاز التى تهدف الى عودة الحاضرة والنفوذ
الى الحجاز كما كانت الحال فى عهد الرسول وأبى بكر وعمر
وعثمان .

ولم يكن ابن الزبير يأمن لوعود الحصين ، ذلك القائد الذى
اشترك فى مذابح الحرّة والتنكيل بأهل المدينة ، ثم قدم يغزو
الكعبة ، وقد يكون قد اعتقد أنها مكيدة جديدة . كما أن تعهد
الحصين لابن الزبير بأخذ البيعة من أهل الشام له ليس كافيا ،
فالحصين لا يمثل البيت الأموى ، ولم يكن لسان الأمويين الناطق
بآرائهم . وكان هناك شيخ بنى أمية مروان بن الحكم الذى
ما زال يترقب الفرص للوثوب الى عرش الخلافة .

تنازل معاوية الثانى عن الخلافة :

توفى يزيد بن معاوية وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ،
وخلفه ابنه معاوية الثانى ، ولم يتجاوز بعد الثامنة عشرة . وكان
شابا ضعيفا ، غلب عليه الزهد والتقشف ، وكان يعتنق مبادئ
القدرية ، ويعتقد أن معاوية سلب علىّ بن أبى طالب حقه فى
الخلافة ، وأن أباه يزيد بالتالى لم يكن له حق فيها . فقد صعد

النسب فقال : « أيها الناس ، ان جدّي معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو علي بن أبي طالب ، وركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته فصار في قبره رهينا بذنوبه وأسيرا بخطاياهم . ثم قلد أبي الأمر فكان غير أهل لذلك ، وركب هواه وأخلفه الأمل وقصر عنه الأجل ، وصار في قبره رهينا بذنوبه ، وأسيرا بجرمه . ان من أعظم الأمور علينا لسوء مصرعه وبئس منقلبه ، وقد قتل عشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم وخرّب الكعبة ، وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم أمركم » .

وهكذا زلزل معاوية الثاني أركان الدولة الأموية ، وسلب جدّه معاوية وأباه يزيد حقهما في الخلافة ، وعدّد أخطاءهما بصورة كفت المعارضين للدولة الأموية وخاصة عبد الله بن الزبير مؤنة مهاجمة الأمويين .

أراد معاوية الثاني أن يفسح المجال لخلافة ابن الزبير ، بدون قصد ، فنزل عن الخلافة ، كما أنه لم يعين من يحلّفه ، كما لم يحدّد طريقة لاختيار خليفته (١) . وكانت أيام معاوية الثاني في الخلافة أربعين يوما قضّاها كلها في فراش المرض . فبعد أن أظهر للناس زهده في الخلافة ونزوله عنها ، لزم بيته ولم يخرج منه حتى وافاه الأجل .

شعر الأمويون ، بحرج موقفهم ، وخشوا أن يموت معاوية

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ٢ ص ٩ .

الثاني دون أن يعهد لأحد منهم بالخلافة ، فيتخذ ابن الزبير من ذلك فرصة سانحة لتحقيق أغراضه فيدب الشقاق بين أفراد البيت الأموي ، وتضطرب الأمور ويقدم الناس على البيعة لابن الزبير أميرا للمؤمنين ، فتوجهوا الى معاوية وألحوا عليه في اختيار ولي لعهد له لكنه أبى ذلك عليهم . وأبدى بنو أمية غضبهم عليه ؛ ويذهب بعض المؤرخين الى أنهم سمّوه ، ويذهب البعض الآخر الى أنهم طعنوه (١) .

كانت وفاة معاوية وعدم عهده بالخلافة لأحد من أفراد بيته ، سببا في تفرق كلمة بنى أمية وانقسامهم على أنفسهم اذ تنافسوا على الخلافة وتهافتوا عليها تهافتا أدّى الى ضعفهم وعلو شأن عبد الله بن الزبير . ويصور المؤرخ المسعودي (٢) تنافس الأمويين على الخلافة ، وأثر ذلك في تفرق كلمتهم ، فيقول انه لما مات معاوية الثاني « صلى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ليكون الأمر من بعده . فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة ؛ فقدم عثمان بن عتبة بن أبي سفيان فقالوا : نبايعك ؟ قال : على أن لا أحارب ولا أباهر قتلا . فأبوا ذلك عليه ، فصار الى مكة ودخل في جملة ابن الزبير » .

البيعة لابن الزبير بالخلافة :

كان أنصار ابن الزبير قد طلبوا منه في خلافة يزيد أن يبايع نفسه بعد مصرع الحسين ، فنصحهم بالتروى والانتظار ؛ فقد

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ من ٢٢٧ .

(٢) مروج الذهب ح ٣ ص ٢٠ .

أكانت في عنقه بيعة ليزيد ، وان كان ابن الزبير يستطيع أن يتحلل منها لأن معاوية أخذها منه تحت تهديد السيف ؛ إلا أنه رأى ألا يتعجل . وبعد وفاة يزيد جاءه الحصين بن نمير قائد جيش الشام وعرض عليه أن يبايعه ويسير معه الى الشام ، فأبى كل ذلك . وكان ابن الزبير طوال عهد يزيد لا يدعو الا للشورى ؛ وكان يلقب نفسه (العائذ بالبيت) . أما الآن فصار يدعو الناس الى بيعته ، ولقب نفسه (أمير المؤمنين) (١) .

وان كان ابن الزبير قد رأى بالأمر أن يتبع سياسة التآني والروية ، فقد رأى اليوم أن يتبع سياسة العجلة وانتهاز الفرص ؛ فقد صارت الأمور ممهدة له : خليفة ضعيف كاره للخلافة ، وحزب أموي منقسم على نفسه ؛ وولاة طامعون في الدولة ، ورعايا ساخطون على حكاهم . فأعلن ابن الزبير نفسه خليفة وسارع الناس الى بيعته . وصف البلاذري (٢) الموقف فقال : « فلما مات معاوية مال أكثر الناس الى ابن الزبير ، وقالوا هو رجل كامل السن ، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان ، وهو ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه بنت أبي بكر بن أبي قحافة ، وله فضل في نفسه ليس لغيره » .

بيعة الحجاز لابن الزبير :

أعلنت بلاد الحجاز خاصة وشبه الجزيرة العربية ولاءها لعبد الله بن الزبير وبايعته بالخلافة . وبدأ ابن الزبير بأخذ البيعة

(١) اليعقوبي ح ٣ ص ٢ .

(٢) انساب الأشراف ح ٤ ص ٦٥ .

من أهل مكة حيث كان يقيم بها ، فهرعوا الى بيعته . ثم طلب البيعة من أهل المدينة فكانوا كأهل مكة في التسابق الى البيعة ، فقد تطلّعوا الى الخلاص من الحكم الأموى ، وقد كانت فظائع الحرة لا تزال ماثلة في أذهانهم .

وأراد ابن الزبير أن يرضى مشاعر أهل المدينة ، فكتب الى واليه الجديد الذى عهد اليه بحكم المدينة أن ينفى جميع الأمويين من المدينة ، فأخرجهم جميعا وسمح لهم بمصاحبة أموالهم ونساءهم وأولادهم ، ورحلوا الى دمشق بالشام . ولكن نفيتهم وان أرضى أهل المدينة ، الا أنه أضر بمصالح ابن الزبير ، فقد أتاح لهؤلاء الأمويين أن يفروا من قبضته . فقد خرج هؤلاء الأمويين وعلى رأسهم شيخهم مروان بن الحكم حيث بدأوا ينسجون المكائد ضد ابن الزبير ، ويعملون على دفع مروان الى الخلافة فيخلقون منافسا كبيرا لابن الزبير .

ويرى المؤرخ اليعقوبى ^(١) أن نفى الأمويين من المدينة عاد بالضرر على الحركة الزبيرية ، فيقول « وأخذ مروان بالخروج فأتى عبد الملك ابنه وهو عليل مجدر . فقال له : يا بنى أن ابن الزبير قد أخرجنى . قال : فما يمنعك أن تخرجنى معك ؟ فقال : كيف أخرجك وأنت على هذا الحال ؟ قال : لفنى فى القطن فان هذا رأى لم يتعقبه ابن الزبير . فخرج وأخرج عبد الملك ، وتعقب ابن الزبير رأى فعلم أنه قد أخطأ فوجه يردهم ففاتوه . »

(١) تاريخ اليعقوبى ح ٣ ص ٣ .

حرص عبد الله بن الزبير أن يكون له مظاهر الخلافة ، فولّى
الولاية والعمال على المناطق التي امتد نفوذه إليها . فولّى أخاه
عبيد الله بن الزبير والياً على المدينة ، كما عهد إلى عبد الله بن مطيع
بأن يأخذ له البيعة من المسلمين

بلاد العراق تباع لابن الزبير :

كان أهل العراق لا يهتمون طوال تاريخهم إلا بتحقيق استقلال
بلادهم^(١) . وقد أصبحت هذه الأمنية حقيقة واقعة يوم نقل على
ابن أبي طالب حاضرة خلافته إلى الكوفة ، ثم ضاعت هذه
الآمال بعد مصرعه ، فحاولوا استرجاع التاريخ باستدعاء الحسين ،
ولكن كربلاء حرمتهم من هذا الزعيم ، فصبروا حتى يظهر منقذ
يحق لهم الاستقلال .

ونظر أهل العراق إلى العالم الإسلامي ، فوجدوا خليفتين ؛
أحدهما في الحجاز وهو عبد الله بن الزبير ، وآخر بالشام وهو
مروان بن الحكم . فكان عليهم أن يختاروا طاعة أحدهما . وهم
في الحقيقة يكرهون البيعة لهما على السواء ، ففي بيعتهم
لابن الزبير اعتراف منهم ببقاء الحاضرة في الحجاز ، فتظل الحالة
كما كانت عليه في خلافة عثمان . وفي بيعتهم لمروان استمرار للحكم
الأموي في العراق ، ذلك الحكم الذي عانوا منه الكثير على يد
زياد وابنه عبيد الله ، وهم لم ينسوا موقف معاوية من علي ؛
وموقف ابنه يزيد من الحسين . ورأوا أن يختاروا أهون الأمرين .

ولا شك أن البيعة لابن الزبير أفضل من البيعة لمروان ، فهو سيعتبر هذه البيعة تفضيلا له على منافسه ، بينما يعتبر مروان بيعتهم له أمرا واجبا طيعيا ، لأن خلافته تعد استمرارا للدولة الأموية التي وضع أسسها معاوية بن أبي سفيان .

رأى أهل العراق في خلافة ابن الزبير فرصة للتخلص من الحكم الأموي ، واستقر رأيهم على مؤازرته كلما أمكن لهم ذلك . فوفد عدد كبير منهم الى مكة وحاربوا في صفه أثناء حصار الكعبة ومكة في عهد الخليفة يزيد بن معاوية ^(١) ، ثم بويح لمروان بالخلافة فامتنعوا عن البيعة له وخلصوا طاعة بني أمية ، وبايعوا لابن الزبير . ولم تكن يبعثهم الا لتحقيق مصالح بلادهم .

أبت البصرة والكوفة الا أن تكون مركزا للحوادث في التاريخ الاسلامي (٢) ، فلعبت كل منهما دورا في ترجيح احدى كفتي ابن الزبير ومروان فيما يتعلق بالبصرة ، كان موت يزيد ومعاوية الثاني صدمة عنيفة لعبيد الله بن زياد ، فخفت قبضته ولاننا سطوته ، لأن الموقف أصبح مضطربا ولم يعد هناك خليفة قوى من بنى أمية يستند اليه في حكمه وسلطانه (٣) . فرأى أن يستند الى حب أهل العراق ، فبدأ يتقرب اليهم . لكن مسعاه في هذا السبيل لم يتحقق لأن البصرة أصبحت مسرحا للعصية القبلية

(١) الطبری ح ٧ ص ١٦ .

Joseph Hell : The Arab Civilization, P. 60. (2)

Khuda Buksh : Cont. to the Hist. of Islamic Civil., (३)

V. II, P185

بين مضر وربيعة والأزد (١) . واتتهز الخوارج هذا الاضطراب فبدأوا يعيشون في البصرة فسادا (٢) .

رأى عبيد الله بن زياد أن يبدأ بطلب البيعة من أهل البصرة ، فهو يعرف أنهم أقل انتصارا لآل البيت من الكوفة ؛ فدعاهم الى الاجتماع في المسجد ، افتتح الاجتماع بكثير من اللباقة والاعتدال خلافا لعاداته السابقة ، وأشار في خطبته الى ما قامت به أسرته من خدمات في العراق والبصرة بصفة خاصة ، وكيف بذل جهده للعمل على رفع شأن أهلها ، فقد أصبح عدد المقاتلة ثمانين ألفا بعد أن كانوا سبعين ألفا ، ثم طلب منهم البيعة له حتى تستقر أمور الشام (٣) .

ولا شك أن أهل البصرة قد انشروا صدورهم لما أظهره عبيد الله بن زياد من ضعف واستكانة ورغبة في الاتفاق معهم ؛ فبايعوه على أن يلي أمرهم ريشما يتفق الناس . ولما كان أهل البصرة لم يتفقوا على أحد منهم ، في حين فاجأهم ابن زياد بطلب البيعة له فقد رضوا بما عرضه عليهم ريشما يتفقون فيما بينهم ، وريشما ينالون ما في بيت المال وما وعدهم به من عطاء وصلات . وعبر أهل البصرة عن حقيقة شعورهم بعد خروجهم من المسجد ،

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ح ٥ ص ١٨٨ .

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٧٩ .

(٣) الطبري ح ٧ ص ١٨ .

فقد مسحوا بأيديهم في الحيطان وقالوا : أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له في الجماعة والفرقة ؟ ! (١) .

ظل عبيد الله بن زياد أميرا للبصرة لفترة قصيرة ، ثم أخذ سلطانه في الضعف ، فكان يأمر بالأمر فلا يقضى ، ويرى الرأي فيرد عليه ، ويأمر بحبس المخطيء فيحال بين أعوانه وبينه . بل كان يصعد المنبر فيحصبونه ويرمون به بالحجارة ويسبونه (٢) . ولم يجمع أهل البصرة رأيهم الا على نبذ طاعة ابن زياد ، فقد وأت عامة الناس أن في بقاء حكم ابن زياد الضعيف ما يهددهم بخطر الخوارج ، وقصدت الشيعة الى الأحنف بن قيس لينهض بهم فأبى ، فقالوا : أنت سيدنا . فقال : لست بسيدكم ؛ انما سيدكم الشيطان ! (٣) . وغضب الموالي على ابن زياد لتفضيل العرب عليهم ، بل ان الخوارج أنفسهم ، ومن ورائهم القراء ؛ اخرجوا لطردهم ابن زياد . ورأى ابن زياد أن ينجو بحياته ؛ فخرج هاربا الى الشام (٤) .

على أن خروج ابن زياد من البصرة لم يقض على متاعب أهلها ، فقد اشتعلت نيران العصبية بين مضر واليمن . وآثروا أن يعيدوا قصة التحكيم ؛ فاختارت كل فئة من يثملها ، ولكن

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٢٧٩ ، ابن الاثير : الكامل ح ٤ ص ٥٦ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ٢ ص ١٩ .

(٣) ابن المثنى : النقاوض ح ١ ص ١٠٢ .

(٤) الطبرى ح ٧ ص ٢١ .

الحكمين اختلفا ، فرأى المضرى فى بنى أمية ، ورأى اليماني فى بنى هاشم ، ثم اتفقا أخيرا على اختيار عبد الله بن حارث ، وهو مضرى هاشمى يجمع بين الصفتين فأرضى الفريقين (١) .

لكن هذا الاختيار لم يؤد الى القضاء على الفوضى فى البصرة ؛ ففى أقل من ستة أشهر أقاموا عليهم نحو من أربعة أمراء من بينهم . ورأت البصرة أن تبحث عن خلاص من هذا الضيق ، ووجدته أخيرا ، فقد ظهر فى سوق البصرة رجل يقول : أيها الناس ، هلموا الى أدعكم الى ما لم يدعكم اليه أحد ، أدعوكم الى العائد بالحرم . يعنى عبد الله بن الزبير (٢) .

فكتب أهل البصرة الى عبد الله بن الزبير يعلمونه أنه « امام لهم ويسألونه أن يوجه اليهم رجلا من قبله يتولى الأمر بها ، فدعا وجوه أهل البصرة فاستشارهم فى رجل يوليه حرب الخوارج ؛ أعداء البصرة الألداء ، فأجمعوا على اختيار المهلب بن أبى صفرة ؛ فلقى هذا الاختيار قبولا منه ، وتنفس أهل البصرة الصعداء . ولكن حكم ابن الزبير لم يستقر تماما الا بعد أن بعث الى البصرة أخاه مصعب بن الزبير حاكما عليها ، وكان ذو شخصية قوية وحزم وعزم .

كان خطر الخوارج والعصية القبلية هما العاملان اللذان دفعا أهل البصرة الى مراسلة عبد الله بن الزبير ، فالخوارج تمتاز بالشجاعة والاقدام ، ولا يمكن اخضاعها الا بجيوش عظيمة العدد

(١) الطبرى ح ٧ ص ٢٠ .

(٢) الطبرى ح ٧ ص ٢٣ .

والعدد ، ذات قيادة منظمة ، وهذا لا يتوافر لعبيد الله بن زياد ، ولا يمكن أن يقوم بهذا العبء الجسيم الا الخليفة الجديد عبد الله بن الزبير . أما العصبية القبلية فقد أنهكت قوى أهل البصرة وهم في حاجة لتوفير جهودهم لقتال الخوارج ، فاصطلحت الأزد ومضر وتراضوا على بيعه ابن الزبير ^(١) ، وارتاحت تميم لبيعة ابن الزبير فهي قبيلته وعشيرته ^(٢) .

أما عن موقف الكوفة من حركة عبد الله بن الزبير ، فان ابن زياد مع حرصه على اخذ البيعة له من أهل البصرة ، اكتفى بأن بعث رسولا من قبله الى الكوفة لتحقيق هذا الغرض حتى لا يثير شعور أهلها من الشيعة . ولم يكد رسوله يفد الى الكوفة ويدعو الى بيعته حتى ألقى به في غياهب السجن . كذلك اعترضت نساء الكوفة على تولية عمر بن سعد بن أبي وقاص أميرا لهذه المدينة فخرجن باكيات نادبات . وألهب هذا البكاء والنواح شعور أهل الكوفة فأسرعوا الى عزل عمر ، وقام خطيبهم فقال : « لا حاجة لنا من بنى أمية ، ولا من اماراة ابن مرجانة ، انما البيعة لأهل الحجاز » ^(٣) .

فاختاروا عامر بن مسعود وكتبوا بذلك الى عبد الله بن الزبير ، فأقرهم على اختيارهم ، وظل ابن مسعود أميرا عليهم حتى عزله ابن الزبير وولى عبد الله بن يزيد .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ح ٢ ص ٢٢ .

(٢) Khuda Buksh Cont. to the Hist. of Isl. Civil., V. II, p.186.

(٣) المسعودي : مروج الذهب ح ٣ ص ٣١ .

البيعة لابن الزبير في مصر ٥

بعث عبد الله بن الزبير دعائه الى مصر لنشر الدعوة له وأخذ البيعة من أهلها . وقد لمس المصريون الفوضى التي سادت الدولة الأموية بعد موت يزيد بن معاوية وتنازل معاوية الثاني عن الخلافة ، وتنافس البيت الأموي على الخلافة ، كما كان بعض المصريين ساخطين على الحكم الأموي في مصر . وكان يتولى حكم مصر في ذلك الحين والي الأموي سعيد بن يزيد (٦٢ - ٦٤ هـ) .

وكان من أسرع الناس في مصر الى البيعة لابن الزبير من يدينون بمبادئ الخوارج ^(١) ، فقد شاهدوا الخوارج الأزارقة يرحلون من العراق الى مكة ، وساعدوا ابن الزبير خلال حصار جيش يزيد بن معاوية الكعبة .

ولما شعر عبد الله بن الزبير أن مصر قد دانت له بالطاعة واعترفت بخلافته ، بعث اليها بأحد رجاله ليتولى حكمها ، وهو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، وقد رحل معه الى مصر بعض الخوارج الذين كانوا مع ابن الزبير ، في شهر شعبان من سنة ٦٤ هـ . فيقول أبو المحاسن ^(٢) : « ودخل معه مصر جماعة كثيرة من الخوارج ، وأظهروا دعوة عبد الله بن الزبير بمصر ، ودعوا الناس لبيعته ، فتابعهم الناس وأصبحت مصر منذ ذلك الحين ولاية تتبع خلافة ابن الزبير .

(١) الكندي : الولاية والقضاة ص ٤٠ .

(٢) النجوم الزاهرة ح ١ ص ١٦٥ .

البيعة لابن الزبير في الولايات الإسلامية :

بايع النعمان بن بشير لابن الزبير بحمص ، وأصبحت حمص تدين بالطاعة لابن الزبير . ولا ندهش لتحول هذا الوالى الأموى عن طاعة الأمويين الى طاعة ابن الزبير ، فقد كان النعمان فى عهد الخليفة يزيد بن معاوية مقتنعا بأحقية ابن الزبير بالخلافة وان لم يجهر بهذا رأى . فقد أوفده يزيد الى ابن الزبير ليفاوضه فى البيعة له والانتقاد لخلافته ، فخلا النعمان بابن الزبير ، فتوجه ابن الزبير اليه بالسؤال : أنشدك الله ، أنا أفضل عندك أم يزيد ؟ فقال : بل أنت . فقال ابن الزبير : فوالدى خير أم والده ؟ فأجاب النعمان : والدك . فقال : فأمى خير من أمه ؟ قال : بل أمك . فقال ابن الزبير : فخالتك خير أم خالتى ؟ قال : بل خالتك . قال : فعمتى خير أم عمته ؟ قال : بل عمتك ، أبوك الزبير ، وأمك أسماء ابنة أبى بكر ، وخالتك عائشة ، وعمتك خديجة بنت خويلد . فسأله ابن الزبير : أفتشير على بمبايعه يزيد ؟ . قال النعمان : أما اذا استشرتني ، فلا أرى ذلك ؛ ولست بعائد اليك بعد هذا أبدا !! (١) .

أصبحت قنسرين تدين بالطاعة لابن الزبير ، فقد أعلن زفر ابن عبد الله الكلابى فيها الثورة ، وبايع لعبد الله بن الزبير ؛ وأقبل عليه أهل قنسرين يعلنون ولاءهم للخلافة الزبيرية (٢) .

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٢٧٣ .

(٢) الطبرى ح ٤ ص ٤٠٩ .

وامتدت الدعوة للخلافة الزيرية الى فلسطين ، فقد بايع نائل
ابن قيس لابن الزبير بفلسطين ، وأخرج منها الوالى الأموى
روح بن زنباع الجزامى (١) .

وأعلنت بلاد اليمن ، وخراسان ، والجزيرة طاعتها لعبد الله
ابن الزبير ، وبعث ولاته عليها بعد طرد الولاة الأمويين . كما كان
نجدة بن عامر الحنفى الثائر على الأمويين باليمامة حليفاً
لابن الزبير .

أما الأردن ، فكان الاقليم الوحيد الذى أصر على الاخلاص
لبنى أمية ، فلم يبايع ابن الزبير . وكان زعيم حركة المعارضة هناك
حسان بن مالك بن بجدل الكلبي ، وكان عاملاً لمعاوية ولابنه
يزيد ، وكان هواه مع الأمويين ، فسار الى الأردن واستخلف على
فلسطين روح بن زنباع الجزامى ، فطرده منها نائل بن قيس
— كما ذكرنا — وبايع لابن الزبير . وأخذ حسان يدعو أهل
الأردن الى طاعة بنى أمية ونبذ دعوة ابن الزبير . وبايعوه على
شروط ، وهى ألا يدعوا الى خلافة ابنى يزيد بن معاوية وهما
عبد الله وخالد ، وأن يدعوا لخلافة مروان بن الحكم فقالوا له :
نحن نبايعك على أن تقااتل من خالفك وأطاع ابن الزبير ، على أن
تجنبنا هذين الغلامين — يعنى ابنى يزيد عبد الله وخالدا — فأنا
نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبى (٢) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ح ٨ ص ٢٣٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٦١ - ٦٢ .

نفوذ ابن الزبير بالشام :

كان اختلاف بنى أمية وتفرق كلمتهم ثغرة أراد ابن الزبير أن ينفذ منها للوصول الى بسط نفوذه في بلاد الشام والبيعة له هناك : وكان ابن الزبير يعلم بما بين قيس وكتب من التعصب ؛ وأراد أن يستغل تلك العصبية لمصلحته : وقد قرَّب معاوية وابنه يزيد قبيلة كتب فأصبحت تتولى المناصب الكبرى ، مما أثار أحقاد قيس ، ولذا رأى ابن الزبير أن يعتمد على قيس ، وعهد الى الضحاك بن قيس الفهري ؛ وهو من قيس ، أن يأخذ له البيعة من أهل الشام .

ولكن الضحاك بن قيس كان يطمع في تولي الخلافة ، ورأى أن الوقت لم يحن بعد لتحقيق أطماعه ، فأثر أن يتخذ من دعوة ابن الزبير سلما يرقى به الى الخلافة . ونجح الضحاك في نشر الدعوة لابن الزبير في أرجاء الشام ، عدا اقليم الأردن الذي آثر البقاء على طاعة الأمويين .

انقسم أهل الشام على أنفسهم ؛ فريق يؤيد ابن الزبير ، وفريق آخر استمر على ولائه للدولة الأموية ؛ ويصور المؤرخ الطبرى^(١) الموقف : « فقام بعضهم الى بعض في المسجد فاقتتلوا ؛ قيس تدعو الى ابن الزبير ونصرة الضحاك ، وكتب تدعو الى بنى أمية ثم الى خالد بن يزيد ويتعصبون ليزيد . وكان من الأجناد فاس يهوون بنى أمية ، وناس يهوون هوى ابن الزبير » .

وأدرك الحصين بن نمير ، عند عودته من غزو الكعبة بعد وفاة يزيد ، هذا الانقسام الذى أصاب الأمويين فأراد أن يحذرهم وينذرهم ، فقال لهم : نراكم فى اختلاط فأقيموا أميركم ، قبل أن يدخل عليكم شأنكم فتكون فتنة عمياء صماء !! (١) .

شعر الأمويون بخطر دعوة الضحاك لخلافة ابن الزبير ، فقد انتشرت الدعوة الزبيرية فى جميع الولايات الاسلامية ، وكان الأمويون يحرصون على بقاء بلاد الشام معقل الخلافة الأموية بعيدة عن النفوذ الزبيرى . ولكن الضحاك نجح فى أخذ البيعة لابن الزبير من كثير من أهل الشام وخاصة من القيسيين :

ورأى الأمويون أن يضعوا نصيحة الحصين بن نمير موضع التنفيذ ، فعزموا على اختيار خليفة أموى يجمع شملهم ويوحد كلمتهم . وعرض الأمويون الخلافة على كثير من أبناء البيت الأموى فكان كل منهم يتهرب منها ويأبى توليها فى هذه الظروف الدقيقة الحرجة . ولكن كان عليهم أن يسرعوا فى توحيد صفوفهم ، حتى لا تخرج الخلافة من الأمويين بالشام الى ابن الزبير بالحجاز .

اجتمع الأمويون ، فقال بعضهم : ان المثلث كان فينا أهل الشام ؛ أفينتقل ذلك الى أهل الحجاز ؟ لارضى بذلك !! هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر فى هذا الأمر ؟ . فقال الفريق الآخر : نعم ! . فعرضوا الخلافة على خالد بن يزيد بن معاوية ؛ وهو غلام حدث السن ؛ فتردد فى قبولها وقال : أستخير الله وأنظر .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦١ .

ويُشس الأمويون منه ، فعرضوا الخلافة على عمرو بن سعيد ، فأخذوا
يسبّتهم ويقولون : والله لا أفعل ، لا أفعل !! فقصدوا مروان بن
الحكم يطلبون منه قبول تولي الخلافة ، فقال : أستخير الله
وأسأله أن يختار لأمة محمد خيرا وأعدلها ما شاء الله (١) .

مؤتمر الجابية

انتشرت دعوة عبد الله بن الزبير في جميع الأقطار الإسلامية ،
عدا الأردن ، وعظم أمره الى حد جعل مروان بن الحكم يفكر
في أن يقصد ابن الزبير مبايعا له ، لولا أن نهاه عبيد الله بن زياد
عن ذلك فقال : استحييت لك ما تريد ، أنت كبير قرين وسيدها
تصنع ما تصنعه ؟ ! (٢) .

ورأى بنو أمية في مروان الشخصية المنشودة التي يستطيعون
أن يرشحوها للخلافة ، فكان يؤهله لها كبر سنّه وسبقه في
الاسلام ، ودفاعه عن عثمان ، فأوا فيه مرشحا يستطيعون أن
ينافسوا به ابن الزبير ، وخاصة أن مروان كان يفوقه سنّا .
وخلال الجو لمروان ، حيث ان زعماء الأمويين كعمرو بن سعيد
ابن العاص ، وخالد بن يزيد بن معاوية ، قد تخلفوا عن طلب
الخلافة . وأراد الأمويون أن يقطعوا على أنصار هذين الزعيمين
فرصة المعارضة مستقبلا ، فأوا أن يعقدوا مؤتمرا في الجابية
يتداولون فيه فيمن يولونه الخلافة الأموية ليقاوم خلافة عبد الله

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١١ .

ابن الزبير ، ثم يبايعه جميع أفراد البيت الأموي ، وكان مروان ابن الحكم هو المرشح الأول .

ولكن كان أمامهم عقبة كبرى ، وهى دعوة الضحاك بن قيس الفهرى لابن الزبير ، ورأوا عجزهم عن اخضاعه بالقوة ، فلجأوا الى المكيدة . فأرسلوا ابن زياد الى الضحاك فحسّن له أن يدعو الى نفسه بدلا من دعوته لابن الزبير ، وما زال ابن زياد يغريه حتى عمل بنصيحته ؛ فدعا الناس الى مبايعته . وكان ذلك بمثابة القضاء على مكانته السياسية فى قلوب أنصاره ؛ فقد انفض الناس من حوله ، بعد أن علموا نكته لبيعة ابن الزبير ، وتقلّبه فى الأهواء ، تحقيقا لمصلحته الشخصية . يصور ابن كثير (١) الموقف فيقول : « فدعا الضحاك الى نفسه ثلاثة أيام ، فنقم الناس عليه ذلك وقالوا : دعوتنا الى بيعة رجل فبايعناه ثم خلعتة بلا سبب ولا عذر ، ثم دعوتنا الى نفسك ، فخرج الى البيعة لابن الزبير » . ورأى الضحاك أن يشترك فى مفاوضات الجابية عسى أن تنتهى الى اختياره للخلافة ، فأرسل الى بنى أمية يعتذر اليهم عما بدر منه آنفا ، ثم رحل الى الجابية (٢) .

بدأ مؤتمر الجابية ، وقام فريق من بنى أمية يرشح مروان ابن الحكم للخلافة ، بينما رشح فريق ثان خالد بن يزيد بن معاوية ؛ ورشح فريق ثالث عمرو بن سعيد بن العاص . وبعد جدال طويل عنيف اتفقوا على تولية مروان بن الحكم ومن بعده خالد ثم

(١) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١١ .

همرو . ثم عزموا على القضاء على روح الفتنة على بلاد الشام ، وعلى الدعوة الزيرية .

تقدم الأمويون الى دمشق لقتال داعية ابن الزبير وهو الضحاك بن قيس الفهري ، وكان قد سيطر على دمشق ، فالتقوا به في (مرج راهط) وقاتلوه ، حتى هزموه وقتلوه . كما قتلوا النعمان بن بشير والى ابن الزبير في حمص واستردوا المدينة من أنصاره . وهرب زفر بن الحارث الكلابي والى ابن الزبير على قنسرين (١) . كما هرب نائل بن قيس من فلسطين (٢) .

وهكذا انكمش سلطان عبد الله بن الزبير في بلاد الشام ، وباعع الأمويون مروان بن الحكم خليفة ، وبدأ عهد جديد ، هو عهد الخلفاء المروانيين ، بعد انتهاء عهد الخلفاء السفيايين . وأصبح في الدولة العربية الاسلامية خليفتان : خليفة في الشام وهو مروان ابن الحكم ، وخليفة في الحجاز وهو عبد الله بن الزبير ، وبدأ الصراع بين الخليفتين ، ومن ورائهما القطران الاسلاميان الكبيران : الشام والحجاز .

(١) اليعقوبي ج ٣ ص ٣ .

(٢) ابن الاثير الكامل ج ٤ ص ٦٣ .

٧- الصراع بين ابن الزبير خليفة الحجاز

والخلفاء الأمويين بالشَّام

مروان يستعد لصراعه مع ابن الزبير
ابن الزبير ومروان في كفتي ميزان
مروان ينتزع مصر من ابن الزبير
صراع مروان وابن الزبير حول العراق
مروان يخفق في انتزاع المدينة من ابن الزبير
عبد الملك يواصل صراع ابن الزبير

الصراع بين ابن الزبير وخليفة الحجاز والمخلفاء الأمويين بالشام

مروان يستعد لصراعه مع ابن الزبير :

كانت وفاة معاوية الثاني ، واغفاله العهد بالخلافة لأحد من أفراد البيت الأموي ، سببا في تفرق كلمة بنى أمية ، وانقسامهم على أنفسهم . اذ تنافسوا على الخلافة وتهافتوا عليها تهافتا أدى الى ضعفهم ، مما أدى الى تضائل نفوذهم في العراق والحجاز ؛ حيث كان ابن الزبير مبايعا بالخلافة (١) .

كذلك تعرض البيت الأموي لخطر العصية القبلية ، فكانت قبائل عرب الشمال القيسيين ، كغطفان ومضر وغيرهما ، في شمال الشام وفي الجزيرة والعراق ، غير مرتاحة الى محاباة معاوية الأول لبني كلب اليمانيين . وما كاد ابن الزبير يبائع لنفسه حتى ثارت قيس بزعامة زفر بن الحارث فطرد والى قنسرين ، وتغلب الضحاك ابن قيس على الأمويين وأعلن ولاءه — كما مر بنا — لابن الزبير ، وشعر الأمويون بخطر العصية القبلية على حكمهم ، فاجتمعوا بمرج راهط لتصفية هذه الأحقاد ، ثم اتفقوا على البيعة لمروان

Quatremère : Mem. Hist. sur la Vie d Abd. ben. Zobair. (1)
P. 289.

ابن الحكم ، لاعتقادهم أنه الشخصية المنشودة التي يستطيعون بها أن ينافسوا عبد الله بن الزبير .

ونجح مروان في القضاء على نفوذ عبد الله بن الزبير في بلاد الشام حينما قتل الضحاك بن قيس في موقعة مرج راهط (١) . وأبدى ابن الزبير ألمه لمقتل الضحاك ، وبعث أخاه مصعب بن الزبير إلى فلسطين ليحاول الاحتفاظ بالنفوذ الزبيرى هناك ؛ ولكن مروان بعث جيشا أرجع مصعبا على أعقابهِ (٢) .

فقد عبد الله بن الزبير كل أمل في إعادة نفوذه في الشام ، فرأى أن يعمل على الاحتفاظ بسيطرته على سائر الأقطار الإسلامية . وفي نفس الوقت بدأ مروان يعدّ العدة لانتزاع الأقطار من يد ابن الزبير كما انتزع منه بلاد الشام . ولذا بدأ بين هذين الخليفين صراع عنيف في سبيل الخلافة والسيطرة على الدولة العربية الإسلامية . ولم يكن في انتصار مروان في مرج راهط نهاية لمتاعبه ، فقد كانت أمامه عقبات يجب عليه أن يقضى عليها حتى يصفو له الجو فينفرغ لابن الزبير .

فقد أثارت واقعة مرج راهط دفين الأحقاد التي كادت تزول بين الحميريين والمضريين ، كما أخذ الحميريون اليمانيون بعد أن رجحت كفتهم يسومون منافسيهم أشد صنوف الاضطهاد . وكان على مروان ألا يقابل عدوه ابن الزبير وجرثومة الفرقة والانتقام منتشرة بين رجاله وجنده .

(١) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٦٥ ص ٦٥ .

وخير ما يصور أحقاد الحميريين والمضربين ، كل نحو الآخر ،
هذه الأبيات التي أشدها الفرزدق أحد شعراء اليمنيين متفاخرا
على قيس :

ولو رام قيس غيرهم يوم راهط
للاقي المنايا بالسيوف الصوارم
ولكن قيسا روغت يوم راهط

بطود أبي العاص الشديد الدعائم
وخشى مروان من منافسه خالد بن يزيد بن معاوية ، ورأى
التخلص منه ، فتزوج من أمه فاخته ابنة أبي هاشم بن عتبة « ليسقط
من أعين الناس » (١) . ثم تأمر مروان معها ، فخنقاه حتى مات .
وكان الذين حضروا مؤتمر الجابية من بنى أمية يعتقدون أنهم
وقد ساعدوه على تولى الخلافة قد أصبحوا شركاء له في الأمر .
فشرطوا عليه شروطا قاسية لم يجد مفرا من قبولها ، فقد كان في
حاجة الى مؤازرتهم له ، وأغدق مروان عليهم الهبات والعطايا
والمناصب حتى يسكتوا عنه .

بقى على مروان أن يتخلص من أكبر عدو له ، أي عبد الله
ابن الزبير ، خليفة الحجاز . ورأى أن الوسيلة المثلى الحاسمة هي
تيسير الجيوش اليه ، ومقاومته مقاومة ايجابية . فقاد بنفسه
جيشا الى مصر . ثم بعث عبيد الله بن زياد على رأس جيش آخر
الى الجزيرة والعراق ، وأرسل جيشا ثالثا الى المدينة بقيادة
حبيش بن دلجة .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٤ .

ابن الزبير ومروان في كفتى ميزان :

كانت شخصية كل من مروان وابن الزبير تؤثر في موقف المسلمين منهما . فلا يزال المسلمون يذكرون أن مروان قد صلى خلف ابن الزبير في حرب الجمل ، ويعرفون أن مروان كاد يهزم بالبيعة لابن الزبير لولا أن نهره عبيد الله بن زياد .

كما أن ماضى مروان ونسبه لم يكن يقنع المسلمين بأحقية بالخلافة ، فقد كان أبوه الحكم طريد رسول الله ولعينه ، وكان مروان « لا فقه له ولا يعرف بالزهد ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعد همة » (١) . وكان مروان من عوامل إثارة مشاعر المسلمين على عثمان بن عفان . كما أقدم في حرب الجمل على قتل حليفه طلحة بن عبيد الله غيلة حين شعر طلحة بالندم وأراد الرجوع عن الحرب . وعانى أهل الحجاز من سياسة مروان فيهم حين ولاء معاوية بن أبى سفيان عليهم . وحنث مروان في يمينه الذى أعطاه لأهل الحجاز ، فقد أقسم عند منبر الرسول قبيل واقعة الحرة ألا يظهر على أهل المدينة عدوا ، ولكنه سحب مسلم بن عقبة حين قدم يغزو المدينة ، واشترك في واقعة الحرة . بايعت الأمصار جميعا ، عدا رقعة صغيرة هي الأردن ، عبد الله ابن الزبير خليفة . فهي بيعة عامة عن رضا واجماع من المسلمين . وأرسل ابن الزبير ولاته الى الأمصار الاسلامية وأبدى المسلمون رضاهم عن هؤلاء الولاة . أما مروان بن الحكم فانه لم يبايعه

(١) المقرئى : النزاع والتخاصم ص ٢٥ .

صوى نفر قليل من أهل الشام ، معظمهم من الأمويين أو صنائعهم ، بينما وقف كثير من الأمويين الى جانب الضحاك ابن قيس داعية ابن الزبير . ويعلق المسعودي ^(١) على تولية مروان الخلافة فيقول : « وكان مروان أول من أخذها بالسيف كرها ، على ما قيل ، بغير رضا عن عصابة من الناس ، بل كل خوفه الا عددا يسيرا حملوه على وثوبه عليها » . ويذكر الحصني ^(٢) : « وكثير من العلماء يرون أن بيعه مروان غير منعقدة شرعا ، لوقوعها من سكان دمشق فقط ، ولسبقها ببيعة ابن الزبير المنعقدة باجماع جمهور المسلمين » .

واذا كان ابن الزبير يفضل مروان من الناحيتين السياسية والشخصية ، فان دستور الخلافة يقف في جانب ابن الزبير ، فمروان « باغ خارج على ابن الزبير » ^(٣) ، لأن بيعته جاءت متأخرة ، مما يوجب على المسلمين مقاومته واخضاعه لابن الزبير . ويؤيد الماوردي ^(٤) هذا الرأي ، فيقول انه اذا عقدت الامامة لامامين في بلدين لم تنعقد امامتهما لأنه لا يجوز أن يكون للأمة امامان في وقت واحد . واختلف الفقهاء في الامام فيهما ، ولكن الماوردي يرى أن الامامة لأسبقهما بيعة وعقدا .

تمسك كل من مروان وابن الزبير بحقه في الخلافة ، فأصبح

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٢ .

(٢) منتخبات التواريخ لدمشق ج ١ ص ٩١ .

(٣) ابن حجر الهيثمي : تاريخ اخوان الصفا (مخطوط)

ورقة ٥١ .

(٤) الادبكام السلطانية ص ١٠ .

لا مفر من تحكيم السيف بينهما ، وقد تلاقى الخصمان في ثلاثة
ميادين هي : مصر ، والعراق ، والمدينة .

مروان ينتزع مصر من ابن الزبير :

استقر أمر الشام وفلسطين لمروان ، وأراد أن يخضع سائر
الأمصار ، حتى تصفو الخلافة له ، فرأى أن يتدبّر بمصر أقرب
الأمصار إليه ، فهو لم يكن يستطيع أن يبدأ بالحجاز رأس الحرّة
الزبيرية ، أو بالعراق مركز الشيعة أعداء الأمويين الألداء .
أما مصر ، فمعظم أهلها يوالون بنى أمية ، وكانت مصر منذ
مصرع عثمان بن عفان بعيدة عن مجريات الحوادث في الدولة
العربية الإسلامية .

وقاد مروان الجيش الأموي بنفسه ، رغم شيخوخته وضعفه ،
وسبقه جيش بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان ، جاء عن طريق أيلة
(العقبة الحالية) . وكان يتولى حكم مصر والى ابن الزبير وهو
عبد الرحمن بن جحدم ، وكان قد طلب البيعة من المصريين ،
فبايعوه حين رأوا أن الأمر قد تم لابن الزبير بمكة . واستمر
ابن جحدم يحكم مصر حتى علم المصريون ببيعة مروان بالخلافة ،
فبدأ بعضهم يميل الى إعادة الحكم الأموي لمصر .

ولما علم ابن جحدم بقدوم مروان ، بدأ يستعد لقتاله ، فحفر
خندقا حول القسطنطينية ، فنزل مروان في عين شمس ، فاضطر
ابن جحدم الى الخروج اليه ، فتحاربوا فترة ثم رأيا أن يتهادنا
ويتصالحا حقنا لدماء أنصارهما فاصطلحا على أن يقر مروان
ابن جحدم على حكم مصر .

ودخل مروان مصر في غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ .
وسرعان ما تحرر مروان من عهده لابن جحدم فعزله وفتح خزانته
وأعطى الناس فسارعوا الى بيعته .

ولكن بعض المصريين تمسكوا بالولاء لعبد الله بن الزبير ،
ورفضوا البيعة لمروان . وأقدم مروان على قتل زعمائهم ، وبلغ
عدد القتلى نحو ثمانين رجلا .

وأقام مروان بن الحكم في مصر شهرين ، ثم غادرها في أول
رجب سنة ٦٥ هـ (٦٨٥ م) بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية
الى الحكم الأموي ، كما ولى عليها ابنه عبد العزيز وزوده
بالنصائح الهامة . ثم قفل مروان راجعا الى الشام (١) .

صراع مروان وابن الزبير حول العراق :

كان مروان بن الحكم قد بعث عبيد الله بن زياد على رأس
جيش ليقاتل زفر بن الحارث ، الذي كان عاملا لابن الزبير على
قسرين ثم هرب من مروان الى قرقيسيا . وطلب مروان من
ابن زياد أن يقتل زفر ، ووعد ابن زياد أن يستعمله على كل
ما يفتحه ، وأمره بأنه اذا فرغ من زفر توجه الى بلاد العراق
لينتزعها من ولاية عبد الله بن الزبير (٢) .

وفي طريق ابن زياد الى قرقيسيا علم بوفاة مروان وتولية ابنه
عبد الملك الخلافة الأموية ، وبعث عبد الملك الى ابن زياد يقره .

(١) سيدة كاشف : مصر في عصر الولاة ص ٨٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠ .

على ما ولاء عليه أبوه مروان . وتقدم ابن زياد نحو العراق وهدقه
اجلاء ولاية ابن الزبير ، ولكنه اضطر الى أن يغير خطته ، فقد
ظهر في الميدان أعداء جدد لهم يكونوا في حسابان ابن زياد ، وهم
(التوابين) .

فقد ندمت شيعة الكوفة على تخاذلهم عن نصرة الحسين
ابن علي مما أدى الى مصرعه . وندموا على ما أقدموا ، وتابوا ،
وسموا أنفسهم التوابين . وعلم (التوابين) بقدوم ابن زياد الى
العراق ، فرأوا الخروج لقتاله ، وقتل ابن زياد أخذا بثأر
الحسين . والتقى الجيش الأموي بجيش التوابين عند عين الوردية ،
فطلب ابن زياد من التوابين أن يبايعوا لعبد الملك بن مروان ،
وطلب (التوابين) من جند ابن زياد أن يخلعوا عبد الملك ويسلموا
لهم ابن زياد ، ويساعدوهم على اخراج ولاية ابن الزبير واقامة
خلافة علوية . غير أن كل فريق أبى الا أن يقاتل في سبيل الأغراض
التي خرجوا من أجلها ، وانهت معركة الوردية باخفاق التوابين
ومقتل معظمهم .

واستمر ابن زياد في زحفه في بلاد العراق . وكان المختار
ابن أبي عبيد الثقفي قد ظهر حينئذ في بلاد العراق ، ونادى بأنه
وزير وداعية محمد بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، وجمع
حوله فلول التوابين بعد هزيمتهم في عين الوردية ، وأعلن أنه
سيثأر لمقتل الحسين فيقتل قاتله ابن زياد . وخرج المختار وخلفه
الشيعة والموالي ، والتقى بجيش ابن زياد فهزمه وقتله ، وبذلك
وفر المختار على ولاية ابن الزبير أن يلتقوا بالجيش الأموي بقيادة

ابن زياد في معركة حربية . ولكن مصرع ابن زياد وهزيمة جيشه جعل ولاية ابن الزبير في مواجهة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فبدأ صراع بين الفريقين انتهى بانتصار ولاية ابن الزبير واستمرار انضواء العراق تحت لواء ابن الزبير ، وسيظل الأمر على هذا النحو حتى يتقدم عبد الملك بن مروان على رأس جيش كثيف لانتزاع العراق من ولاية ابن الزبير .

مروان يحقق في انتزاع المدينة من الزبير :

أرسل مروان بن الحكم في عام ٦٥ هـ جيشين ، أحدهما بقيادة ابن زياد الى العراق ، والثاني بقيادة حبيش بن دلجة لاستعادة المدينة من نائب عبد الله بن الزبير ، وهو جابر بن الأسود ابن عوف . ولكن جابرا أسرع بالفرار .

وشعر عامل ابن الزبير بالبصرة الحارث بن أبي ربيعة بخرج الموقف ، فبعث بجيش من البصرة نجح في أن يشغل جيش ابن دلجة عن فتح المدينة . وولى ابن الزبير عباس بن سهل على المدينة وأمره بقتال ابن دلجة ، واستطاع الزبيريون القضاء على الجيش الأموي (١) .

وهكذا أسدل الستار على صراع مروان للحركة الزبيرية ، ثم ظهر على مسرح السياسة عبد الملك بن مروان الذي خلف أباه في الخلافة الأموية بدمشق بالشام . كما خلفه في تولى أمر الصراع

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٦٠ .

مع عبد الله بن الزبير خليفة الحجاز الذي ما زال مسيطرا على بلاد العراق .

عبد الملك يواصل صراع ابن الزبير :

ترك مروان بن الحكم لابنه عبد الملك تركة مثقلة بالمتاعب والمصائب . فقد خلف له الدولة الأموية في أسوأ حال . فقد مزقتها العصبية القبلية واجتاحتها حركات سياسية خطيرة كادت أن تعصف بها وتزيلها من الوجود . فكان من واجب عبد الملك أن يقضى على هذه العصبية ويكافح هذه الحركات حتى يصفو الجو ، وتتمهد له الأمور .

وكانت هذه العقبات تتطلب حزما وعزما ورباطة جأش ، وكان عبد الملك على نصيب كبير منها ، ونجح في تيسير دفعة الأمور في الدولة الأموية ، وأعاد للدولة الإسلامية وحدتها وتماسكها ، ولذا فهو بحق المؤسس الثاني للدولة الأموية .

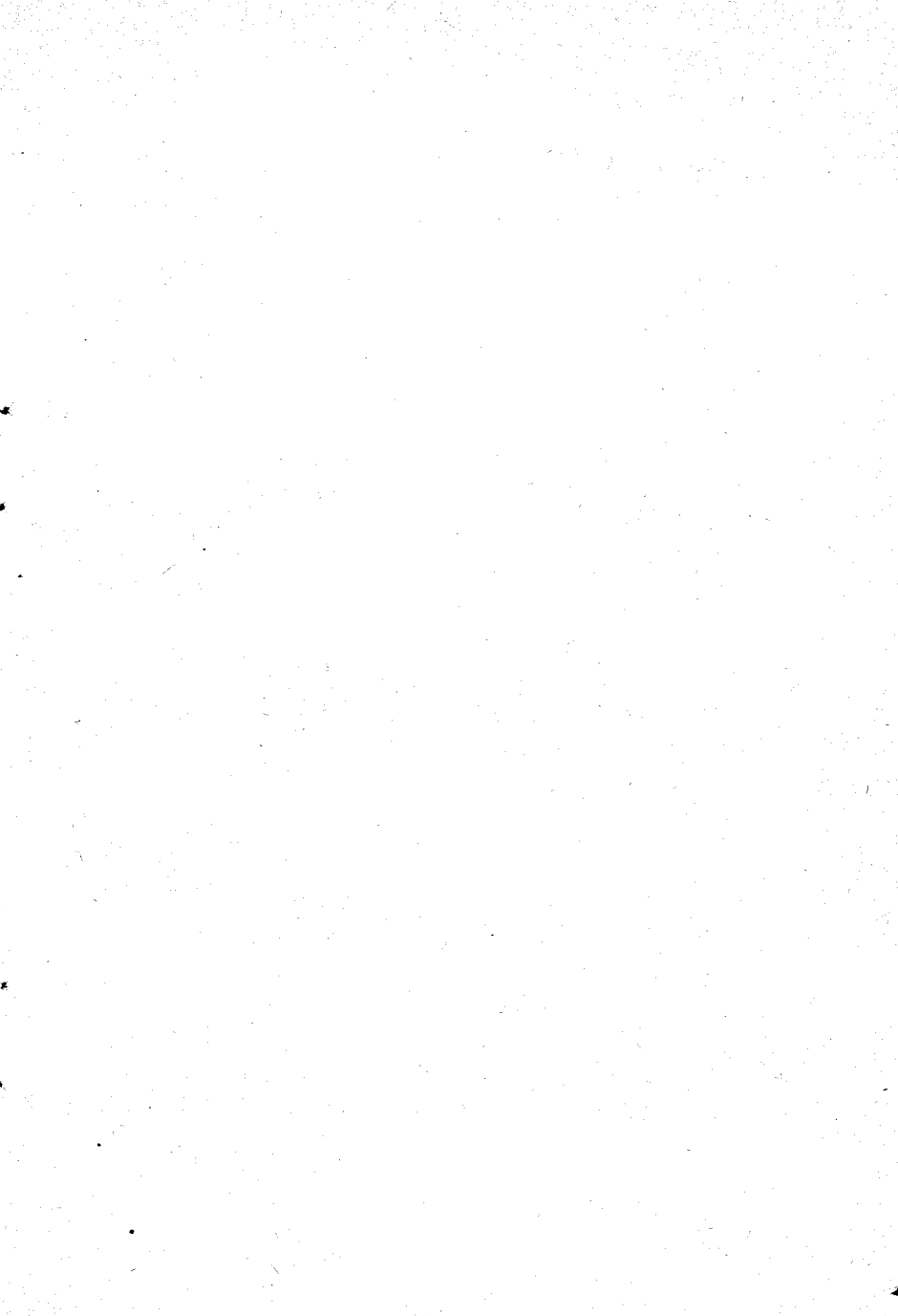
صوّر المؤرخ المسعودي ^(١) عزيمة عبد الملك ورباطة جأشه ، فقال : « وقد كان عبد الملك بن مروان سار في جيوش أهل الشام ، فنزل بطنان ينتظر ما يكون من ابن زياد ، فأتاه خبر مقتله ومقتل من كان معه ، وهزيمة الجيش بالليل ، وأتاه تلك الليلة ثم جاءه خبر دخول نائل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة الى فلسطين ثم جاءه مسير

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٢ .

ملك الروم لاوى بن فلقط ونزوله المصيصة يريد الشام . ثم جاءه خبر دمشق وأن عبيدها وأوباشها ودعاتها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة ، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع وغير ذلك مما نما اليه من المفضعات في تلك الليلة ، فلم يثر عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكا ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لسانا ، ولا أثبت جنانا منه تلك الليلة ؛ تجلدا وسياسة للملوك ؛ فترك اظهار الفشل ، وبعث بأموال وهدايا الى ملك الروم فشغله وهادنه ، وسار الى فلسطين وبها نائل بن قيس على جيش ابن الزبير فالتقوا باجنادين ؛ فقتل نائل بن قيس وعامة أصحابه ، وانهزم الباقون ، ونمى خبر قتله وهزيمة الجيش الى مصعب بن الزبير وهو في الطريق فولى راجعا الى المدينة .

وان رجلا هذه سياسته في التخلص من العقبات التي قد تظهر أمامه تتوقع له أن تتم الأمور له بأسرع مما هو يتوقع . ولذا أصبح عبد الملك خصما لدودا لحركة عبد الله بن الزبير ؛ ودار صراع عنيف بين الخليفتين ، خليفة الشام وخليفة الحجاز . وكان عبد الملك ملما بتاريخ الحركات السياسية التي قامت في بلاد العراق ، وكان يعرف أن كلاً منها تتعارض مع الأخرى في مبادئها ، فتركها تضرب بعضها بعضا ووقف هو موقف المتفرج ، حتى ينتهى دور الصراع بينها فيتولى هو أمر الفائز منها على الآخرين . فقد كفاه ابن زياد خطر التوايين ، وكفاه المهلب

ابن أبى صفرة بأس الخوارج ، وكفاه مصعب بن الزبير قتال
المختار بن أبى عبيد الثقفى . وبقي مصعب بن الزبير ، والى
أخيه ، على مسرح السياسة فى بلاد العراق ، وبدأ صراع عنيف
بينه وبين عبد الملك ، فقد رأى عبد الملك أن ينتزع بلاد العراق
من عبد الله بن الزبير ثم يوجه ضربته الى قلب دولة ابن الزبير
أى بلاد الحجاز .



٨ - موقف الأحزاب الإسلامية من خلافة ابن الزبير

موقف الحزب الهاشمي

موقف حزب التوابين

موقف الخوارج الأزارقة

موقف حزب المختار

موقف الأعراب للإسلاميين من خلافة ابن الزبير

موقف الحزب الهاشمي :

لم يؤيد بنو هاشم حركة عبد الله بن الزبير ، فقد كان الهاشميون يعتقدون أنهم أحق المسلمين بالخلافة ، فعملوا على دفع العلويين منهم ، أى آل على بن أبى طالب فى بداية الأمر الى الخلافة . حتى اذا تكرر اخفاق الحركات العلوية فى العصر الأموى ، بدأ فرع آخر من بنى هاشم وهو الفرع العباسى ، أحفاد العباس بن عبد المطلب ، يسعى الى الخلافة .

سعى الهاشميون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الى تولّى على بن أبى طالب الخلافة . ولكن تولّاها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، وكلهم من غير بنى هاشم ، بل كان عثمان شيخ بنى أمية وهم من أكبر المنافسين لبنى أمية .

وتولى على بن أبى طالب الخلافة ، فأصبح رابع الخلفاء الراشدين . وقامت ضده ثورة تزعمها الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله وعائشة رضى الله عنها . وقد مر بنا الدور الكبير الذى قام به عبد الله بن الزبير فى حرب الجمل . وكان الحسن والحسين ولدى على فى صحبة أبيهما . ولم يخلص عبد الله بن الزبير من أيدي على وأولاده سوى شفاعة عائشة فيه فأخلوا سبيله .

حتى اذا وضعت الحرب أوزارها ، لم يكن في نفوس كل من الفريقين نحو الآخر سوى الحقد والبغضاء . ولكن بنى هاشم انشغلوا عن عبد الله بن الزبير بصراع آخر عنيف ، وهو الصراع مع بنى أمية الذين تزعمهم معاوية بن أبي سفيان . فقد اشتبك على معاوية في موقعة صفين ، حتى اذا قُتل على ، بايع أهل العراق ابنه الحسن بن علي ، وبدأ الصراع بين الحسن خليفة العراق ومعاوية خليفة الشام ، وأخذ عبد الله بن الزبير في الحجاز يرقب الصراع بين الخليفين ؛ ويتحين الفرص ليدعو لنفسه بالخلافة في بلاد الحجاز .

وأدى الصراع المرير الذي دار بين الأمويين والهاشميين ، الى أن تناسى كل من بنى هاشم وعبد الله بن الزبير عداؤهم القديم ورأوا جميعا أن يتكاتفوا ويتعاونوا ضد معاوية وبنى أمية .

ولما تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية ، تزعم الحسين ابن علي حركة معارضة بنى هاشم للحكم الأموي . وبدأ التآلف والتآزر بين الحسين وعبد الله بن الزبير ، وقد نجحا في تنظيم حركة المعارضة لمعاوية حين طلب البيعة بولاية العهد لابنه يزيد .

وبعد وفاة معاوية ، تولى الخلافة يزيد . وقد مر بنا كيف اتفق الحسين وابن الزبير على الامتناع عن البيعة ليزيد ، وعلى الخروج من المدينة الى مكة .

وفي مكة ، أخذ كل من الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير في جمع الأنصار وتكوين حزب معارض للدولة الأموية . ولم يجد الحسين مشقة في جذب المسلمين اليه ، فقد توافدوا عليه يعلنون

ولاءهم وتأييدهم ، فهو حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم وابن
على بن أبي طالب . وشعر ابن الزبير بمنافسة الحسين ، فرأى أن
يصنع حركته السياسية بصبغة دينية ، فسمّى نفسه (العائد
بالبيت) ، فكان مجلسه دائما عند الكعبة حيث يلتقى بالوافدين
عليها . ولكن ابن الزبير استمر على صداقته ومودته للحسين ،
فكان يتردد دائما على مجالسه ، ويشاركه آراءه ودعوته .

ثم كانت مأساة كربلاء في عهد يزيد بن معاوية ، حيث استشهد
الحسين بن علي وبعض العلويين . وكانت هذه الفاجعة ضربة
عنيفة أصابت الحزب الهاشمي ، فقد فقّد هذا الحزب زعيمه
وقائده . فقد كان باقي زعمائه مثل عبد الله بن العباس بن عبد المطلب
وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ومحمد بن علي بن أبي طالب
(المعروف بابن الحنفية) لا يطمعون في تولي الخلافة .

رأى عبد الله بن الزبير أن من صالح حركته أن يستمر العداء
ناشبا بين بنى أمية والحزب الهاشمي . فقد كان لبني هاشم منزلة
كبرى في قلوب المسلمين ونفوسهم ، وكانت معارضتهم للدولة
الأموية مما يفت في عضدها . ورغم أن الخليفة يزيد بن معاوية
قد أمر واليه عبيد الله بن زياد بمنع الحسين بن علي من الرحيل
الى العراق مما أدى الى فاجعة كربلاء ، الا أن يزيد رأى أن يهادن
البيت الهاشمي ويستميلهم ويعوضهم عن خسارتهم الفادحة ، حتى
يهدىء من ثورتهم وثورة المسلمين في كل مكان ، فقد سخطوا
على يزيد واعتبروه مسئولا عن مصرع الحسين .

بدأ يزيد بن معاوية في تنفيذ هذه السياسة ، فتبرأ من قتل الحسين ، وألقى بكل المسؤولية على عاتق ابن زياد ، وأعلن أن ما حدث للحسين كان بغير علمه وبدون رغبته . ورأى يزيد أن يستميل إليه أحد زعماء بنى هاشم ، ووجد ضالته المنشودة في شخص محمد بن علي بن أبي طالب ؛ المعروف بابن الحنفية .

كتب يزيد رسالة رقيقة الى محمد بن الحنفية ساق فيها المديح له والثناء عليه ، ودعاه لزيارته في دمشق بالشام . واستشار ابن الحنفية ولديه صغير وعبد الله في أمر هذه الدعوة فنهاه عن السفر . ولكنه رأى قبول الدعوة ، فشد رحاله الى دمشق .

وفي دمشق ، أحاط يزيد ابن الحنفية بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وأعدق عليه الصلات والجوائز ، ولذا سارع ابن الحنفية بالبيعة له بالخلافة . وأراد يزيد أن يمحو ما في قلب ابن الحنفية من ألم وحقد لمصرع الحسين على يد واليه ابن زياد ؛ فأخذ يتبرأ من قتله ويستمطر الرحمات عليه . واستفاد يزيد من بيعة ابن الحنفية له ، فهو زعيم من زعماء بنى هاشم ؛ ورأس من رؤساء العلويين .

عاد ابن الحنفية الى بلاد الحجاز ، وأعلن لأهلها بيعته ليزيد ابن معاوية ، وأخذ يمتدح يزيد على مسمع من أهل الحجاز ؛ مما ألم عبد الله بن الزبير الذي كان يسعى الى هدم خلافة يزيد ؛ ويتهمة بقتل الحسين ، ولكن هذا هو محمد أخى الحسين يبايع ليزيد ، مما يضيع على ابن الزبير جهوده ومساعيه .

ووقف أحد زعماء الحزب الهاشمي من حركة عبد الله بن الزبير موقفا سلبيا ، فلم يعلن تأييده لها ، وهو عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب . وحاول ابن الزبير مرات كثيرة أن يفوز بتأييد ابن عباس ، دون جدوى . وحمد يزيد لابن عباس امتناعه عن تأييد ابن الزبير ، فبعث إليه كتابا يشكره فيه على موقفه من ابن الزبير ، وقد ظن أن ذلك طاعة له . ودعا يزيد ابن عباس وبني هاشم الى التمسك ببيعتهم له ، ومناه في ختام رسالته بالأمانى والوعود .

لم يكن امتناع ابن عباس عن تأييد ابن الزبير ولاء منه ليزيد . فقد كان مقتنعا بأحقية بنى هاشم دون غيرهم بالخلافة . فكتب ابن عباس رده على رسالة يزيد ، فأخبره أنه في غنى عن حمده له وثنائه عليه ، وأن ما يمينه به من مال وصلات انما هو حق لهم ، وهو قليل من كثير كانوا يستحقونه ، ثم ذكره في ختام رسالته أنه لا ينسى أنه قتل الحسين بن علي ! (١) .

ولمس يزيد امتناع ابن عباس عن تأييده وطاعته ، فرأى أن يقصر اعتماده على ابن الحنفية في استمالة قلوب بنى هاشم لخلافته . وكان ابن الحنفية عند حسن ظن يزيد به . وبدا ذلك واضحا عند عودة وفد المدينة من دمشق ، فقد وقف عبد الله ابن مطيع وابن حنظلة يحثون أهل المدينة على خلع يزيد ، وأخذوا يشتمونه ويسبونه بأقذع الألفاظ . فوقف ابن الحنفية من يزيد

موقف المدافع ، فأخذ يبعد عنه كل اتهام وجهوه اليه ، فنفى عنه أن يشرب الخمر وشهد أنه أقام عنده أياما فلم يره يشربها ، ثم استمر في دفاعه فقال : « ما رأيت منه ما تذكرون ، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيتته مواظبا على الصلاة متحريرا للخير يسأل عن الفقه ملازما للسنّة » (١) .

ظن أهل المدينة أن ابن الحنفية يدافع عن يزيد لأنه لا يريد البيعة لعبد الله بن الزبير . فعرضوا عليه أن يولوه عليهم ، فرفض عرضهم ، كما رفض أن يشاركهم في قتال يزيد ، حتى اذا هددوه بأنهم سيكرهوه على القتال ، ترك المدينة ورحل عنها الى مكة . ووصف المؤرخ البياسي الموقف بين ابن الحنفية وابن الزبير وأهل المدينة ، فقال : « واجتمع أهل المدينة في المسجد وخلعوا يزيد ، وأظهروا البراء منه ، وأجمعوا على ذلك ، وامتنع عن ذلك عبد الله بن عمر ، ومحمد بن علي بن أبي طالب ، وجرى من محمد خاصة وبين أصحاب ابن الزبير فيه قول كثير حتى أرادوا إكراهه على ذلك ، فخرج الى مكة . وكان هذا أول ما هاج الشر بينه وبين ابن الزبير » .

ثم كانت موقعة الحرة ، حينما غزا جيش يزيد المدينة ونكلوا بأهلها شر تنكيل وقد هب المسلمون جميعا للدفاع عن مدينة

(١) ابن طولون : إقيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط)

ورقة رقم ٥ .

(٢) البياسي : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام

(مخطوط) ج ٢ ورقة رقم ٣٣ .

الرسول المنورة . ولكن بنى هاشم ووقفوا من الجيش الأموي موقفا سلبيا ، فيذكر المؤرخ ابن طولون : « لم يخرج أحد من آل طالب ولا من بنى عبد المطلب في وقعة الحرة » (١) . وكان ابن عباس وابن الحنفية خلال الغزو في مكة .

وجاء الخبر ينعي الخليفة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، فدعا ابن الزبير الناس للبيعة له بالخلافة ، ويجمع المؤرخون أن معظم أهل الحجاز أقبلوا عليه يبايعونه ، وسيطر على معظم ولايات الدولة العربية الاسلامية واشتهر أمره بين المسلمين . وطلب ابن الزبير البيعة من ابن عباس وابن الحنفية فقلالا له : حتى تجتمع لك البلاد ويتسق لك الأمر وما عندنا خلاف (٢) .

وكان امتناع ابن الحنفية عن البيعة لابن الزبير سببا في نشوب عداء شديد بينهما . وقد كان ابن الزبير حريصا على الفوز ببيعته ، باعتباره زعيما لبنى علي بن أبي طالب ، ولبنى هاشم عامة . ولذا بدأ ابن الزبير يجهر بعدائه لابن الحنفية ، ويهاجمه علنا .

ودافع ابن الحنفية عن نفسه ، فوقف يخطب الناس : يا معشر قريش ، شأهت الوجوه ، أينتنقض عليّ وأتم حضور ؟ ان عليّا كان سهما صادقا أحد مرامي الله على أعدائه يقتلهم لكفرهم ، ويهرعهم ماكلهم ، فثقل عليهم فرموه بصرفة الأباطيل . وانا معشر له على نهج من أمره بنو الحسين من الأنصار . فان تكن لنا الأيام

(١) ابن طولون : قيد الشريد (مخطوط) ورقة ٥ .

(٢) ابن عساکر : التاريخ الكبير ج ٧ ص ٤٠٨ .

دولة تنشر عظامهم وتحسر عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية ،
وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون !!

وعاد ابن الزبير يهاجم ابن الحنفية ، ولعله يقصد أن يتخلى
ابن الحنفية عن تأييد الدولة الأموية والاقبال على بيعته . قال
ابن الزبير : عذرت بنى الفواطم ، فما بال بنى حنيفة ^(١) ؟ فأسرع
ابن الحنفية يقاطعه ويقول : يا ابن رومان ، ومالى لا أتكلم ؟
أليست فاطمة بنت محمد حليلة أبى وأم اخوتى ؟ أو ليست فاطمة
بنت أسد بن هاشم جدتى ؟ أو ليست فاطمة بنت عمرو بن عائذ
جدة أبى ؟ أما والله لولا خديجة بنت خويلد ما تركت فى بنى أسد
عظما الا هشمته ، وإن نالتنى فيه المصائب صبرت ^(٢) ؟ !

ورأى ابن الزبير أن يبعد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس عن
مكة ، حتى لا يتأثر أهل مكة بأرائهما فى الدولة الأموية وعبد الله
ابن الزبير . فخرج ابن الحنفية الى ناحية رضوى ، كما خرج
ابن عباس الى الطائف ، وما لبث ابن عباس أن مات فى سنة ٦٨ هـ .
ومهما يكن من أمر ، فقد كان موقف ابن الحنفية من حركة
عبد الله بن الزبير سببا فى ظهور حزب شيعى جديد هو حزب
الكيسانية . وهم الذين « وردوا الى ابن الحنفية .. وهم القائلون
بإمامة محمد بن الحنفية » ^(٣) .

(١) كان ابن الحنفية ابنا لعلى بن أبى طالب من زوجة من
بنى حنيفة ، أى أنه لم يكن ابنا لفاطمة بنت الرسول .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤ .

موقف حزب التوايين :

كانت الحركة الزيرية تتلمس قيام حركة تعمل على مناوأة الأمويين . ولذا كان قيام حزب التوايين ومناهضة الدولة الأموية من العوامل المساعدة لحركة ابن الزبير ، ولذا مد الزيريون أيديهم الى التوايين ، رغم اختلاف أهدافهم وأغراضهم ، وان جمعهم كراهيته ومعارضتهم للدولة الأموية . فقد كان الزيريون يعملون على قيام خلافة زيرية يتولاها عبد الله بن الزبير في بلاد الحجاز . أما (التوايين) فقد عملوا على قيام خلافة علوية يتولاها أحد أبناء على بن أبي طالب في بلاد العراق .

رأت الشيعة بالكوفة بعد أن تخلوا عن نصره الحسين « أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله ، أو القتل فيه » (١) ؛ وصاحوا عند قبر الحسين طالبين التوبة والمغفرة من الله ، وسموا أنفسهم التوايين . وتزعم حركة التوايين خمسة من زعماء الشيعة هم : سليمان بن صرد الخزاعي وهو من صحابة الرسول ، والمسيب ابن نجبة الفزارى ، وعبد الله بن سعد بن ثعلبة الأزدي ، وعبد الله ابن والى التميمي ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وكلهم من خيار أصحاب على بن أبي طالب (٢) . ونظرة واحدة الى هذه الأسماء تعطينا فكرة عن القبائل التي ساهمت في هذه الحركة التوايية .

اجتمع هؤلاء الزعماء في منزل سليمان بن صرد وتناوبوا الخطابة ، وأعلنوا ندمهم على تخاذلهم في الدفاع عن الحسين ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٧ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٤٦ .

وأقسموا على الأخذ بثأره ولو أدى ذلك الى قتلهم . وعلى الرغم من أن حركتهم بدأت منذ قتل الحسين بن علي سنة ٦١ هـ الا أنهم وأوا كتمان مبادئهم واتفقوا على الخروج الى النخيلة في آخر ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ ولكنهم سرعان ما قدموا هذا الموعد الى شهر ربيع الأول من سنة ٦٤ هـ حين علم زعماءهم بوفاة يزيد ابن معاوية (١) .

قضى حزب التوايين الفترة بين ٦١ — ٦٤ هـ في الاستعداد للقتال وجمع الأسلحة واستمالة الناس . وكتب ابن سرد الى شيعة المدائن ، وشيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين فأجابوه جميعهم الى ما دعاهم اليه (٢) ثم كانت وفاة يزيد ابن معاوية وما تبعها من انقسام بنى أمية فاعتبرها (التوايين) نصرا لهم (٣) .

انشرح صدر عبد الله بن الزبير لقيام حركة التوايين ، وهى حركة عراقية صميمة . فقد رأى أن التوايين سيشغلون الأمويين عن قتاله ، ويشيرون الاضطرابات فى العراق مما يمهد لانتشار الدعوة الزبيرية فى العراق . وولى ابن الزبير على الكوفة عبد الله ابن يزيد الأنصارى ، كما ولى خراجها ابراهيم بن محمد بن طلحة ابن عبيد الله (٤) . وكان على هذين الواليين أن يحددا موقعهما

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٤٦ .

(٤) الطبرى ج ٧ ص ٥٣ .

من حركة التوابين التي ضمت الشيعة ومعظم أهل العراق . وكانت أهداف الحركتين متشابهة ، فهم جميعا يعملون على زوال الحكم الأموى ، لكن اختلفت الوسائل .

عمل عبد الله بن يزيد على الاستفادة من حركة التوابين ، فقد كان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يشعروا في الكوفة ، فخرج ابن يزيد الى المسجد ، ورأى أن يوجههم الى عدوهم الحقيقي بعيدا عن الكوفة فيأمن بذلك شرهم ؛ فقال : « ما أنا قتلت الحسين ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ، فان كان هؤلاء القوم آمنين فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا الى قاتل الحسين فقد أقبل اليهم وأنا لهم على قائله ظهر ، هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأما لئلكم قد توجه اليكم في عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضا فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رقعتم » (١) . وهكذا استفاد ابن الزبير من قوة التوابين فقاموا عنه بصدد ابن زياد الذى قدم فى الحقيقة للقضاء على الدعوة الزبيرية فى العراق ، واعادة هذه البلاد الى الحضيرة الأموية .

عزم ابن صرد على الخروج للأخذ بثأر الحسين ، وأخذ يستعرض جيشه ولكنه وجده قليل الجند ، فبعث يدعو الناس للخروج معه ، فلم يستجب لندائه سوى أربعة آلاف . وأقام

سليمان ثلاثة أيام بمكان يسمى النخيلة على مقربة من الكوفة يدعو المتخلفين عنه ، ولكن لم يقدم عليه أكثر من ألف رجل آخرين (١) .

سار (التوايين) حتى بلغوا قبر الحسين ، وهناك استرحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له . ثم ساروا الى الأنبار ثم الى قرقيسيا وكان بها زفر بن الحارث الكلابي ، عامل ابن الزبير ، فقدم لهم المال والمؤن وعرض عليهم البقاء في قرقيسيا وتوحيد جهودهم ليسهل لهم القضاء على ابن زياد ، ولكن ابن صرد أصر على المسير لقتال ابن زياد (٢) .

وفي طريق ابن زياد الى قرقيسيا علم بوفاة مروان بن الحكم وتولية ولده عبد الملك ، الذي أرسل اليه يقره على ما ولاه عليه أبوه مروان ، فسار ابن زياد حتى لقي التوايين عند عين الوردية ، فطلب منهم أن يبايعوا لعبد الملك فرد عليه ابن صرد طالبا تسليم نفسه ، كما دعا ابن صرد ضد الشام الى خلع طاعة عبد الملك ومساعدة التوايين في اخراج عمال ابن الزبير من العراق وتسليم الأمر الى أهل بيت الرسول (٣) . غير أن كل فريق أبى الا أن يقاتل في سبيل الأغراض التي خرجوا من أجلها . و انتهت معركة عين الوردية بمقتل سليمان بن صرد ومعظم أصحابه . لماذا لم يستنفد عبد الله بن الزبير من حركة التوايين ؟

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٧٣ .

(٣) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١ .

يرجع ذلك الى عدة عوامل . أولاها ضعف التوايين من الناحية العسكرية وعدم تقديم ابن الزبير المساعدة الحربية لهم . ولو كان التوايين على شئ من القوة العسكرية لنجحوا في هزيمة جيش ابن زياد والقضاء على الجيش الأموي ، مما يخلص الحركة الزبيرية من عدو لدود . ولم يكن (التوايين) منافسين لابن الزبير ، فهم لم يخرجوا طمعا في خلافة ، أو سعيًا وراء عرض دنيوى ، بل كان هدفهم الرئيسى الانتقام من قتلة الحسين بن على وزلزلة الخلافة الأموية . وقد نادى (التوايين) بذلك فقالوا : « أنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا ، إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنت رسول الله نبيتنا صلى الله عليه وسلم » (١) .

ومن عوامل ضعف التوايين ، تخاذل بعض أنصارهم ، فقد خرج سليمان بن صرد وقد ظن أن جنده قد بلغوا ستة عشر ألفا ، حتى اذا أحصاهم وجدهم نحو أربعة آلاف جندى . ومن عوامل ضعفهم أيضا ، تنافسهم على طلب الزعامة ، مما فرق شملهم ، وبعثر جهودهم .

وكان جديرا بابن الزبير أن يمد التوايين ببعض جنوده ليتقوا بهم ، وأن يستحث أنصاره بالعراق أن يساعدوا التوايين ، فقد كان انتصارهم يعود بالفائدة المحققة على الحركة الزبيرية . كما كنا نتوقع أن يمدهم ببعض المال الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه ، والناس عبيد الدرهم والدينار . وقد عرف زفر بن الحارث

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٤ .

حاجتهم فمدّهم ببعض المال والمؤن ، فكان جديرا بأبن الزبير أن يحذو حذو عامله زفر . وقد اعترف سليمان بن صرد بقره في المال ، وأنه ليس عنده ما يهبه للناس كما كان يفعل الخليفة الأموي ، فقال : « أيها الناس ، من كان خرج يريد الدنيا فوالله ما يأتي فيء فأخذه وغنية نغتنمها ، ما خلا رضوان الله . وما معنا من ذهب ولا فضة ولا متاع ما هو الا سيوفنا على عواتقنا وزاد قدرة البلغة ، فمن كان ينوى هذا فلا يصحبنا » .

ومن عوامل ضعف التوايين موقف المختار بن أبي عبيد الثقفي منهم . فقد قدم المختار الى الكوفة في نفس الوقت الذي قدم فيه عبد الله بن يزيد عاملا لابن الزبير . وبذل كل من الرجلين جهوده لتحقيق أهدافه الخاصة ، فكان ابن يزيد يهدف الى أخذ البيعة من أهل الكوفة لابن الزبير ، بينما أراد المختار أن يجمع الناس حوله فيكون منهم حزبا قويا يساعده على الوصول الى النفوذ والسلطان .

وكانت الدعوة لابن الزبير قد انتشرت سريعا ، فخاف المختار من انهيار آماله وضياع جهوده ، ولكنه كان في حاجة الى أنصار يشد بهم أزره ، وكان يدرك أنه في العراق موطن الشيعة ، فرأى أن يستعين بهم ويعتمد عليهم ، ولكنهم سرعان ما وجدهم قد اندمجوا في حركة التوايين ، فكان عليه أن يمزق شمل هذه الحركة ، فبدأ يشن الناس عن عزمهم في الخروج مع ابن صرد لقتال ابن زياد « فكان المختار اذا دعا الشيعة الى نفسه والى الطلب بدم الحسين قالوا : هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة

وقد أطاعته الشيعة وانقادت له وولته أمرها . فيقول : ان سليمان رجل لا علم له بالحروب وسياسة الرجال . فلم يزل حتى انشعبت اليه طائفة منهم » (١) .

كان ابن الزبير يعلم أنه في حاجة الى تأييد بلاد العراق ، التي كانت حينئذ مورد المال والرجال كما كان يعلم أن معظم أهل العراق شيعة على بن أبي طالب ، وأنهم لم يغضبوا لشيء مثلما غضبوا لمصرع الحسين بن علي في كربلاء . وقد ظهرت حركة التوايين للأخذ بثأر الحسين من قتلته ، ولذا كان علي ابن الزبير أن يجهر برغبته في الثأر للحسين ، وأن يكتب لولاته بالعراق بذلك .

ولكننا ننصف عبد الله بن يزيد ، والى ابن الزبير ، فقد شجّع أهل العراق على الخروج لقتال عبيد الله بن زياد قائد الجيش الأموي ، ولكنه لم يساعدهم ماديا أو أدبيا ، ولذا كان تأييد والى ابن الزبير للتوايين تأييدا سلبيا . يتضح هذا الموقف السلبي في خطبة ابن يزيد : « ان هؤلاء القوم — أى التوايين — يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ظاهرين وليسيروا الى من قاتل الحسين ، فقد آقبلهم عليهم — يعنى ابن زياد — وأنا لهم ظهير . هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل أخباركم وأمثالكم قد توجه اليكم ، وقد فارقه على ليلة من جسر منبج ، فالقتال والاستعداد اليه أولى من أن

تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضا فيلقاكم عدوكم وقد
ضعفتم وتلك أمنيته ، وقد قدم عليكم أعدى خلق الله لكم ، من
ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتال أهل العفاف
والدين ، هو الذى من قبله أتيتم والذى قتل من تنادون بدمه ،
فقد جاءكم فاستقبلوه بجدكم وشوكتكم واجعلوها ؛ ولا تجعلوها
بأنفسكم ، انى لكم ناصح » (١) .

وهكذا قصر ابن يزيد ، والى ابن الزبير ، مساعدته على
النصح والتحذير كما أبدى ابن يزيد ترددا واضحا فى موقفه من
التوايين . وكان جديرا به أن يتبع إحدى سياستين . اما أن يمد
التوايين بالمال والجند والسلاح ، وكان يسيطر على بيوت الأموال ،
وبذلك يصبح (التوايين) فى حالة تمكنهم من الانتصار على عبد الله
ابن زياد . أو يحاول اثناء التوايين عن عزيمتهم فى الخروج ، وينصح
لهم بالتريث حتى يصل ابن زياد الى العراق ، فيخرج ابن يزيد
بجيوشه يؤازره (التوايين) وأهل العراق ، فتسهل عليهم هزيمة
عدوهم . ولكن ابن يزيد تردد بين هاتين السياستين ، ففراهم فى
أول الأمر يحضهم على الخروج دون أن يساعدهم ، حتى اذا بدأوا
رحلتهم ، شعر بخطئه فبعث اليهم رسولا يطلب منهم العودة ، لأنه
شعر بضعف التوايين وقلة عددهم ، فخاف عليهم من الهزيمة فى
وقت هو فى حاجة الى انتصارهم .

بعث ابن يزيد اليهم يحثهم على العودة ويحذرهم من المخاطرة

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٦٩ .

بـالـخـروج ، فيقول في كتابه لهم : « ان المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يغشه ، وأنتم اخواننا وأهل بلدنا وأحب أهل مصر خلقه الله إلينا فلا تفجعونا بأنفسكم ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا . أقيموا معنا حتى تيسر وتهيأ ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » (١) .

ولكن سليمان بن سرد زعيم التوايين خيَّب آمال عبد الله ابن يزيد فرفض دعوته لهم بالرجوع وصمم على الخروج لقتال ابن زياد ، وحاول ابن يزيد وابراهيم بن محمد بن طلحة اغراء سليمان فعرضا عليه أن « يقيم معهما حتى يلقوا أهل الشام على أن يخصاه وأصحابه بخراج جوخي خاصة لهم دون الناس . فقال لهم سليمان : اننا ليس للدنيا خرجنا » (٢) .

لم يوفق عبد الله بن زياد في اختيار ابراهيم بن محمد ابن طلحة ليتولى خراج الكوفة ، ولينوب عنه في أخذ البيعة من أهلها . فقد كان معظم أهل العراق من شيعة علي بن أبي طالب ، وكانوا لا يزالون يذكرون مناصبة طلحة بن عبيد الله ، جد ابراهيم ، العداء لعلی في موقعة الجمل . وكان جديرا بابن الزبير أن يختار واليا يرضى أهل العراق عنه ، أو يقف منهم موقفا محايدا ، وخاصة أن ابراهيم بن محمد بن طلحة قد وصل الى العراق في وقت ظهر فيه حزب التوايين وهي حركة علوية شيعية .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٦ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٥٦ .

كما كان هناك في بلاد العراق حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان يدعو الى اقامة خلافة علوية ، وينشر بين الناس أنه وزير محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية . ولذا لم يكن هناك مفر من حدوث صدام عنيف بين ابراهيم بن محمد بن طلحة وأهل العراق . ونسى ابراهيم أنه نائب ابن الزبير في بلاد العراق ؛ وأن من واجبه أن يعمل لمصلحته قبل كل شيء ، وأن يتناسى حقده القديم لشيعه علي بن أبي طالب .

ولذا كان ابراهيم بن محمد بن طلحة غير جدير بثقة عبد الله ابن الزبير فيه . وبدا هذا واضحا في سياسته . فحينما خطب ابن يزيد في الناس خطبته التي أشرنا اليها ، والتي هدأ فيها من ثورة التوابين وأراد أن يوجهها الى قتال ابن زياد بدلا من خروجهم عليه ، أبدى ابراهيم غضبه وسخطه على موقف ابن يزيد ، وأعلن عدم موافقته على هذه السياسة ، فصاح والحماسة تملؤه ، مهددا ومتوعدا ، « أيها الناس ، لا يغرنكم عن السيف والغشم مقالة هذا المداهن المخادع — يقصد ابن الزبير — والله لئن خرج علينا خارج لنقتله ولئن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده ، ولنأخذن الحميم بالحميم والعريف بما في عرافته ، حتى يدينوا للحق ويدلوا للطاعة » (١) . لم يرض (التوابين) عن مقالة ابراهيم ، فقام أحد زعمائهم وهو المسيب بن نجبة فقاطعه وقال : « يا ابن الناكثين أنت تهددنا

إسيفك وعشمتك ، أنت والله لأذل من ذلك . انا لا نلومك على بغضنا ، وقد قتلنا أباك وجدك . والله انى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرائى أهل هذا المصر حتى يثلثوا بك جدك وأباك . وأما أنت أيها الأمير — يعنى ابن يزيد — فقد قلت قولاً سيديداً ، وانى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحا لك ، وقابلاً قولك » (١) .

ووقف زعيم آخر للتوايين يعارض حديث ابراهيم وينهره ، فقال : « ما اعتراضك يا أخا بنى تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ، فوالله ما أنت علينا بأمر ولا لك علينا سلطان . انما أنت أمير جزية . فأقبل على خراجك ، فلعمر الله لئن كنت مفسداً ما أفسد هذه الأمة الا والدك وجدك الناكثان ، فكانت بهما اليدان ، وكان عليهما دائرة السوء » (٢) .

اتخذ عبد الله بن يزيد موقفاً ضعيفاً من ابراهيم بن محمد ابن طلحة ، وسمح له بأن يتحدث بلسانه بما يضر بالحركة الزبيرية ومصالح ابن الزبير بالعراق ، وبما يثير مشاعر أهل العراق ، وكان ابن الزبير فى حاجة الى تأييدهم ومناصرتهم . ولم يهتم ابن يزيد بتهدئة ثورة أهل العراق بعد أن أثارها ابراهيم ، وكان عليه أن يشكوه الى خليفته ابن الزبير حتى يحد من غلوائه . ولكن ابن يزيد تمادى فى سياسة الضعف ، فأبدى خوفه من غضب ابراهيم عليه ، فقصدته يعتذر اليه ويطلب الصفح منه . فيقول

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٥ .

ابن الأثير (١) : « نزل الأمير من على المنبر ، وتهده ابراهيم بآته يكتب الى ابن الزبير يشكوه ، فجاءه عبد الله في منزله واعتذر اليه قبل عذره » .

وهكذا كان ضعف عبد الله بن يزيد ، وسوء اختيار ابراهيم ابن محمد بن طلحة ؛ سببا في انقضاء كثير من أهل العراق عن دعوة عبد الله بن الزبير بعد اقبال عظيم منهم عليها ، وضياح فرصة استفادة ابن الزبير من حركة التوائين ، وكان من الممكن أن تكون سلاحا ماضيا في يد عبد الله بن الزبير .

موقف الخوارج الأزارقة :

كان الخوارج يمثلون النزعة البدوية بصراحتها وجرأتها ، فهم لا يعترفون بحق قريش في الخلافة ، ولا يقبلون مبدأ الوراثة الذي سار عليه الخلفاء الأمويون ، وهم يريدون انتخابا عاما يشمل جميع المسلمين . وشاركت القبائل العربية الخوارج في سحقهم على الأمويين ، فرأت أن انتصار الأمويين انتصار جديد لقريش على سائر العرب (٢) . وقد نادى الخوارج بتكفير مرتكب الكبيرة ، وكانوا يرمون من وراء ذلك الى محاربة الأمويين ، مما جعل الدولة الأموية . تحاربهم بسيف الدين وتقارعهم بحجج الاسلام . ولم يرض الخوارج الذين عرفوا بالزهد والتقوى عن انصراف بعض الخلفاء الأمويين الى اللهو وانغماسهم في الترف ،

(١) الكامل ج ٤ ص ٦٩ .
(٢) الدورى : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص ٧٥ .

ولذا استقر رأيهم على العمل للعودة الى العهد الاسلامى الاول ؛ عهد المساواة والاخاء ، وأثاروا في وجه الخلافة الأموية الفتن والقتال في أطراف الدولة العربية الاسلامية . ومما زاد في خطورة الخوارج أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحّد كلمتهم وتجمع شملهم .

كانت تعاليم الخوارج الأولى سياسية محضة ، تنحصر في رأيهم في التحكيم والخلافة ، لكنهم سرعان ما مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية (١) . ويرجع ذلك الى انقسام الخوارج الى عدة فرق وكان ذلك بسبب اختلاف زعمائهم في مبادئهم وتنافسهم على الزعامة . فقد بدأ حزب الخوارج محدود العدد والقوة والمال ، ولكن ما كاد أمره يستفحل ويستشهد زعماءه البارزون ، حتى برز رجال الصف الثاني ، وكل منهم حريص على القيادة . وانقسمت الخوارج تبعا لذلك ، والتفت كل فريق حول واحد من هؤلاء الزعماء ، وخير دليل على ذلك أن فرق الخوارج كانت تعرف بأسماء زعمائها لا بمبادئها ومذاهبها .

انقسمت الخوارج الى عشرين فرقة وفرقة الأزارقة هي التي تهمننا في بحثنا هذا عن عبد الله بن الزبير . وهي أقوى هذه الفرق وأكثرها عددا ، وهم أتباع نافع بن الأزرق الحنفى (٢) . وقد نادت هذه الفرقة بثمانية مبادئ : أولها تكفير على وعثمان ، وطلحة والزبير وعائشة وعبد الله بن عباس وسائر من انضم اليهم ،

(١) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٣١٠ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٨٥ .

واعتقادهم بتخليدهم في النار . وثانيها تكفير القعدة عن القتال
ومن لم يهاجر اليهم . وثالثهم اباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم .
ورابعهما اسقاط الرجم عن الزاني حيث لم يذكره القرآن ،
واسقاط حد القذف عن قذف المحصنين من الرجال مع وجوب
الحد على قاذف المحصنات من النساء . وخامسها الحكم بأن أطفال
المشركين في النار مع آبائهم . وسادسها أن النقية غير جائزة في
قول ولا عمل . وسابعها أنه من الجائز أن يبعث الله تعالى نبيا يعلم
أنه يكفر بعد نبوته أو كان كافرا قبل البعثة ، ومن جوز من الأمة
الكبائر والصغائر على الأنبياء اعتبروا كافرين . وثامن هذه
المبادئ أن من ارتكب كبيرة من الكبائر فهو كافر وخارج عن
الاسلام ومخلد في النار ، وعللت الأزارقة قتلهم الأطفال بأنهم
« اذا كبروا كانوا مثل آبائهم » (١) .

ترجع صلة ابن الزبير بهؤلاء الخوارج الأزارقة ، في وقت
كانت الدولة الأموية في أوج مجدها ، وعبد الله بن الزبير في محنة
وموقف حرج ، يوم بعثت الدولة الأموية جيشا كثيفا بقيادة
الحصين بن نمير لغزو ابن الزبير في الكعبة ومكة . وكان ابن
الزبير يتلمس المساعدة والمعونة ، ليوافقه الأمويين . وفي ذلك
الوقت ، كان هؤلاء الخوارج يقاسون من شدة عيب الله بن زياد
الوالي الأموي على البصرة ، فقد اضطهدهم وطاردهم ، وكانوا
أضعف من أن يقاوموه ، فقد كانت الدولة الأموية في ذروة قوتها .

(١) الاصبهاني : الاغانى ج ٥ ص ٢٠٤ .

قرأوا أن يرحلوا الى ابن الزبير عدو الأمويين ، ليتكاتفوا معه على رد عدوهم المشترك ، وليزودوا عن الكعبة ومكة .

تقدم نافع بن الأزرق الى أتباعه الخوارج ينصحهم بالرحيل الى عبد الله بن الزبير ، فقال : « ان الله قد أنزل عليكم الكتاب وفرض عليكم فيه الجهاد ؛ واحتج عليكم بالبيان ، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم وأولو العدى والغشم ، وهذا من قد ثار بمكة فأخرجوا بنا نأتى البيت ونلق هذا الرجل — أى ابن الزبير — فان يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وان يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا ونظرنا بعد ذلك فى أمرنا » (١) .

قدم الخوارج الأزارقة على ابن الزبير ، وكان فى حاجة الى مساعدتهم ومؤازرتهم ، ولذا رحّب بهم « وأنبأهم أنه على مثلاً رأيهم من غير تفتيش ، فقاتلوا معه أهل الشام حتى مات يزيد ابن معاوية وانصرف أهل الشام » (٢) .

وفى الحق ، قاتل الخوارج فى جانب ابن الزبير بحماسة واستماتة ، وكان لهم فضل كبير فى تدعيم قوته الحربية . فقد امتاز الخوارج بالشجاعة والتمسك بمبادئهم فضلا عن حرصهم على مناهضة الأمويين دون أن يكثرثوا بالصعاب التى تواجههم والأهوال التى تكتنفهم . يقول ابن عبد ربه (٣) عنهم : « وليس فى الفرق كلها أشد بصائر من الخوارج وأكثر اجتهدا ولا أوطن

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٣٦ - ٤٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٦٩ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٢٢٣ .

أنفسا على الموت » . ويصف المؤرخ (نيكلسن) ^(١) الخوارج بأنهم المثل الأعلى في التضحية في سبيل العقيدة والاستماتة في القتال حتى يحققوا مبادئهم ، كما أنهم لم يجاهدوا لتحقيق مطامع شخصية ، كما كانت سائر الأحزاب الأخرى سواء أكانت شيعية أم أموية . ولم يؤمن الخوارج بالتقية كما آمنت بها أكثر فرق الشيعة ، ويرجع السبب في ذلك الى شجاعة الخوارج وجراتهم وتمسكهم بمبادئهم . كذلك كانت صراحة الخوارج في الجهاد عاملا هاما في جعلهم شوكة دائمة في جنب الدولة الأموية .

انتهى حصار مكة بانتهاء حياة يزيد ، وعاد الحصين بن نمير بجيشه الى الشام ، وسكت السيف ليتكلم اللسان ، فرأى الخوارج أن يقفوا على آراء ابن الزبير ، وهل توافق مبادئهم . فقد كانوا في عجلة من أمرهم ، حيث داهمهم العدو الأموي ، فلم يكن هناك مجال للنقاش والجدال ، فقد كان همهم موجهها لصد الجيش الأموي . حتى اذا تحقق النصر لهم جميعا قال الخوارج بعضهم لبعض : ان الذي صنعتهم أمس لغير رأى ، تقاتلون مع رجل لا تدرون لعله ليس على مثل رأيكم ، وقد كان أمس يقاتلكم هو وأبوه وينادى يا ثارات عثمان ، فائتوه واسألوه عن عثمان ، فان برىء منكم كان وليكم ، وان أبى كان عدوكم .

وقدم الخوارج على ابن الزبير يستطلعون آراءه ومبادئه . تقدم أحد زعماء الخوارج وهو عبيدة بن هلال الى ابن الزبير

Lit. His. of the Arabs, P. 211.

(١)

فقال له : أما بعد ، فإن الله بعث محمدا يدعو إلى عبادته وإخلاص
الذي له ، فدعا إلى ذلك ، فأجابه المسلمون ، فعمل منهم بكتاب
الله حتى قبضه الله ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر
عمر ، فكلاهما عملا بكتاب الله وسنة نبيه ، ثم إن الناس استخلفوا
عثمان فحمى الأحماء وآثر القربى واستعمل الغنى ورفع الدرّة
ووضع السوط ومزق الكتاب وضرب منكر الجور وآوى طريد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب السابقين بالفضل وحرّمهم ؛
وأخذ فيء الله الذي أفاء عليهم فقسمه في فساق قریش ومجان
العرب ، فسارت إليه طائفة فقتلوه ، فنحن لهم أولياء ومن
ابن عفان وأوليائه براء . فما تقول أنت يا ابن الزبير .

وبعد أن انتهى الخوارج من سؤالهم عبد الله بن الزبير عن
مبادئه ، وعن آرائه في أبي بكر وعمر وعثمان ، قال ابن الزبير :
قد فهمت الذي ذكرت به أبا بكر وعمر ، وقد وفقت وأصبت ،
وفهمت ، الذي ذكرت به عثمان ، واني لا أعلم مكان أحد من
خلق الله اليوم أعلم بابن عفان ، وأمره مني كنت معه حيث تقم عليه
واستعجبوه فلم يدع شيئا إلا أعتبهم ، ثم رجعوا إليه بكتاب لهم
يزعمون أنه كتبه يأمر فيه بقتلهم ، فقال لهم ما كتبه فإن شئتم
فهايتوا بيتكم ، فإن لم تكن حلفت لكم فوالله ما جاؤه بينة
ولا استخلفوه ووثبوا عليه فقتلوه ، وقد سمعت ما عتبه به
فليس كذلك بل هو لكل خير أهل . وأنا أشهدكم ومن حضرني
أني ولّي لابن عثمان ؛ وعدو أعدائه فبرئ الله منكم !! .

وكان الخوارج يجوبون الأرض ويبدلون المال والأرواح في
مسبيل مبدأ يسعون لتحقيقه ، فلا يهدفون لغرض زائل أو لأمور
دنيوية ، فهم بعد أن فطنوا لآراء ابن الزبير وأدركوا اختلافهم
معه في مبادئه ، عزموا على ألا يمدوا له يد المساعدة بعد ذلك ،
ولو منحهم ذهب الأرض جميعه . فغادروه الى العراق من
حيث أتوا .

وصل الخوارج الى البصرة ، في وقت اضطرب أمرها وضعفت
سلطة عبيد الله بن زياد ، وهو وان كان بالأمس على قدر من القوة
والباس تسمح له بقتالهم ، فقد أصبح اليوم عاجزا تماما عن ذلك ،
فقد ثار عليه أهل البصرة كما مر بنا .

أعلنت الخوارج الثورة على ابن زياد ، فخرجوا الى سجن
البصرة فكسروا بابه وأطلقوا سراح من به من المسجونين . ولكن
خابت آمال الخوارج يتولى حاكم قوى هو عبد الله بن الحرث
الذى عاد الى سياسة ابن زياد في مطاردة الخوارج ، فجمع نافع
ابن الأزرق رجاله وساروا الى الأهواز في شوال سنة ٦٤ هـ .
وخالف نافعا في عزمه على الفرار ، بعض أنصاره مثل عبد الله
ابن الصفار ، وعبد الله بن أباض ، فكان ذلك سببا في ظهور فرق
الخوارج الصفارية والأباضية .

ووجد نافع في أرض الأهواز الهدوء الذى نشده ، فدعّم
قوته وكثر أنصاره ، وساعده على ذلك انشغال أهل البصرة بهؤلاء
الذين طالبوا بثار الحسين بن على . وشعر عبد الله بن الحرث
والى ابن الزبير بتزايد خطورة الخوارج ورأى أن يحد من

شوكتهم فبعث اليهم بجيش لقتالهم يقوده مسلم بن عيسى
ابن كرز . ودار صراع عنيف انتهى بمصرع كل من نافع بن الأزرق
ومسلم بن عيسى .

تولى عبد الله بن الماحوز قيادة جيش الخوارج ، كما تولى
الحجاج بن باب الحميري قيادة جيش البصرة . واشتبك القائدان
الجديدان في معركة حامية الوطيس انتصر الخوارج فيها ، وقتل
قائد جيش البصرة الحجاج .

فرع أهل البصرة لانتصار الخوارج ، وأراد عبد الله بن الزبير
أن ييث الطمأنينة في قلوب أهل البصرة ، فعزل واليه عبد الله
ابن الحرث وولى مكانه الحرث بن أبي ربيعة وأمره بصد
الخوارج عن البصرة (١) .

اقتربت الخوارج من البصرة ، وزاد الفزع والاضطراب بين
أهلها ، وتقدم البصريون الى أحد زعمائهم ، وهو الأحنف
ابن قيس ، يستنجدون به ، ويطلبون مساعدته ، فلبى نداءهم ؛
وقصد الحارث بن أبي ربيعة والى عبد الله بن الزبير وطلب منه
أن يكتب الى خليفته ابن الزبير بمكة يطلب منه أن يبعث الى
المهلب بن أبي صفرة واليه بخراسان يأمره بالقدوم الى البصرة
للدفاع عنها ، لما يعرفونه عنه من اقدام وخبرة بالحروب . وأجاب
ابن الزبير رغبتهم وكتب الى المهلب كتابا يأمره بتحقيق مطالب
أهل البصرة (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٢ .
(٢) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٢٨١ .

ودارت معركة حامية بين المهلب وبين الخوارج بقيادة عبد الله ابن الماحوز قرب نهرتستر ، فتحقق النصر للخوارج أول الأمر ، ولكن سرعان ما دارت الدائرة عليهم فقتل ابن الماحوز وهزم الخوارج في موقعة (تسلى) بالأهواز ، وسارعت فلول البصرة تفر بعيدا عن البصرة والأهواز ، فرحلت الى أصبهان وكرمان سنة ٦٦ هـ (١) .

وشعر عبد الله بن الزبير أن البصرة في حاجة الى حاكم قوى يدفع عنها خطر الخوارج ، فبعث أخاه مصعب بن الزبير واليا عليها ، وعزل الحارث بن أبي ربيعة . كما خشى عبد الله بن الزبير من ازدياد نفوذ المهلب بن أبي صفرة وافتتان أهل البصرة بشخصيته بعد نجاحه في صد الخوارج ، فعزله من ولاية فارس وعن حرب الخوارج ، وعهد بالأمرين الى عمر بن عبيد الله بن معمر . وبدأ عمر بقتال الخوارج الذين ولّوا أمرهم الزبير بن الماحوز ، ابن زعيمهم المقتول ، ونجح عمر في هزيمة الخوارج قرب اصطخر ، فهربوا الى سابور ، وتتبعهم عمر ، فهربوا الى أصبهان .

ولس مصعب بن الزبير أن قائد عمر لا يقوى على قتال الخوارج ، ورأى أن يقوم بنفسه بقتالهم ، ولكنهم هربوا الى فارس ، حيث أخذوا يعيشون فسادا ، وارتفعت أصوات أهل فارس وأصبهان والرى بالشكوى والاستنجاد . ورأى عامل مصعب بن الزبير على الكوفة ، وهو الحارث بن أبي ربيعة ،

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٨٣ .

أن يضع حداً لفسادهم وفظائعهم ، فأرسل اليهم القائد المشهور
 ابراهيم بن الأشتر ، فنجح في هزيمة الخوارج ، وقتل زعيمهم
 الزبير بن الماحوز ، فاخhtarوا بدله قطرى بن الفجاءة المازنى
 ورغم نجاح والى ابن الزبير ، الحارث بن أبى ربيعة ، فى صد
 الخوارج ، الا أنه شعر أنه غير قادر على الاستمرار فى قتالهم ،
 لما عرّف به الخوارج من بأس وعزم ، فبعث الى مصعب ابن الزبير
 يخبره أنه لا يقوى على قتال الخوارج سوى المهلب بن أبى صفرة
 الذى خبرهم وعرف أساليبهم فى القتال . فلم ير مصعب مفراً من
 تحقيق هذا الطلب ، فأمر المهلب بالمسير لقتال الخوارج ، فالتقى
 بهم عند سولاف حيث حاربهم ثمانية شهور نجح فى نهايتها فى
 هزيمتهم « فلم يزل المهلب يسير فى طلبهم من بلد الى بلد ويواقعهم
 وقعة بعد وقعة طول ما ملك عبد الله بن الزبير الى مقتله وخلوص
 الأمر لعبد الملك بن مروان ، فلما استهدف الأمر لعبد الملك وولى
 الحجاج العرايين ، استبطن المهلب فى استئصال الخوارج (١) .
 يعيب بعض المؤرخين على عبد الله بن الزبير صراحته ،
 اذ صرح الخوارج بأنه على غير رأيهم ، مما أثار غضبهم . وبرى
 هؤلاء المؤرخين أنه كان من مصلحة ابن الزبير أن يهادن الخوارج ،
 فقد أثاروا عليه حرباً شعواء فى العراق وفارس كلفته أرواحاً
 وأموالاً كثيرة كان بوسعه أن يوفرها .

ونحن نرى أن ابن الزبير كان على حق فى موقفه من الخوارج ،
 فقد كانت فئة خطيرة حاربها كل من تولى الخلافة ، فحاربهم على

(١) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

ابن أبي طالب ثم حاربهم معاوية بن أبي سفيان ثم يزيد بن معاوية . وقضى الوالى الأموى عبيد الله بن زياد فترة طويلة جاهد فيها الخوارج . ولذا رأى ابن الزبير أن وجود الخوارج بين جنده مما يهدد حركته السياسية ، فانهم حتما يثبون تعاليمهم ومبادئهم بين هؤلاء الجند فيتحولوا عن اخلاصهم له . ولم يكن ابن الزبير ليكفر عثمان بن عفان كما طلب الخوارج منه ، فقد كان يعتمد في تأييد خلافته على دفاعه عن عثمان بن عفان يوم الدار ، وعلى عهد عثمان بوصيته له دون سائر أبناء الصحابة ، فكان ابن الزبير يقول دائما : « قد مات يزيد ، فأنا أحق الناس بهذا الأمر لأن عثمان عهد الىّ في ذلك عهدا صلتى به خلفى طلحة والزبير وعرفته أم المؤمنين » (١) .

موقف حزب المختار :

بدأ ظهور المختار بن أبي عبيد الثقفى في خلافة الحسن ابن على ؛ ثم بايع مسلم بن عقيل بعد أن قدم الى الكوفة مبعوثا من الحسين بن على . ولما وقف عبيد الله بن زياد على حركات المختار زجه في السجن (٢) . وأرسل المختار الى زوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب بالحجاز ليشفع فيه عند يزيد بن معاوية ، فأمر يزيد باطلاق سراحه ، فأفرج ابن زياد عنه على أن يغادر العراق بعد ثلاثة أيام ، فخرج المختار الى الحجاز بعد أن

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٣ .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥

أقسم على التخلص من ابن زياد . وفى طريقه الى الحجاز لقي أحداً القادمين منها ، فسأله عن أحوالها ؛ فأخبره بدعوة عبد الله بن الزبير لنفسه واستفحال أمره ، فقال المختار : « أما انه رجل العرب اليوم ، أما وانه يخطط فى أثرى ويسمع قولى أكفه أمر الناس ولا يفعل ، فوالله ما أنا بدون أحد من العرب . يا ابن العراق ان الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكان قد انبعثت فوطئت خطامها ، فاذا رأيت ذلك وسمعت به قد ظهرت فيه فليل ان المختار فى عصائبه من المسلمين ؛ يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف سيد المسلمين وابن سيدها الحسين بن على » (١) .

قدم المختار على ابن الزبير ، ولكن ابن الزبير لم يصريح له بنواياه لأنه لم يكن يثق به . وعرض المختار عليه البيعة ، لكنه أبى ، فقد كان يزيد بن معاوية لا يزال على قيد الحياة (٢) . ثم ترك المختار ابن الزبير وعاد اليه بعد عام ، وكان ابن الزبير قد بدأ يأخذ البيعة من الناس ، وباع المختار ابن الزبير على شروط ، فقال : « أبايحك على ألا تقضى الأمور دونى ؛ وعلى أن أكون أول داخل ، واذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك » (٣) .

أخذ ابن الزبير فى طلب البيعة من الأمصار بعد أن رفع الحصين ابن نمير الحصار عن مكة وعاد الى الشام ، لكنه لم يشبع أطماع المختار بتوليته حكم إحدى الولايات ؛ فحقد عليه ؛ ولكنه

(١) الطبرى ج ٦ ص ٦٠ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٧٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٢ .

لم يجهر بمشاعره ، ومكث بالحجاز خمسة شهور أخرى ، ثم فكر في العودة الى العراق ، وكان يستفسر من القادمين منه عن أحواله ، فأخبروه بانقياد بعض أهل العراق لدعوة ابن الزبير ، وان كانت الغالبية لا تهدف الا للأخذ بثأر الحسين . ولكن ينقصهم الزعيم ، فرأى المختار أن يكون هذا الزعيم ، ولكنه خشى أن يمنعه ابن الزبير من الخروج الى العراق ، فخدعه بأن عرض عليه أن يرحل ليجمع له الجند الذين يتغلب بهم على أهل الشام وانخدع ابن الزبير فسمح له بالخروج (١) .

قدم المختار الى العراق وهو يأمل أن يجمع الشيعة حوله ، ويتخذهم طريقا الى السلطة والنفوذ . ولكن المختار وجد سليمان ابن صرد قد سبقه الى الشيعة ، فبدأ المختار يكيد له ؛ فقال للتوايين أنصار ابن صرد : « ان سليمان ليس له بصر بالحروب ولا تجربة بالأمر وانما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه ، وأنا أعمل على مثال مثل لي ، وأمر بيتن لي ، أعين وليكم ، وأقتل عدوكم ، وأشفى صدوركم ، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمرى » . فانضم فريق من التوايين الى المختار .

ولما شعر عاملا عبد الله بن الزبير : عبد الله بن يزيد ، وابراهيم ابن محمد بن طلحة ؛ باستفحال أمر المختار ، قبضا عليه وسجناه ؛ لكنه لجأ مرة ثانية الى ابن عمر فشفع فيه عندهما ، فأطلقا سراحه ، وخرج المختار من سجنه ليجد آلاف الشيعة في انتظاره ، فقد قتل

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

ابن سرد في عين الوردية ، وعادت فلول التوابين تبحث عن زعيم جديد ، ووجدت هذا الزعيم في شخص المختار .

رأى المختار أن تستند دعوته الى أحد العلويين ، ووقع اختياره على علي بن الحسين ، فكتب المختار اليه يقترح عليه أن يأخذ البيعة له بالعراق لكنه رفض (١) . فتحول المختار الى محمد ابن الحنفية ، فزعم المختار للشيعة أن ابن الحنفية قد أرسله وزيرا وأميرا لطلب دعاء أهل البيت وقتل ابن زياد . ولكن الشيعة شككت في أمره فخرجوا الى ابن الحنفية يسألونه الحقيقة فقال لهم : « ما أحب إلينا من طلب بثأرنا وأخذ لنا بحقنا وقتل عدونا » (٢) . فعادوا ليلتفوا حول المختار .

استفحل أمر المختار ، فعزل ابن الزبير عامليه وولّى عبد الله ابن مطيع على الكوفة ؛ لكنه سار سيرة أغضبت أهلها فحقّدوا عليه وكرهوا ابن الزبير ، فتمكن المختار من عزله (٣) . وما لبث أن اتسع نفوذ المختار ، وانضم إليه إبراهيم بن الأشتر ذلك القائد الباسل ، ودانت له العراق وسائر الأمصار عن الحجاز والجزيرة والشام (٤) . ودخل قصر الامارة في الكوفة وبسط يده يطلب البيعة من الناس وقال : « تباعونى على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحليين والدفع عن الضعفاء

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٥ .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٠٥ .

(٤) الدينورى : الاخبار الطوال ص ٣٠٠ .

وقتل من قاتلنا وسلم من سالنا والوفاء بيعتنا لا ثقلكم
ولا نستقلكم» (١) .

أقبل الناس يبايعون المختار وشجعهم على ذلك ما فرقه بينهم
من أموال ، ثم كتب الى عبد الله بن الزبير بالحجاز يعلمه أنه انما
أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، وطلب من
ابن الزبير ألا يحاسبه على ما أنفقه من بيت المال فأبى ابن الزبير
ذلك عليه ؛ فخلع المختار طاعته (٢) .

بدأ المختار ينفذ ما وعد به الشيعة من الأخذ بثأر الحسين ،
فوجه رئيس شرطته ومعه ألف رجل يحملون المعاول لهدم دور
كل من خرج لقتال الحسين . وأرسل من يأتيه برأس عمر بن سعد
ابن أبي وقاص ، ثم سمع باقتراب عبيد الله بن زياد الى الموصل
بعد هزيمته للتوابين ، فأرسل المختار قائده يزيد بن أنس ثم
أمدّه بجيش آخر بقيادة ابراهيم بن الأشتر ، فقتل ابن زياد (٣) .
تفوقت حركة المختار على حركة عبد الله بن الزبير في بلاد
العراق ، لأن ابن الزبير لم يغدق الأموال على أهل العراق كما
فعل المختار . بل استطاع المختار أن يرشوا عمّال بن الزبير بالمال ،
فرشاه عبد الله بن مطيع بمائة ألف درهم حتى يسلم له الأمر (٤) ، وحينما

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٤٤ .

(٤) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ .

بعث ابن الزبير عامله الجديد عمر بن عبد الرحمن بن الحارث رشاه المختار بسبعين ألف درهم فلم يطالبه بالحكم (١) .

ومن عوامل تفوق المختار على ابن الزبير سوء اختياره ابن الزبير لعماله ، فقد اختار عبد الله بن يزيد وكان رجلا ساذجا متواكلا ، واختار ابراهيم بن محمد بن طلحة وقد عثر عنه أنه يكره الشيعة ، كما أن الشيعة تبغضه ، وأدرك ابن الزبير ضعف عامليه فعزلهما ، لكنه ولّى عبد الله بن مطيع وهو رجل بدوى غير خبير بالسياسة ، كما أنه كان صديقا حميما للمختار ، وسار في أهل الكوفة سيرة أثارت كراهيتهم له ولابن الزبير . ثم عيّن ابن الزبير أخاه مصعبا ، وإن كان قد وفق في الاختيار إلا أن ذلك جاء متأخرا .

وكان لتحقيق المختار أغراض شيعة العراق في الأخذ بثأر الحسين ، أثره في انصراف أهل العراق عن ابن الزبير ، وقد وقف ابن الزبير موقفا سلبيا من التوابين ، وترك قتلة الحسين يمرحون في الكوفة ؛ ولم ينس أهل العراق يوم أن وقف ابن الزبير بعد قتل الحسين يخطب ويرثيه ويتهم أهل العراق بالتخاذل عنه . أما المختار فقد أَرْضَى الشيعة ، فقتل عمر بن سعد وابن زياد وغيرهم من قتلة الحسين ، فشفى غليلهم ، ووضح لهم طريق النصر (٢) .

تودد المختار لبني هاشم ، فكان يرسل من حين لآخر هدايا

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٣ .

Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs. P. 218.

(٢)

فاخرة الى ابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما ، فيقبلونها
شاكرين ممتنين . أما عبد الله بن الزبير فقد كان على عداء مع
معظم زعماء بنى هاشم وخاصة ابن الحنفية (١) .

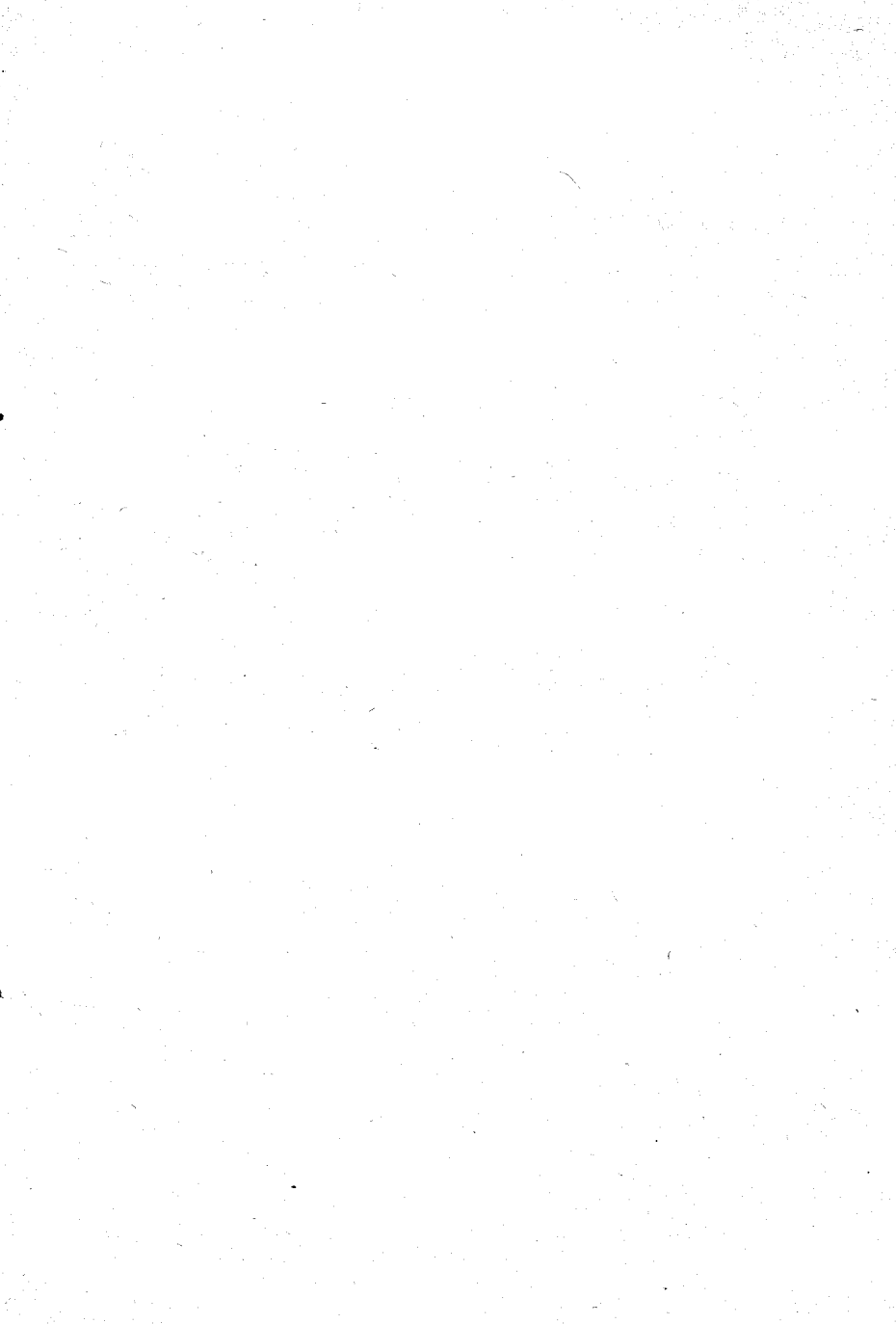
ومن العوامل الهامة التي أدت الى تفوق المختار على ابن الزبير
بالعراق ، انضمام موالى العراق الى المختار . فقد كانت حياة
الموالى السياسية والاجتماعية تنطوى على الاضطهاد والمظالم ،
ولذلك كان الموالى ينتهزون الفرص للعمل على اضعاف الدولة
الأموية ، فانضموا الى كل خارج على هذه الدولة . ورحب الموالى
بحركة عبد الله بن الزبير ، لكنه كان شحيحا بالمال ، في وقت كانوا
يحلون فيه بالعطاء والأرزاق والصلوات . كما أن ابن الزبير اعتمد
في بلاد العراق على العناصر العربية دون الموالى . أما المختار ، فقد
أدرك أن نصف سكان الكوفة من الموالى وأن في أيديهم موارد
الثروة ، فهم أصحاب الحرف والتجارة ، لذلك عمل على استمالتهم
اليه (٢) . ولكن المختار لم ينس أن يتقرب الى العرب الأشراف ،
واتخذ من الفريقين وسيلة لبلوغ آماله . وأصبح جيش الموالى
يتألف من عشرين ألفا من الموالى سماهم الجند الحمراء وكلهم
من أبناء الفرس (٣) . وأشركهم المختار مع العرب في العطاء
ووعدهم بأن « يعطيهم أموال ساداتهم » (٤) .

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, P. 218.

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٩٦ .

(٤) اليعقادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .



٩- نهاية عبد الله بن الزبير

الصراع بين ابن الزبير والمختار حول العراق
عبد الملك ينتزع العراق من ابن الزبير
عوامل إخفاق الحركة الزبيرية في العراق
غروب شمس الحركة الزبيرية في الحجاز
عبد الملك يواجه الحجاج لقتال ابن الزبير
مصراع عبد الله بن الزبير
عوامل القضاء على ابن الزبير بالحجاز
أسباب إخفاق حركة ابن الزبير

نحسايه عبد الله بن الزبير

الصراع بين ابن الزبير والمختار حول العراق :

ظل عبد الله بن الزبير في مكة ينظر الى قتال المختار لعبيد الله ابن زياد بعين ملؤها السرور . فهذه الحرب الضروس تؤدي حتما الى ضعف الفريقين على السواء . وقرت عين ابن الزبير حين علم بمقتل ابن زياد ، وكان أعظم القواد الأمويين في ذلك الحين . ولكن انتصار المختار ألقى على عبد الله بن الزبير أعباء جديدة ، فقد أصبح الصدام بين الزعيمين محتوما ، ولم تعد بلاد العراق تتسع لحركتين سياسيتين ؛ كالحركة الزبيرية والحركة المختارية .

وبعد انتصار المختار على الجيش الأموي ، رأى عبد الله ابن الزبير أن يبعث قائدا وواليا على جانب كبير من الكفاءة والمقدرة لمواجهة المختار ، ولا يكون مثل الولاة الآخرين الذين أثبتت الأيام تهاونهم واستكاثتهم . ولذا عزل ابن الزبير واليه الحرث بن أبي ربيعة عن حكم البصرة وولّى أخاه مصعب ابن الزبير .

قدم مصعب الى البصرة ، فاتجه الى مسجدها ووقف يخطب في الناس بعد أن حمد الله وآثنى عليه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، طسم تلك آيات الكتاب المبين تملو عليك من نبأ موسى

وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، الى قوله من المفسدين — فأشار بيده نحو الشام — ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين — وأشار بيده نحو الحجاز — ونرى فرعون وهامان وجنودهما فهم ما كانوا يحذرون — وأشار نحو الكوفة — ثم قال : يا أهل البصرة ، بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم ؛ وقد لقبت نفسى بالجزار (١) .

وهكذا لقب مصعب بن الزبير نفسه (الجزار) أى أنه أعلن سياسة تنطوى على الحزم والشدة وأنه سيقتل كل من يناهض الحركة الزبيرية .

اعتمد المختار على موالى الكوفة ، وأغضب أسيادهم العرب الأشراف . فقدم هؤلاء على مصعب فى البصرة يشكون اليه المختار ويستنكرون سياسته فيهم ، ويطلبون منه أن يقاتلهم . واستجاب مصعب لندائهم ، فبعث الى القائد المشهور المهلب بن أبى صفرة يدعوه للقدوم اليه . وقدم المهلب ومعه جموع كثيرة وأموال عظيمة ، واحتشد الجيش عند الجسر الأكبر فى البصرة ، وبعث مصعب عبد الرحمن بن مخنف الى البصرة ليثبط الناس عن مؤازرة المختار ويدعوهم الى بيعه عبد الله بن الزبير سرا (٢) . علم المختار باستعداد مصعب لقتاله ، فجمع رجاله وجنوده وولى على قيادتهم قائده أحمد بن شميظ . وقدم مصعب على رأس جيشه الى الكوفة ، واشتبك الجيشان فى قتال عنيف انتهى

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٢ .

(٢) المصدر السابق .

باتتصار مصعب ومصرع ابن شبيط . ولما علم المختار بهزيمة جيشه ومقتل قائده ، خرج بنفسه للقاء جيش مصعب ، فتقاتلوا عند حروراء قتالا حاميا انتهى بهزيمة المختار وفراره الى قصر الامارة بالكوفة حيث تحصن فيه ، فحاصره مصعب أياما كثيرة ثم قتله واحتز رأسه . ولكن مصعبا أسرف في القتل والتنكيل بأنصار المختار رغم تأمينه له على أرواحهم ، فأثار بذلك مشاعر أهل العراق ضده ، في وقت هو في حاجة الى استمالتهم وتأييدهم^(١) .

وهكذا تفوقت حركة عبد الله بن الزبير على حركة المختار ، وكان مصرع المختار نهاية لحركة كبيرة نالت تأييدا كبيرا في بلاد العراق . ويرجع تفوق الحركة الزبيرية الى عدة عوامل ، أولها اخفاق المختار في صبغ حركته بصبغة دينية ، فقد سلك في ذلك مسلكا أغضب المسلمين ، فابتدع أمورا غريبة على الاسلام . فقد اشترى المختار كرسيًا قديما من بائع زيت ، ثم أزال منه بقع الزيت ، ووقف في الناس يحدثهم عنه فيقول : « انه لم يكن في الأمم الخالية أمر الا وهو كائن في هذه الأمة مثله ، وان كان في بنى اسرائيل التابوت ، فان هذا فينا مثل التابوت »^(٢) . ويفسر (بروكلمان)^(٣) هذه الآراء الغريبة ، بأن المختار أراد أن يعوض ما كان يشعر به من نقص ، حيث لم يكن له حق في الخلافة ؛

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٢ .

(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١ ص ١٥٩ .

ولكننا تفسرها بأنها المبادئ التي تناسب تماما موالى العراق
الذين عرفوا المبادئ المزدكية والمأنوية والزراشتية وغيرها .

ومن عوامل تفوق الحركة الزبيرية على الحركة المختارية ،
تخلي ابن الحنفية عن المختار مما صرف أهل العراق عن تأييد
المختار . فقد سكت ابن الحنفية في أول الأمر لأن المختار قصر
أهدافه على الأخذ بثأر الحسين ، ولأنه رأى في حركة المختار
عاملا لاضعاف نفوذ عبد الله بن الزبير في العراق . ولما لمس ابن
الحنفية تمادى المختار في الاستفادة من اسمه ، تخلى عنه (١) .

اعتمد المختار على الموالى في العراق ، بينما اعتمد ابن الزبير
على العناصر العربية . ولذا عملت هذه العناصر على القضاء على
حركة المختار ومساعدة الحركة الزبيرية . وكان المختار قد جعل
للموالى نصيبا من النوى ، فثار الأشراف والعرب وتوجهوا الى
المختار بالشكوى ، وقال زعيمهم شيب بن ربيع : « عمدت الى
موالينا ، وهم فيء آفاه الله علينا وهذه البلاد جميعا ، تأمل الأجر
في ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم
شركاءنا في فيئنا » (٢) .

ولكن المختار لم يصنع لشكواهم ، فخرجوا الى مصعب بن
الزبير بالبصرة شاكين له المختار ، فقالوا : « انه تأمر علينا بغير
رضى عنا ، وزعم أن ابن الحنفية بعثه إلينا ، وقد علمنا أن
ابن الحنفية لم يفعل ؛ وأطعم موالينا وأخذ عبيدنا فحارب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

بهم أيتامنا وأراملنا» (١) . ويعيب المؤرخ (نيكلسون) (٢) على المختار اعتماده على الموالي ؛ فهو يرى أن المختار باعتماده عليهم حول حركته ضد العرب بدلا من أن تكون ضد الأمويين . ويعلق المؤرخ (ميور) (٣) على سياسة المختار فيذكر أنه بنى مستقبله السياسى على أساس من الرمال ، فلم يكتب له البقاء .

ولكن لم يكن قضاء مصعب بن الزبير على المختار خلاصه من آثار الحركة المختارية ؛ وأبرز آثارها السياسية بداية حركة الشعوبية ، فقد شعر الموالي أنهم قوة سياسية لابد أن تلعب دورها فى التاريخ الاسلامى . وكانت حركة المختار هى الحلقة الأولى فى سلسلة ثورات الموالي التى انتهت بانتصارهم وقيام الدولة العباسية . أما الآثار الدينية ، فهى ظهور أفكار جديدة كان لها أثر كبير فى نفوس الكثيرين من الشيعة ، وقد ظهرت هذه الأفكار فى مبدأ أمرها فى البيئات غير العربية (٤) .

علم مصعب بن الزبير تأييد الموالي للمختار ، واعتماده عليهم؛ فأراد أن يخدعه خدعة تحرمه من مؤازرتهم له . فقد بعث مصعب برجل تظاهر بنصح المختار ، فأشار عليه بأن يجعل الموالي ضمن المشاة فى جيشه ، وألا يجعلهم فرسانا حتى لا يفرون بخيولهم

(١) الطبرى ج ٧ ص ١١٦ .

(٢) Lit. Hist. of the Arabs. P. 215.

(٣) The Caliphate P. 525.

(٤) فان فلوتن : السيادة العربية ص ٧٥ - ٧٦ .

من المعركة ، وانخدع المختار بهذه النصيحة فعمل بها ، ونجح جنود مصعب في أن يبيدوا الموالي عن آخرهم ، حيث لم يملكوا القرار أمام فرسان مصعب (١) .

وهكذا انتهى صراع عبد الله بن الزبير ، والمختار بن أبي عبيد الثقفي ، لبدء صراع جديد ، بينه وبين الخليفة الأموي الجديد عبد الملك بن مروان .

عبد الملك ينتزع العراق من ابن الزبير :

كان عبد الله بن الزبير يعلم أن عبد الملك بن مروان ، خليفة الشام الجديد ، قد نجح في التخلص من مشاكله ، وخاصة تهديد الروم لبلاد الشام ، ومنافسة بعض الأمويين له ، وأن ابن زياد قد خلص عبد الملك من التوايين ، كما خلصه مصعب من المختار . وأدرك ابن الزبير أن عبد الملك لاشك أنه سيبدأ بالعمل على انتزاع العراق من الزبيريين ، وخاصة أن بلاد الشام ومصر قد دانت للأمويين بالطاعة ، ولم يبق في أيدي الزبيريين سوى بلاد العراق والحجاز . كما كان عبد الله بن الزبير موقنا من أن عبد الملك سيأدر إلى قتال مصعب ، وخاصة أنه قد أنهكت قواه في حرب المختار . وكان جديرا بعبد الله بن الزبير وكان واقفا على أطراف الموقف السياسي أن يسارع في مد أخيه مصعب بكل مساعدة ممكنة ليقوى على مقاومة عبد الملك بن مروان وينجح في المحافظة على بلاد العراق .

(١) الطبري ج ٧ ص ١١٦ .

ولكن عبد الله بن الزبير عزل أخاه مصعباً في سنة ٦٧ هـ ؛
وولى بدله ابنه حمزه بن عبد الله ؛ الذى يصفه المؤرخ ابن
الأثير ^(١) فيقول : « وكان حمزه جواداً مخلصاً ، وجود أحياناً حتى
لا بدع شيئاً يملكه ، ويمنع أحياناً ما لا يمنع مثله ، وظهر منه
بالبصرة خفة وضعف » .

ولا شك أن عزل ابن الزبير لأخيه مصعب كان ينال من حركته
بالعراق . فقد قاست بلاد العراق الولايات من تعدد الحركات
السياسية ، مثل حركات الخوارج والتوايين والمختار ، وأصبحت
العراق فى حاجة الى حاكم قوى يعيد لها هدوءها واستقرارها ،
ويستعد لصد هجوم عبد الملك بن مروان . وقد يظن البعض أن
عبد الله قد أقدم على عزل مصعب مدفوعاً فى ذلك بخوفه من
افتتان مصعب بنصره أو افتتان أهل العراق به ، مما قد يغريه
بالخروج عن طاعة أخيه ، ولكننا لا نوافق على هذا الرأى ، لما
نعرفه من اخلاص مصعب لأخيه ؛ الى جانب عدله وحسن سيرته .
فقد قدم وفد من أهل العراق على عبد الله بن الزبير بمكة فسألهم
عن سيرة أخيه مصعب فيهم ، فقالوا : « أحسن الناس سيرة وأقضاه
يحق ، وأعدله فى حكم » ^(٢) .

ونرى أن الدافع لعبد الله بن الزبير فى عزل أخيه مصعب
وتولية ابنه حمزه هو العاطفة الأبوية ، مثلما فعل معاوية بن
أبى سفيان حينما ولى ابنه يزيد عهده . ودليلنا على ذلك أن

(١) الكامل ج ٤ ص ١١٧ .

(٢) القالى : الأمالى ج ١ ص ٢٨٣ .

ابن الزبير حينما علم بتخطيط ابنه في سياسته بالعراق قال : أبعدہ
الله ، أردت أن أباهي به بنى مروان فنكس ! » (١) .

وكان جديرا بحمزه بن عبد الله بن الزبير أن يستمر على
سياسة مصعب في تقريب العرب الأشراف الذين وقفوا الى جانب
الحركة الزبيرية في صراعها للحركة المختارية . ولكن حمزة بخل
بالمال عليهم ، بينما أخذ يبعثر الأموال يمينا ويسارا ، مما أوغر
صدور الزعماء العرب فانفضوا عن تأييد الحركة الزبيرية . وعلم
عبد الله بن الزبير بسوء سياسة ابنه حمزه فعزله ، وأعاد أخاه
مصعب الى ولاية العراق . ولكن الفترة القصيرة التي شهدت
حمزه فعزله ، وأعاد أخاه مصعب الى ولاية العراق . ولكن الفترة
حكم حمزه أدت الى تخلى بعض أنصار ابن الزبير عنه .

ولم يكد عبد الملك بن مروان ينوى الخروج لقتال مصعب
ابن الزبير وانتزاع العراق منه ، حتى ظهرت في الأفق عقبة جديدة ،
كان عليه أن يتخلص منها قبل رحيله الى العراق . فقد أعلن عمرو
ابن سعيد بن العاص العصيان ، وكان من كبار زعماء بنى أمية ،
وساعد مروان بن الحكم على الفوز بالخلافة دون منافسيه . وقد
سخط عمرو على عبد الملك اذ تولى الخلافة بعد أبيه مروان ،
وكان عمرو يرى أنها حق مكتسب له اذ أوصى مروان له بها .
وأدى الخلاف بين عبد الملك وعمرو الى انقسام بنى أمية الى
فريقين ، واشتد النزاع بينهما . ورأى زعماء بنى أمية العمل على

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٧ .

فض هذا النزاع الذى يفتت وحدة الدولة الأموية ، وتوصلوا الى حل وسط يرضى الطرفين المتنازعين . فاتفقوا على أن تكون الخلافة مشتركة بين عبد الملك وعمرو ، ويكون لكل منهما ولاته فى الأمصار الاسلامية ، على أن يتسمى عبد الملك باسم الخلافة وتكون لعمرو بعد وفاته ، وأن لا يقطع عبد الملك فى أمر الا بمشورة عمرو . وكان قبول عبد الملك لهذه الشروط الى حين ، فقد قبض على عمرو وقال له : « والله لو أعلم أنك تبقى على اذا أبقيت عليك ، وتصلح قريش ، لأطلقتك . ولكن ما اجتمع رجلان فى بلدة قط على ما نحن عليه الا أخرج أحدهما صاحبه » (١) . ثم غدر عبد الملك بعمرو فقتله وألقى برأسه بين أنصاره وألقى معها بدراهم ودنانير ، فاشتغل الأنصار بجمع المال عن المطالبة بثأره .

وبعد خلاص عبد الملك من منافسه ، عزم على الخروج لقتال مصعب بن الزبير ، والقضاء على الحركة الزبيرية فى بلاد العراق . فتقدم حتى نزل مسكن ، وزحف مصعب الى باحميرا ، ثم التقى الجيشان عند دير الجائلق ، ودارت معركة عنيفة قتل فيها ابراهيم ابن الأشر قائد مصعب الباسل ، ودارت الدائرة على مصعب وأدرك أن هزيمته قد أصبحت أمرا محققا ، ولكنه صمد الى النهاية ضاربا أروع أمثلة البطولة والشجاعة ، وصمد ابنه عيسى الى جوار أبيه ، فكان خير مثال وفاء الابن نحو أبيه . قال

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١١٧ .

مصعب لابنه عيسى : يا بني اركب أنت ومن معك الى عمك بمكة فأخبره ما صنع أهل العراق ودعنى فانى مقتول ! فقال عيسى : والله لا أخبر قريشا عنك أبدا ولكن ان أردت ذلك فألحق بالبصرة فهم على الجماعة أو الحق بأمر المؤمنين . فقال مصعب : والله لا تتحدث قريش أنى فررت بما صنعت ربيعة من خذلانها حتى أدخل الحرم منهزما ، ولكن أقاتل فان قتلت لعمرى ما السيف يعار وما الفرار لى بعادة ولا خلق ، ولكن ان أردت أن ترجع فارجع فقاتل !

استمر مصعب بن الزبير يقاتل عبد الملك حتى لقي مصرعه ويصور المؤرخ ابن الأثير (١) خاتمة حياة مصعب فيقول : « وخذل الناس مصعبا وخذلوه حتى بقى فى سبعة أنفس ؛ وأثنى مصعب بالرمى وكثرت الجراحات فيه ، فعاد الى عبيد الله بن ظبيان فضربه مصعب فلم يصنع شيئا لضعفه بكثرة الجراحات ، وضربه ابن ظبيان فقتله ، وقيل بل نظر اليه زائدة بن قدامة الثقفى فحمل عليه وطعنه وقال يا لثارات المختار فصرعه » . وأنشد الشاعر ابن قيس الرقيات يرثى مصعب بن الزبير (٢) :

لقد أورث المصريين عارا وذلة

قتيل بدير الجاثليق مقيم
تحقق الانتصار لعبد الملك بن مروان بعد مصرع مصعب
ابن الزبير . وقصد الكوفة وطلب البيعة له من أهلها ، فهرعوا

(١) الكامل ج ٤ ص ١٣٧ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥ .

يباعون له ، ثم ارتقى منبر الكوفة وخطب الناس ، فوعد المحسن وتوعد المسيء ، وقال : « أيها الناس ، ان الحرب صعبة مرة ، وان السلم أمن ومسرة ، وقد زينتنا الحرب وزيناها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المروية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة الا شرا ، وان تزداد بعد الأعذار اليكم ، والحجة عليكم الا عقوبة .. » .

عوامل اخفاق الحركة الزيرية في العراق :

تكاثفت عدة عوامل أدت في النهاية الى اخفاق حركة عبد الله ابن الزبير في بلاد العراق واتزاع عبد الملك بن مروان هذه البلاد من مصعب بن الزبير . أما هذه العوامل فهي :

أولا — خروج عبد الملك الى مصعب قبل قدوم مصعب اليه : رأى عبد الملك أن مصعبا وقد انتهى من القضاء على المختار ابن أبي عبيد الثقفي ، لا بد سائر اليه لقتاله في الشام فيروى ذلك المؤرخ الدينوري ^(١) فيقول : « ولما صفا الأمر لعبد الله بن الزبير ودانت له البلدان الا أرض الشام ، جمع عبد الملك بن مروان اخوته وعظماء أهل بيته فقال لهم : ان مصعب بن الزبير قد قتل المختار ، ودانت له أرض العراق وسائر البلدان ، ولست بآمنه أن يغزوكم ، وما من قوم غزوا في عقر دارهم الا ذلوا ، فما ترون ؟

(١) الأخبار الطوال ص ٣١٦ - ٣١٧ .

فتكلم بشر بن مروان فقال : يا أمير المؤمنين أرى أن تجمع اليك أطرافك وتستجيش جنودك وتضم اليه قواصيك وتسير اليه وتلف الخيل بالخييل والرجال بالرجال ، والنصر من عند الله .

وما كاد عبد الملك يبدأ في تعبئة قواته حتى علم بعزم مصعب ابن الزبير على المسير الى الشام ، فخاف عبد الملك أن يلقاه بأرض الشام التي كان يقول عنها : « الشام بلد قليل المال ولا آمن تفاده » ^(١) . وأراد عبد الملك أن يشغل مصعبا عن القدوم اليه ، وشاءت المقادير أن تعين عبد الملك ، فقد ثار على مصعب بعض الخارجين على طاعته فشغلوه عن الزحف الى بلاد الشام ، وعمل عبد الملك على مساعدة هؤلاء الثوار . فروى المسعودي ^(٢) : « وقد كان مصعب بن الزبير خرج حين صفا له العراق بعد قتل المختار ، حتى انتهى الى الموضع المعروف بباحميراء مما يلي الجزيرة ، يريد الشام لحرب عبد الملك ، فبلغه مسير خالد ابن عبد الله بن أسيد من مكة الى البصرة في ولده وعدة من مواليه ناكثا لبيعة عبد الله بن الزبير ، فنزل بعض نواحي البصرة ، وأن قوما انضافوا اليه من ربيعة . فكانت لهم بالبصرة حروب كانت آخرها على خالد بن عبد الله ، فخرج هاربا بابنيه حتى لحقوا بعبد الملك ، وانصرف مصعب راجعا الى البصرة ، وذلك في سنة احدى وسبعين ، ثم عاد من العراق الى باحميراء »

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٥ .

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٨ .

ثانيا : تجنيد عبد الملك كل قادر على حمل السلاح في الشام :
لقد كان عبد الملك يدرك خطورة الأمر الذي أقدم عليه ، ورأى
أن تكون معركته مع مصعب معركة فاصلة حاسمة . ولذا عبأ كل
قوى الشام ، وأجبر كل قادر على حمل السلاح على الخروج معه ،
واستعمل في ذلك كل صنوف الاضطهاد والقسوة .

هذا بينما كان جيش مصعب قد أنهكته الحروب الطويلة مع
الخوارج والمختار ، حتى أنه « لما نظر أصحاب مصعب الى كثرة
جموع عبد الملك تواكلوا وشملهم الرعب » (١) .

واستعان عبد الملك في تعبئة هذا الجيش الكثيف برجله القوي
الحجاج بن يوسف الثقفي ، فكان يرغم أهل الشام على الالتحاق
بجيش عبد الملك . فيروى ابن قتيبة (٢) أن عبد الملك « أراد أن
يخرج الى مصعب ، فجعل يستنفز أهل الشام فيبطئون عليه . فقال
له الحجاج بن يوسف ، وكان يومئذ في حرس ابان بن مروان :
يا أمير المؤمنين سلطني عليهم فأعطاه ذلك . فكان لا يمر على بيت
رجل من أهل الشام تخلّف الا أحرق عليه بيته ، فلما رأى ذلك
أهل الشام خرجوا » .

ثالثا : انشغال مصعب بقتال الخوارج : عبأ عبد الملك كل
قوة استطاع أن يجمعها لقتال مصعب . فكان على مصعب أن يعدّ
من الجنود ما يمكنه من الصمود في وجه جند الشام . ولكن
مصعبا أخطأ اذ وزّع جهوده في ميدانين ، فقد بعث جانبا كبيرا

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٣١٧ .

(٢) الامامه والسياسة ج ٢ ص ١٩ .

من رجاله لقتال الخوارج ، وولى قيادتهم المهلب بن أبي صفرة ، فحرم بذلك جيشه الذى قاتل الشام من خبرة هذا القائد الباسل الذى لم يكن هناك غيره جديرا ببقاء عبد الملك . ولكننا نجد العذر لمصعب ، فقد كان أهل العراق عامة وأهل البصرة خاصة فى فزع دائم من الخوارج ، بل كان خوفهم من الخوارج يفوق خشيتهم جنود الشام ، ولذا أصرّ أهل البصرة على أن يتولى مصعب قتال الخوارج قبل محاربته عبد الملك ، وخشى مصعب أن يرفض طلبهم فيثير مخاوفهم وسخطهم ، فيمتنعوا عن مؤازرته ضد جيش الشام . كما أراد مصعب ، فى نفس الوقت ، أن يؤمن جيشه الذى يقاتل الجيش الأموى من خطر هجوم الخوارج ، فيقع بين نارين صور المؤرخ ابن الأثير ^(١) الموقف فقال : « وسار عبد الملك الى العراق ، فلما بلغ مصعبا مسيره وهو بالبصرة أرسل الى المهلب وهو يقاتل يستشيريه ، وقيل بل أحضره عنده . فقال لمصعب : أعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فلا تبعدنى عنك . فقال له مصعب : ان أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا حتى أجعلك على قتال الخوارج ، وهم قد بلغوا سوق الأهواز وأنا أكره اذ سار عبد الملك الى أن لا أسير اليه فاكفى هذا الثغر . فعاد اليهم وسار مصعب الى الكوفة ومعه الأحنف فتوفي بالكوفة » .

رابعا : خيانة بعض زعماء العراق : لم يقتصر عبد الملك فى

القضاء على مصعب بن الزبير على تعبئة الجيوش ، بل رأى أن يلجأ الى كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . ولذا غمر عبد الملك أنصار مصعب بالصلوات والهدايا ، ومنأهم بالمناصب العالية ، فدانوا له بالطاعة وتخلوا عن مصعب . وقد مر بنا اغراء عبد الملك لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بالمال والعطايا ، فنكت بيعة عبد الله بن الزبير ، وخرج يناهض مصعبا . وبدأ عبد الملك بالمروانية المقيمين بالعراق ، فخدعهم بأن منأهم فدانوا له ، فقد « كتب عبد الملك الى المروانية من أهل العراق ، فأجابه كلهم وشرطوا عليه ولاية أصبهان ، فأنعم بها لهم كلهم » (١) .

ثم كتب عبد الملك الى رؤساء أهل العراق ، وكبار أنصار مصعب فصار يرغبهم ويرهبهم ، وأخفى كل منهم كتاب عبد الملك اذ كان راضيا على ما جاء فيه ، الا ابراهيم بن الأشتر قائد مصعب ، الذى بلغ الاخلاص به الى حد أنه أبى أن يفتح الكتاب ويقرأ ما احتواه ، بل هرع به الى مصعب يعرضه عليه ويحفظه من خيانة رؤساء جنده ، واقترح عليه أن يضرب أعناقهم فأبى ذلك ، فاقترح عليه حبسهم ليكتفى غدرهم . ولكن مصعبا رفض تنفيذ هذا الاقتراح ؛ فترك الفتنة والخيانة تمرح بين جنده .

قال ابراهيم بن الأشتر لمصعب : ما كنت لأتقلد الغر والخيانة ، ووالله ما عند عبد الملك أحد من الناس بأأس منه منى ، ولقد كتب الى أصحابك كلهم مثل الذى كتب لى ، فأطعنى واضرب

أعناقهم . فقال مصعب : اذا لا يناصرني عشائريهم . فقال ابن الأشتر : فأوقرهم حديدا وابعث بهم الى أرض كسرى واحبسهم هناك وוכל بهم من أن غلبت وتفرقت عشائريهم عنك ضرب رقابهم ، وان ظهرت منيت على عشائريهم باطلاقهم . فقال مصعب : انى لى شغل عن ذلك !! (١) .

وبعد أن نجح عبد الملك فى اغراء قواد مصعب وبعض زعماء العراق حتى خانوا الحركة الزيرية ، أراد أن يدفع مصعب الى خيانة أخيه عبد الله بن الزبير . فقد التقى عبد الملك بمصعب قبل المعركة الفاصلة ، وكانت تجمعها صداقة ومودة قديمة ، فقال عبد الملك لمصعب : يا مصعب ، قد علمت ما أجرى الله بينى وبينك منذ ثلاثين سنة ، ولما اعتقدته من اخائى وصحبتي ، والله أنا خير لك من عبد الله وأنفع منه لدينه ودنياك ؛ فثق بذلك منى وانصرف الى وجوه هؤلاء القوم وخذ فى بيعة هذين المصريين ، والأمر أمرك لا تعص ولا تخالف ، وان شئت اتخذتك صاحباً لا تخفى ووزيراً لا تعصى . فقال له مصعب : ما ذكرت فى من ثقتك بى ومودتى واخائى ، فذلك كما ذكرته ، ولكنه بعد قتلك عمرو بن سعيد لا يطمأن اليك ، وهو أقرب رحماً منى اليك ، وأولى بما عندك ، فقتلته غدراً ، والله لو قتلته فى ضرب ومحاربة لمستك عاره ولما سلمت من اثمه . وأما ما ذكرت من أنك خير لى من أخى ، فدع

عنك أبا بكر (١) وإياك وإياه لا تتعرض له واتركه واتركك وأربح عاجل عاقبته ، وأرح الله في السلامة من عافيته » (٢) .

خامسا : ميل العراق الى الهدوء والسلام : رأى أهل العراق وقد شاهدوا خيل عبد الملك ورجله ، أن يخلدوا للهدوء والسلام ، طلبا للعافية ونجاة من هذا الخطر الداهم . وقد كانوا يعلمون كراهية جند الشام لأهل العراق . ويوضح ذلك الموقف ما قاله قيس بن الهيثم لأهل العراق حينما رأى تخاذلهم ، فأخذ يحذرهم من جند الشام فقال : ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطمعوا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم ، والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح ان أرسله في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وان الرجل من وجوههم ليغزو على فرسه وزاده خلفه (٣) . وخير ما يصور خوف أهل العراق مما قد ينزل بهم عند هزيمتهم أمام عبد الملك ، ميل زعمائهم لمهادنة عبد الملك ؛ مثل زفر بن الحارث الذي كان قد ولاه عبد الله ابن الزبير على قنسرين ثم هرب الى قرقيسيا ، وقد هادن عبد الملك وباعيه (٤) ، بل أرسل ابنه الهذيل ضمن جند عبد الملك (٥) .

سادسا : قلة دراية مصعب بالفنون الحربية : كان مصعب ابن الزبير على جانب كبير من الشجاعة والبطولة ، وقد اعترف

(١) أبا بكر : يقعد مصعب بذلك أخاه عبد الله بن الزبير .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٧ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٥ .

له الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بذلك ، فقال لمحالسيه أن مصعب أشد الناس بأسا كما أنه « أكثر الناس مالا ، جعلت له الأمان وولاية العراق ؛ وعلم أنى ساقى له المودة التى كانت بيننا فحمى أنفا وقاتل حتى قتل » (١) .

حمى أنفه أن يقتل الضيم مصعب
فمات كريما لم تدم خلائقـــــــــــــــــه
ولو شاء أعطى الضيم من رام هضمه

فعاش ملوما فى الرجال طرائقه
ولكن مصعبا رغم شجاعته وبسالته ، كان قليل الدراية بالفنون الحربية . فقد قال عبد الملك حينما نصحه بعض أهل بيته أن يمكث بدمشق ويرسل الجيوش الى مصعب : « انه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشى له رأى ؛ ولعلى أبعث من له شجاعة لا رأى له ، وانى أجد فى نفسى أنى بصير بالحرب شجاع بالسيف ان ألجئت الى ذلك . ومصعب فى بيت شجاعة ، أبوه أشجع قریش ، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ، يجب الخفض ، ومعه من يخالقه ومعى من ينصح لى » (٢) .

سابعا : عبد الله بن الزبير لا يمد مصعبا بالمساعدة : كان جديرا بعبد الله بن الزبير وقد رأى خروج عبد الملك لقتال أخيه مصعب وقد عبأ له كل ما استطاع أن يجمع من قوى ، أن يسرع الى معاونة أخيه ليقوى على المقاومة ، وخاصة أنه لم يبق لعبد الله

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٦ .

من الأمصار سوى العراق والحجاز ، وكان في ضياع العراق ضياع
مورد المال والرجال . وكان عبد الملك يدرك مدى أهمية استيلائه
على بلاد العراق ، فخرج بنفسه على رأس جيشه ؛ وأعلن أن الشام
بلد قليل المال . وكان جديرا بعبد الله بن الزبير أن يعبى جيشا
يمد أخاه مصعبا ؛ ويجند له كل قادر على حمل السلاح ، وأن
يخرج بهذا الجيش فيقوده الى بلاد العراق . وقد وقف عبد الملك
على منبر الكوفة فقال : « ان عبد الله بن الزبير لو كان خليفة
كما يزعم لخرج فأتى بنفسه ، ولم يغرز ذنبه في الحرم » (١) .

ثامنا : عدم بذل عبد الله بن الزبير الأموال لأهل العراق :
لا شك أن سلاح المال كان سلاحا ماضيا يجذب القلوب ويأسر
النفوس . وكان على عبد الله بن الزبير اذا أراد أن يضمّن ولاء أهل
العراق واخلصهم أن يبذل لهم المال والعطايا . ولكن ابن الزبير
استنكف أن يعطيهم المال فيشتري اخلاصهم . ولذا انصرفوا عنه
الى عدوّه عبد الملك بن مروان الذي استمر يغدق عليهم الصلات
والعطايا ، فدانوا له بالطاعة ، وتخلّوا عن مصعب بن الزبير ،
وتركوه يلقي مصيره .

كان مصعب بن الزبير ، بعد قتله المختار ، قد قدم حاجا الى
مكة في سنة ٧١ هـ ، فتوجه ومعه وجوه أهل العراق الى عبد الله
ابن الزبير فقال مصعب لأخيه . يا أمير المؤمنين قد جئتكم برؤساء
أهل العراق وأشرافهم ، كل مطاع في قومه ، وهم الذين سارعوا

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٢ - ١٣ .

الى بيعتك وقاموا باحياء دعوتك وناذبوا أهل معصيتك وسعوا في قطع عدوهم ، فأعطهم من هذا المال . فقال عبد الله بن الزبير لأبيه مصعب : جئتنى بعبيد أهل العراق وتأمرنى أن أعطيهم مال الله ، لا أفعل ، وأيم الله لوددت أنى أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدرهم عشرة من هؤلاء برجل من أهل الشام . وصور المؤرخ ابن قتيبة موقف هؤلاء الزعماء العراقيين بعد سماعهم مقالة عبد الله بن الزبير فقال : « ثم انصرفوا عنه وقد يسوا مما عنده لا يرجون رفته ، ولا يطمعون فيما عنده ، فاجتمعوا وأجمعوا على خلعه ، فكتبوا الى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا » (١) وعبر أحد أعضاء وفد العراق لعبد الله بن الزبير عن مشاعرهم فقال له : « أحبيناك نحن ، فأحببت أنت أهل الشام ، وأحب أهل الشام عبد الملك !! » (٢) .

تاسعا : غضب الشيعة والصحابة لمقتل المختار : كان معظم أهل العراق من شيعة على بن أبى طالب ، فلا يوالون سوى آل بيته . وكانوا قد آلمهم اقدام الأمويين على قتل الحسين بن على في كربلاء ، وناهضوا الدولة الأموية ووقفوا الى جانب كل ثائر عليها ، ولذا أيدوا عبد الله بن الزبير حين أعلن الثورة على الدولة الأموية . ولكن شيعة العراق آلمهم أن ابن الزبير لم يطالب بثار الحسين ، كما وقف من التوايين الذين هبوا للثار للحسين موقفا سلبيا . حتى اذا ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى ونادى بأنه وزير

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٧ - ١٨ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٢٨ .

محمد بن الحنفية وأمينه وأن كل ما يرمى اليه هو القضاء على قتلة الحسين ، التفوا حوله وآزروه ، وزاد قتله عبيد الله بن زياد من مناصرتهم له . ولذا كان اقدام ابن الزبير على قتال المختار ثم قتله عاملا على اثاره مشاعر العراقيين ضد الحركة الزبيرية في بلاد العراق .

كما غضب بعض زعماء أبناء الصحابة لمصرع الحسين ، مثل عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن العباس . التقى مصعب بن الزبير يوما بعبد الله بن عمر ، فسلم مصعب عليه وقال : أنا ابن أخيك مصعب . فقال ابن عمر له : أنت القاتل سبعة آلاف من أهل القبلة في غداة واحدة غير ما بدا لك . فقال مصعب : انهم كانوا كفره فجرة . فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا !! وقال ابن الزبير لعبد الله بن العباس : ألم يبلغك قتل الكذاب ؟ فقال ابن العباس : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبي عبيد . فقال : قد بلغني قتل المختار . فقال ابن الزبير : كأنك قد نكرت تسميته كذابا وترجع له ؟ ! فأجاب ابن العباس : ذاك رجل قتل قتلتنا وطلب ثأرنا وشفى غليل صدورنا وليس جزاؤه منا الشتم والشماتة . وقال عروة بن الزبير لابن العباس : قد قتل الكذاب المختار وهذا رأسه . فقال ابن العباس : قد بقيت لكم عقبة كؤود فان صعدتموها فأنتم وأنتم والا فلا . يعنى عبد الملك ابن مروان (١) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١١٧ .

قروب شمس الحركة الزيرية في الحجاز :

كان القضاء على الحركة الزيرية في العراق ايذانا بغروب شمس عبد الله بن الزير . فقد استقرت الأمور لعبد الملك ابن مروان في جميع الأمصار الاسلامية عدا بلاد الحجاز وقد حان الوقت لانتزاعها من أيدي عبد الله بن الزير .

شعر أنصار عبد الله بن الزير بحرج موقفه ، فطلبوا لأنفسهم النجاة والسلامة ، وسارع بعضهم بالبيعة لخليفة الشام عبد الملك ابن مروان بعد أن تخلى القدر عن خليفة الحجاز وقد صور المؤرخ ابن الأثير ^(١) انفضاض جند عبد الله بن الزير عن تأييد حركته فقال : « وحين قتل مصعب كان المهلب يحارب الأزارقة بسولاف (بلد بفارس) على شاطئ البحر ، ثمانية أشهر . فبلغ قتله الأزارقة قبل المهلب فصاحوا بأصحاب المهلب ما قولهم في مصعب . قالوا : أمير هدى وهو ولينا في الدنيا والآخرة ونحن أولياؤه . قالوا : فما قولكم في عبد الملك ؟ قالوا : ذلك ابن اللعين نحن نبرأ الى الله منه وهو أحل دما منكم . قالوا : فإن عبد الملك قتل مصعبا وستجعلون غدا عبد الملك أمامكم . فلما كان الغد سمع المهلب وأصحابه قتل مصعب فبايع المهلب الناس لعبد الملك ابن مروان ، فصاح بهم الخوارج : يا أعداء الله ما تقولون في مصعب ؟ قالوا : يا أعداء الله لا نخبركم . وكرهوا أن يكذبوا أنفسهم . قالوا : وما قولكم في عبد الملك ؟ قالوا : خليفتنا .

ولم يجدوا بداً اذ بايعوه أن يقولوا ذلك . قالوا : يا أعداء الله أنتم بالأمس تبرؤن منه في الدنيا والآخرة وهو اليوم أمامكم وقد قتل أميركم الذي كنتم تولونه ؛ فأيهما المهتدى وأيهما البطل ؟ قالوا : يا أعداء الله رضينا اذ كان يتولى أمرنا ويرتضى بهذا . قالوا : لا والله ولكنكم اخوان الشياطين وعبيد الدنيا !! » .

أبدي عبد الله بن الزبير ألمه لمصرع أخيه مصعب وكان من أبرز قواده ، وعضد الحركة الزبيرية ، وأدرك أن وفاته هي أول مسمار يدق في نعش هذه الحركة . وأراد عبد الله بن الزبير أن يكتنم نبأ مصرع أخيه مصعب عن أهل الحجاز حتى لا يفت ذلك في عضدهم وروحهم المعنوية ، ولكن سرعان ما ذاع النبأ في مدن الحجاز « وتحدث بذلك العبيد والاماء في سكك المدينة ومكة » (١) . واضطر عبد الله بن الزبير أن يفضى الى أنصاره بنبا مصرع مصعب ، ولكنه رأى أن يصوغ النبأ في صورة مخففة .

قال عبد الله بن الزبير : الحمد لله الذي له الخلق والأمر يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء . ألا وانه لم يذل الله من كان الحق معه وان كان نذرا ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه ، وان كان معه الأنام طرّاً . ألا وانه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا . أتانا قتل مصعب رحمة الله عليه . فأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذي أحزننا فان لفرار الحميم لوعة يجدها حميمة

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٥ .

عند المصيبة ثم يرعوى من بعدها ذو الرأى الى جميل الصبر
وكريم العزاء . ولئن أصبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبله ،
وما أنا من عثمان بخلو مصيبة وما مصعب الا عبد من عبيد الله
وعون من أعوانى ألا وان أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه
وباعوه بأقل الثمن ؛ فان يقتل فانا والله ما نموت على مضاجعنا
كما يموت بنو أبى العاص ، والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى
الجاهلية ولا الاسلام ؛ وما نموت الا مقصا بالرماح وموتا تحت
ظلال السيوف ، الا انما الدنيا هارية من الملك الأعلى الذى
لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ؛ فان تقبل لا آخذها أخذ الأشر
البطر ؛ وان تدبر لا أبك عليها بكاء الحزق المهين (١) .

رأى عبد الملك بن مروان أنه وقد نجح فى القضاء على الحركة
الزبيرية فى العراق ، فقد بقى عليه أن يقتلع جذور الحركة من
منبتها بالحجاز . وخاصة أن أهل الحجاز وبعض أهالى الأمصار
كانوا يرون عدم شرعية خلافة عبد الملك ؛ حيث أن خلافة عبد الله
ابن الزبير سابقة لها . فقد روى ابن حجر الهيثمى (٢) : « ثم خرج
مروان بن الحكم فغلب على الشام ومصر واستمر الى أن مات
سنة ٦٥ هـ وعهد بها الى ابنه عبد الملك ولتغلبه وقد بويج
ابن الزبير لم يعد من أمراء المؤمنين ، وانما هو باغ خارج على

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢١٤ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٠ .

(٢) تاريخ اخوان الصفا بنيد من أخبار الخلفاء (مخطوط)

ابن الزبير ولم يصح عهده لابنه وانما صحّت خلافته بعد تغلبه
وتجهيزه الحجاج لقتاله في أربعين ألفا وقتله وصلبه »

شرع عبد الملك بن مروان في تحقيق مشروعه للقضاء على
الحركة الزبيرية في الحجاز ، فبدأ بعدة محاولات لم يكن نصيبها
من النجاح كبيرا . حتى اذا أدرك عدم جدوى هذه المحاولات ؛
رأى أن يبعث قائده العظيم الحجاج بن يوسف الثقفي

أما هذه المحاولات الأولية ، فقد بعث عروة بن أنيف على
رأس جيش يتألف من ستة آلاف جندي من أهل الشام . وكان
هذا القائد حريصا ؛ فلم يدخل المدينة حيث كان أهلها ما زالوا
حديثي عهد بفظائع الحرة ؛ وكانوا على استعداد لبذل الدماء
والأخذ بالثأر ولو استشهدوا في سبيل ذلك . ولذا رأى عروة
أن يعسكر خارج المدينة ثم بدأ الكر والفر ، فهرب عامل ابن الزبير
الحريث بن حاطب ، فكان عروة يخرج للصلاة بالناس طوال النهار
ويعود ليلا الى معسكره حيث أنه لم يكن يأمن على نفسه في
المبيت بالمدينة . واستمر عروة على هذه الحال شهرا حتى أمره
عبد الملك بالرجوع الى الشام .

وانتهز عبد الله بن الزبير الفرصة ، فأرسل عاملا جديدا هو
سليمان بن خالد . وبعث عبد الملك جيشا جديدا بقيادة عبد الواحد
ابن الحريث بن الحكم الذي نجح في قتل سليمان بن خالد عامل
ابن الزبير . وولى ابن الزبير واليا جديدا هو جابر بن الأسود
ابن عوف ، وكان قوى الشكيمة شجاعا بأسلا فبعث بجيش يقوده

أبو بكر بن أبي قيس لقتال جيش الشام ، فنجح في أن يوقع الهزيمة بهم وأسر عددا كبيرا منهم ثم قتل هؤلاء الأسرى ، مما أثار غضب عبد الملك فأرسل جيشا جديدا بقيادة طارق بن عمر الذي حاز نصرا كبيرا .

وبعث ابن الزبير الى عامله بالبصرة يطلب منه مددا ، فأعانه بجيش نجح أن يهزم به جند الشام هزيمة منكرة . وهكذا أصبحت المدينة يتداولها قواد عبد الله بن الزبير تارة ، وقواد الشام تارة أخرى . ثم انشغل عبد الملك بقتال مصعب بن الزبير بالعراق ، حتى اذا قتله عزم على القضاء على الحركة الزبيرية في الحجاز ، فاختار الحجاج بن يوسف الثقفي ليوجهه على رأس جيش لقتال عبد الله بن الزبير بالحجاز .

عبد الملك يوجه الحجاج لقتال ابن الزبير :

ولّى عبد الملك بن مروان قائده الحجاج بن يوسف الثقفي الجيش الذي يتولى غزو عبد الله بن الزبير في مكة . وقد تساءل عن المدافع لعبد الملك لأن يحجم عن قيادة الجيش المنوط به القضاء على الحركة الزبيرية بالحجاز ، بينما حرص على أن يقود الجيش الذي انتزع العراق من مصعب بن الزبير . ويفسر المؤرخون ذلك بقصة يروونها ، فيقولون : « وكان السبب في توجيهه الحجاج اليه دون غيره فيما ذكر أن عبد الملك لما أراد الرجوع الى الشام ، قام اليه الحجاج بن يوسف فقال : يا أمير المؤمنين انى رأيت في

منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلبته ، فابعثنى اليه وولنى قتاله ، فبعثه فى جيش كثيف من أهل الشام » (١) .

ونحن نجد العذر لعبد الملك بن مروان فى الخروج بنفسه لقتال مصعب ، واحجابه عن قتال عبد الله بن الزبير . فقد كان عند خروجه الى العراق واثقا من الانتصار ، بينما كان يرى فى خروجه الى الحجاز مغامرة خطيرة غير مضمونة العواقب . فقد نجح عبد الملك فى شراء زعماء العراق بما أغدقه عليهم من صلات وعطايا . كما كانت بلاد العراق مسرحا لكثير من الحركات السياسية التى أدت الى انقسام أهل العراق شيعا وأحزابا . وشجع عبد الملك على الخروج ، ضعف جيش مصعب نتيجة صراعه الطويل مع الخوارج .

أما بلاد الحجاز ، فقد كان معقلا للعنصر العربى الأصيل ، وموئلا لبنى هاشم الذين لم ينسوا انتزاع بنى أمية حقهم فى الخلافة ، ومركزا لأبناء الصحابة الذين يعارضون مبدأ الوراثة فى الخلافة ، كما كان أهل الحجاز يحقدون على بنى أمية ثقلهم حاضرة الخلافة من مدينة الرسول الى دمشق الشام . ولم ينس أهل المدينة واقعة الحرة وفضائعها وباتوا يأملون الأخذ بثأر قتلاهم . ولم ينس أهل مكة غزو الجيش الأموى بقيادة الحصين ابن نمير الكعبة فى عهد يزيد بن معاوية وضربها بالمنجنيق . وكان عبد الملك يدرك أن الجيش الذى يوجهه لقتال عبد الله بن الزبير

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٢٠ ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .
ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢١ .

لابد مضطر الى غزو مكة وحصار ابن الزبير في الكعبة ، فرأى
ألا يتحمل هذه المسئولية الخطيرة ورأى أن يلقيها على قائده
الحجاج بن يوسف الثقفى . وتكاثفت هذه العوامل مجتمعة
وجعلت عبد الملك يعدل عن قيادة الجيش الزاحف الى الحجاز .

خرج الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة ٧٢ هـ فى ألفين من
جند الشام ؛ قاصدا مكة معقل ابن الزبير . وكان الحجاج ذكيا
فطنا ، فلم يتبع الطريق الذى يمر بالمدينة حيث كان واقفا على
شعور أهلها العدائى لبني أمية ، فقد كانوا على استعداد
للاستشهاد فى سبيل أخذ الثأر لقتلاهم يوم الحرة . ورأى الحجاج
أن يدتخر جهوده لقتال ابن الزبير بمكة . ولذا سلك طريق العراق
ونزل بالطائف ، رغم طول هذا الطريق .

وبدأ الحجاج فى مناوشة عبد الله بن الزبير ليقف على قوته
الحقيقية ، وليبث الرهبة والخوف فى نفوس أنصار ابن الزبير
« فكان يبعث البعوث الى عرفة فى الحل ؛ ويبعث ابن الزبير بعثا
فيقتتلون هنالك ، فكل ذلك تهزم خيل ابن الزبير وترجع خيل
الحجاج بالظفر » (١) .

أدرك الحجاج ضعف جند ابن الزبير ، ولذا عزم على المسير
اليه ، فبعث الى الخليفة عبد الملك بن مروان يستأذنه فى قتال
ابن الزبير وحصار الكعبة ويخبره بضعف ابن الزبير وتفرق
أصحابه ويطلب منه الامداد (٢) . فلما وصل كتاب الحجاج الى

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .

عبد الملك كبر وكبر معه من كان في داره (١) . ثم كتب عبد الملك الى طارق بن عمرو يأمره بأن يلحق بمن معه من الجند بالحج فصار في خمسة آلاف من أصحابه حتى لحق به (٢) .

تقدم القائدان نحو مكة ، فبلغوها في ذي القعدة سنة ٧٢ هـ ، في الوقت الذي كان المسلمون يستعدون فيه لأداء فريضة الحج . فنزل بقرب بئر ميمون ، وحج بالناس ، ولكنه لم يستطع الطواف بالكعبة أو السعى بين الصفا والمروة حيث منعه عبد الله بن الزبير من ذلك ، كما لم يستطع ابن الزبير وأنصاره أداء فريضة الحج . حتى اذا قارب موسم الحج من الانتهاء ، بدأ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار .

بعث عبد الله بن عمر الى الحجاج ينهاء عن قذف الكعبة بالأحجار ويقول : اتق الله واكف هذه الحجارة عن الناس ، فانك في شهر حرام وبلد حرام ، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيرا . وان المنجنيق قد منعهم عن الطواف ، فاكف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليكم بمكة (٣) . ورأى الحجاج أن ينتظر حتى ينتهي الناس تماما من الحج .

فرغ موسم الحج ، فنادى منادى الحجاج في الناس أن ينصرفوا الى بلادهم التماسا للسلامة والنجاة من الأحجار التي يعزم الحجاج أن يقذفها على ابن الزبير . ثم بدأ الحجاج ينفذ

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٦ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .

وعده . وكان الوقت حينئذ شتاء ، فأخذت السماء تبرق وترعد ، ونزلت صاعقة على جيش الحجاج فقتلت عددا كبيرا منهم . وشعر جند الشام بالخوف ، فقد اعتبروا هذه الصاعقة مظهرا لغضب السماء لانتهاكهم حرمة بيت الله الحرام في الشهر الحرام ، ولذا أمسك الشاميون عن قذف الأحجار ، وخشى الحجاج من عواقب تخاذل جنده ، فأقبل عليهم يشجعهم ويثير حماسهم ، وأخذ يقذف الأحجار بنفسه . وشاءت المقادير أن تعين الحجاج ، فنزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت كثيرا منهم ، فخطب الحجاج في جنده فقال : ألا ترون أنهم يصابون ؛ وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة ؟ (١) ۞

مصرع عبد الله بن الزبير :

أخذت الأحجار تتكاثر على الكعبة حيث اعتصم عبد الله ابن الزبير وأصحابه ، فكانت تصيب مقتلا من كثير من رجاله ، فرأوا أنه لا طائل من وراء المقاومة ، وأن مصيرهم الموت إذا استمروا في القتال ، فخرج كثير منهم الى الحجاج بن يوسف يطلبون منه الأمان ، فأجابهم الى طلبهم ليشجع غيرهم على نبذ القتال . وصوّر المؤرخ الطبري (٢) حرج موقف ابن الزبير فقال : « فلم تزل الحرب بين ابن الزبير والحجاج حتى كان قبيل مقتله ، وقد تفرق عنه أصحابه ، وخرج عامة أهل مكة الى الحجاج في

(١) الطبري ج ٥ ص ٣٠ .
(٢) المصدر السابق .

الأمان .. وقد تفرّق عنه أصحابه وخذله من معه خذلانا شديدا وجعلوا يخرجون الى الحجاج حتى خرج اليه نحو من عشرة آلاف ، وذكر أنه كان ممن فارقه وخرج الى الحجاج ابنه حمزة وحبّيب فأخذا منه لأتسهما أمانا » .

شعر عبد الله بن الزبير أنه ملاق حتفه لا محالة ؛ فطلب من ولده الزبير أن يخرج الى الحجاج يطلب منه الأمان أسوة باخوته حمزة وحبّيب ، ولكن الزبير أبى الا الصمود الى جانب أبيه حتى الموت ، فكان له ما أراد ، وشارك أباه في مصيره المحتوم ، فلقى حتفه معه . وتقدم بعض أنصار عبد الله بن الزبير يقترحون عليه أن يكتب الى عبد الملك يطلب الأمان ، ولكنه أبى ذلك اباء تاما وقال : كنت أكتب اليه من عبد الله أبى بكر أمير المؤمنين ؛ فوالله لا يقبل هذا منى أبدا ، أو أكتب اليه لعبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير ، فوالله لا أن تقع الخضراء على الغبراء أحب الى من ذلك (١) .

وأدرك عروة بن الزبير أن أخاه عبد الله قد أشرف على الموت ؛ فدفعته عاطفة الأخوة أن يقصد الحجاج طالبا له الأمان . وعاد عروة الى أخيه عبد الله فقال له : هذا خالد بن عبد الله بن خالد ابن أسيد وعمرو بن عثمان بن عفان يعطيانك أمان عبد الملك على ما أحدثت أنت ومن معك وأن تنزل أى البلاد شئت ، لك بذلك

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢١ .

عهد الله وميثاقه (١) . ورفض ابن الزبير قبول هذا الأمان . فقال عروة : يا أمير المؤمنين قد جعل الله لك أسوة . فقال عبد الله : من هو أسوتي ؟ فقال : الحسين بن علي بن أبي طالب ، خلع نفسه وبائع معاوية . فقال عبد الله : يا عروة قلبي اذا مثل قلبك والله لو قبلت ما تقولون ما عشت الا قليلا وقد أخذت الدنية ، وما ضربة بسيف الا مثل ضربة سوط ، لا أقبل شيئا مما تقولون ! (٢) .

ولما شعر عبد الله بن الزبير بقرب منيته ، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ، وقد بلغت من العمر مائة عام ، ولم يقع لها سن ولم تبيض من شعرها واحدة . ودار بين الأم وابنها حديث مؤثر ، ثبت شهامة المرأة العربية وشجاعتها ، ويبين رأى عبد الله بن الزبير في نفسه وفي سياسته .

دخل عبد الله بن الزبير على أمه أسماء وقد لمس تخاذل أنصاره عن نصرته فقال لها : يا أمة ، خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، فلم يبق معي الا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت أسماء : أنت والله يا بني أعلم بنفسك ان كنت تعلم أنك على حق واليه تدعو فامضى له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبك يتلعّب بها غلمان بني أمية ، وان كنت انما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكك من قتل معك ، وان

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ح ٢ ص ٢١ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٣٠ .

قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعلاً
الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ، القتل أحسن .
ودنا ابن الزبير من أمه أسماء فقبّل رأسها وقال : هذا والله
رأبى والذي قمت به داعياً الى يومى هذا ، ما ركنت الى الدنيا
ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى الى الخروج الا الغضب لله أن
يستحل حرمة ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدينى بصيرة مع
بصيرتى ، فانظري يا أمة فانى مقتول من يومى هذا فلا يشتد حزنك
وسلمى لأمر الله ، فان ابنك لم يتعمد اتيان منكراً ولا عملاً بفاحشة
ولم يجر في حكم الله ولم يعذر في أمان ، ولم يتعمد ظلم مسلم
ولا معاهد ، ولم يبلغنى ظلم من عمّالى فرضيت به بل أنكرته ؛
ولم يكن شيء آخر عندى من رضى ربي ، اللهم انى لا أقول هذا
تزكية منى لنفسى أنت أعلم بى ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عني .
فقلت أسماء لابنها عبد الله بن الزبير : انى لأرجو من الله
أن يكون عزائى فيك حسناً ، ان تقدمتنى وان تقدمتك ففى نفسى
أخرج حتى أنظر الى ما يصير أمرك . فقال عبد الله : جزاك الله يا أمة
خيراً فلا تدعى الدعاء لى قبل وبعد . فقلت أسماء : لا أدعه أبداً ،
فمن قتل على باطل ، فقد قتلت على حق . ثم قالت : اللهم أرحم
طول ذلك القيام الطويل وذلك النحيب والظما في هواجر المدينة
ومكة وبرّه بأبيه وبى ، اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما
قضيت فأثبنى في عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين (١) .

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٧ .

أثار هذا الدعاء حماسة عبد الله بن الزبير ، فخرج الى أصحابه وحمل على جند الشام حملة قوية ، فقتل عددا كبيرا منهم . ولكن الحجاج ما لبث أن جمع فلول جيشه واستعد للمعركة الفاصلة . وتجلّى دهاء الحجاج ، فقد خشى إذا انفرد بقتل ابن الزبير أن يثار قومه له ، ورأى أن يشرك أهل الأمصار جميعا في دمه ، فرسم خطة محكمة للقضاء عليه « وجعل أهل الشام على أبواب المسجد رجلا من أهل كل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الذي يواجه الكعبة ، ولأهل دمشق باب بنى شيبة ، ولأهل الأردن باب الصفا ، ولأهل فلسطين باب بنى جمح ، ولأهل قنسرين باب بنى تميم ، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح الى المروة ، فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ومرة في هذه الناحية ، فكانه أسد في أجمة ما يقدم عليه الرجال يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم (١) .

أصرّ عبد الله بن الزبير أن يستमित في القتال حتى يستشهد ، وأخذ يحث ما بقي من أصحابه على المضي في مواجهة جيش الشام فخطب فيهم : يا آل الزبير ، لو طبتم بى نفسا عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا في الله ، فلا يرعبكم وقع السيوف ، فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها ، صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم ، غضوا أبصاركم من البارقة وليشغل كل امرئ

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٨ .

قرنه ، ولا تسألوا عني ، فمن كان سائلا عني فاني في الزرع
الأول ؛ احملاوا على بركة الله (١) .

وعاد عبد الله بن الزبير يهاجم على جيش الشام ، فحمل عليهم
حملة قوية ، ولكن ما لبث أن أصابه حجر في جبينه ؛ فأشدد
يقول :

يا رب ان جنود الشام قد كثروا

وهتكوا من حجاب البيت أستارا

يا رب اني ضعيف الركن مضطهد

فابعث الى جنودا منك أنصارا (٢)

ولكن سرعان ما تكاثر جند الشام على عبد الله بن الزبير
وأنصاره من كل باب ، فسقط ابن الزبير صريعا ، وتفرق عنه
أنصاره يبتغون السلامة والنجاة . وكان مصرعه في ١٤ جمادى
الأولى سنة ٧٣ هـ . وكان لمقتله رنة أسي وألم في نفوس أهل مكة
فبكوه جميعا وسخطوا على الحجاج . وأراد الحجاج أن يهوّن
من الأمر ، فخطب في أهل مكة فقال : يا أهل مكة ، بلغني اكباركم
واستفظاءكم قتل ابن الزبير ، ألا وإن ابن الزبير كان من أخيار
هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ، ونازع فيها أهلها ، فخلع طاعة
الله واعتصم بحرم الله ، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم
حرمة الجنة لأن الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له
ملائكته وأباحه كرامة وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة .

(١) المصدر السابق .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٧ .

بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، أذكروا الله يذكركم (١) .

وأراد الحجاج أن ينكل بعبد الله بن الزبير ، فأمر بصلب جثته ، ليثير الرعب في قلوب أنصاره ، ولكن ذلك أثار العطف والشفقة عليه ، والسخط على الحجاج ، بل رثى له أعداؤه .
مر عبد الله بن عمر بن الخطاب على جثمان ابن الزبير المصلوب فقال : السلام عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنهارك عن هذا ، ولقد كنت صواما قواما وصولا للرحم ، أما والله ان قوما أنت شرهم لنعم القوم (٢) .

وتأملت أسماء بنت أبي بكر لصلب ابنها ، وقصدت الحجاج تسأله أن يسمح لها بدفن جثمان عبد الله بن الزبير ، ولكنه أبى ذلك ، فقالت له : أشهد أني لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (يخرج من ثقيف كذاب ومبير) فأما الكذاب فهو المختار ، وأما المبير فما أظنك الا هو (٣) . ولكن عبد الملك كان أكثر تسامحا من قائده ، فقد بعث الى الحجاج ينهاه عن صلب ابن الزبير ، ويأمره بالسماح لأسماء بأن تدفن جثة ولدها .

وبعد مصرع عبد الله بن الزبير ، نقض الحجاج بنيان الكعبة الذي كان ابن الزبير قد بناه ، ثم أعاد البناء كما كان من قبل .
وأخذ الحجاج البيعة لعبد الملك بن مروان من أهل مكة . ثم رحل

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٥٠ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ١٤٩ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٨

الى المدينة ، فقد ولاه عبد الملك حكم مكة والمدينة ، وأقام بالمدينة ثلاثة شهور « يتعبث بأهل المدينة ويتعنتهم ، وبنى بها مسجداً في بنى سلمة ، فهو ينتسب اليه ، واستخف فيها بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فختم على أعناقهم » (١) . واستمر الحجاج واليا على الحجاز واليمن واليمامة ثلاثة أعوام حتى مات بشر ابن مروان والى عبد الملك على البصرة ، فولى عليها الحجاج ، فرحل الى العراق .

عوامل القضاء على ابن الزبير بالحجاز :

وهكذا أسدل الستار على مأساة عبد الله بن الزبير ، وتحققت آمال عبد الملك بن مروان وبنى أمية في القضاء على ذلك المنافس القوي . وكان ابن الزبير قد حقق نجاحا كبيرا . ولا شك أن هناك عوامل قوية تكاثفت وأدت إلى القضاء على حركته بالحجاز .

أولا : استيلاء عبد الملك على بلاد العراق : أدى انتزاع عبد الملك لبلاد العراق من عبد الله بن الزبير الى حرمان ابن الزبير من مورد المال والرجال والسلاح . وكان عبد الملك واقفا على أهمية بلاد العراق فبدأ في غزوها قبل أن يغزو الحجاز ، وقد كانت بلاد الحجاز قليلة الموارد الاقتصادية ، لا توفر لابن الزبير حاجته الحربية . ولذا حينما طال حصار الحجاج بن يوسف لمكة ، عانى ابن الزبير من قلة الامدادات والتموين « فغلت الأسعار عند ابن الزبير ، وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم

لحمها في أصحابه ، وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمد الذرة بعشرين درهما « (١) . بينما كانت تفقد المؤن من الشام على جند الحجاج . فقد روى الطبري أن شاهدا عيانا تحدث عن جند الحجاج فقال : « وأصحابه متسلحون ورأيت الطعام عندهم كثيرا ، ورأيت العير تأتي من الشام تحمل الطعام والكعك والسويق والدقيق ، فرأيت أصحابه مخصيب ، ولقد اتبعنا من بعضهم كعكا فكفانا الى أن بلغنا الجحفة وأنا لثلاثة نفر » (٢) .

ثانيا : ميل أهل الحجاز الى الهدوء والسلام : رأى أهل الحجاز ضياع العراق من يد عبد الله بن الزبير ، فأدركوا أن شمس الحركة الزبيرية في طريقها الى الغروب ، فرأوا أن يركنوا الى الهدوء وطلب السلامة والنجاة ، وأن يبائعوا لعبد الملك ابن مروان خليفة الشام المنتصر . حتى اذا بدأت المعركة أيقن أهل الحجاز بهزيمة ابن الزبير ولذا « تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالأمان ، وخرج من عنده نحو عشرة آلاف . وكان ممن فارقه ابنه حمزة وخبيب أخذا لأنفسهما أمانا » (٣) . وقد صور ابن قتيبة (٤) ملل أهل الحجاز وانصرافهم عن القتال الى طلب الأمان فقال : « فلما كانت الليلة التي قتل في صبيحتها ، جمع عبد الله بن الزبير القرشيين فقال لهم : ما ترون ؟ فقال رجل منهم

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٧ .

(٤) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢١ .

من بنى مخزوم : والله لقد قاتلنا معك حتى ما يجد مقاتلا ، والله
لئن صبرنا معك ما تريد على أن نموت معك انما هو احدى
خصلتين ، اما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا ولك ، واما أن
تأذن فنخرج » . ومما زاد من ضعف روح أهل الحجاز المعنوية
معاجلة عبد الملك لهم بالحرب قبل أن ينتهوا من استعداداتهم
الحربية ؛ فقد قال الحجاج لعبد الملك بن مروان : انك يا أمير
المؤمنين متى تدع ابن الزبير يعمل فكره ويستجيش ويجمع أنصاره
وتشوب اليه فلا له ، كان في ذلك قوة له ، فأذن في معاجلته لى (١) .

ثالثا — اخفاق خطط ابن الزبير الحربية : كان ابن الزبير
يدرك تماما أن عبد الملك وقد فرغ من أمر العراق ، لا بد متوجه
اليه ليقاتله في الحجاز . فكان جديرا به أن يأخذ للأمر عدته ،
فيجمع أهل مكة في جيش نظامى بالمعنى المعروف في ذلك الحين .
وكانت الفرصة متاحة له في جمع أكبر عدد ممكن من الجند ، فقد
وقعت الحرب في الفترة السابقة لأداء شعائر الحج ، وكان في
استطاعة ابن الزبير أن يثير حماسة الحجاج الوافدين من مختلف
الأمصار ، فيحثهم على الدفاع عن بيت الله الحرام . بل كان جديرا
به أن يخرج بجيشه الى المدينة المنورة التي كان أهلها على جانب
كبير من الحماسة للقتال والرغبة في الأخذ بثأر قتلى الحرة . وقد
علمنا ما كان من أمر الحجاج حين تحاشى المرور بالمدينة في طريقه
الى مكة فاتبع طريق الطائف رغم أنه أبعد مسافة . والمدينة تصلح

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣١٩ .

لتكون ميدان قتال ، أكثر من مكة ، وفيها يجد ابن الزبير جندا متحمسين ، ويمكنه أن يحفر حول المدينة خندقا يقف حائلا أمام المهاجمين ، وقد نجحت هذه الوسيلة دائما في الدفاع عن المدينة . ولكن ابن الزبير رأى المكوث في مكة عند الكعبة مع أصحابه ، رغم قلة مؤنه وامداداته ، مما يجعله لا يحتمل الحصار الطويل . وكان جديرا بابن الزبير أن يتعظ بحصار مكة الأول في عهد يزيد بن معاوية ، الذي لم ينته الا عند وفاة يزيد ، ولو طالبت حياة يزيد لاستمر الحصار طويلا .

رابعا — وقوع الحصار زمن الحج : كانت اقتصاديات مكة محدودة قليلة بسبب قلة مواردها وانتاجها ، حتى أنها لم تكن تقى بحاجة أهلها . وكان لقدم الحجاج في ذلك الوقت أثره في استهلاك قدر كبير من المواد الغذائية ، مما جعل ابن الزبير يخفق في توفير المؤن والامدادات لرجاله ، فغلت الأسعار وقلت الأقوات ، مما أدى الى انقضاض كثير من أنصار ابن الزبير عنه وطلبهم الأمان من الحجاج . وكان ابن الزبير معسكرا بجنده الى جانب الكعبة ، حيث قدم آلاف من الحجاج من مختلف الأمصار الاسلامية ، واختلط هؤلاء بهؤلاء ، وأصبح من العسير على ابن الزبير أن يميز بين من معه ومن عليه ، وخاصة أن « لم يمنع الحاج من الطواف والسعى » (١) . واندس بين هؤلاء الحجاج بعض جند الشام ، وعملوا على بث الفرقة في صفوف جند ابن الزبير ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .

واضعاف روحهم المغنوية ، كما وققوا على نواحي الضعف في جيش ابن الزبير واستفادوا منها .

خامسا — بخل ابن الزبير على أصحابه : كان ابن الزبير وأصحابه في مأزق حرج ، وبلاء عظيم ، وكان جنده يعانون من قلة الغذاء والمؤن . واشتهر ابن الزبير بالبخل والتقتير ، ولذا نراه يقتصر على أصحابه في الطعام والمال ، حتى ضاقوا به ، فخرجوا الى عدوه الحجاج يلتمسون الأمان . روى المؤرخ ابن الأثير (١) : « فغلت الأسعار عند ابن الزبير ، وأصاب الناس مجاعة شديدة .. وأن بيوت ابن الزبير لملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا . وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده ، وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا ما يمस्क الرmq ويقول : أنفس أصحابي قوية مالم يغن » . فلما كانت قبيل مقتله تفرق الناس عنه وخرجوا الى الحجاج بالأمان وخرج من عنده نحو عشرة آلاف » . وقد كان ابن الزبير على جانب كبير من الصفات الحسنة ، والسجايا الحميدة عدا ميله الى التقتير والبخل . وقد كان معاوية بن أبي سفيان يقول لابن الزبير : ان الشح والحرص لن يدعاك حتى يدخلك مدخلا ضيقا فوددت أنى حينئذ عندك فاستنقذك . وتذكر ابن الزبير حينما طال حصار الحجاج له مقالة معاوية له فقال : هذا ما قال معاوية وددت أنه كان حيا !! (٢) .

سادسا — قلة دهاء ابن الزبير : دخل ابن الزبير الى ميدان

(١) الكامل ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٥٣ - ٥٤ .

السياسة من أوسع أبوابها ، أى الخلافة . ولذا كان جديرا به أن يتصف بما يجب أن يتصف به السياسى من دهاء وخبرة بطبائع الناس . وكان ابن الزبير رجلا تقيا ناسكا ، لكنه لم يكن داهية مأكرا . واعتقد ابن الزبير أنه محقق آماله فى الخلافة عن طريق ما جبل عليه من صلاح وصدق ووفاء للعهد ، وقد عبّر ابن الزبير عن رأيه هذا فى حديثه الأخير لأمه أسماء بنت أبى بكر (١) .

واتصف ابن الزبير بالصدق والصراحة ، وتمسك بهما دائما ، ولم يلجأ الى الحيلة أو الدهاء . روى ابن الأثير (٢) : « وقدم عليه عليه قوم من الأعراب فقالوا : قدمنا للقتال معك . فنظر فاذا مع كل امرئ منهم سيف كأنه شفرة وقد خرج من غمده : فقال : يا معشر الأعراب لا قربكم الله ، فوالله أن سلاحكم ليرث ؛ وان حديثكم لغث ، وانكم لقتال فى الجذب أعداء فى الخصب . فتفرقوا » . ولا شك أن ابن الزبير قد أخطأ فى موقفه هذا من هؤلاء البدو الأعراب وقد اشتهروا بالشجاعة والاستبسال فى القتال . رغم أن ابن الزبير كان يقول فى حصار مكة الأول : « لو أعانتنى الشياطين على أهل الشام لقاتلتهم بهم » (٣) . وأدرك الحجاج أن صراحة ابن الزبير وبخلة جعلت أصحابه ينفذون عنه ولذا نادى عليه وقال : قد كان لك رجال ولكن ضيعتهم !! (٤)

(١) راجع نص حوار ابن الزبير مع أمه أسماء .

(٢) الكامل ج ٤ ص ١٤٦ .

(٣) بلادرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٧ .

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ٤ ص ٢٢ .

أسباب اخفاق حركة ابن الزبير :

وهكذا شاءت الأقدار أن تخفق تلك الحركة السياسية الكبرى التي حمل لواءها عبد الله بن الزبير ، خليفة الحجاز الثائر . وأسدل الستار على تلك الحركة القوية التي لعبت دورا كبيرا على مسرح السياسة العربية الاسلامية حقبة طويلة من الدهر ، وشغلت الخلفاء الأمويين واستنفدت جهودهم . ولا شك أن هناك عوامل ودوافع أدت الى اخفاق الحركة الزبيرية بعد أن حققت نجاحا وانتشارا وتأييدا في جميع الأمصار الاسلامية .

أولا — بقاء ابن الزبير في الحجاز : أصر ابن الزبير منذ أن ظهرت حركته على مسرح السياسة أن يبقى في الحجاز وألا يغادره الى غيره من الأمصار الاسلامية . وكان بقاءه من عوامل اخفاق الحركة الزبيرية . فالحجاز أقل الأمصار صلاحية لتكون قاعدة لحركة سياسية كبيرة مثل حركة ابن الزبير ، لعدة أسباب . فالبيئة الحجازية تتصف بقلّة الموارد الاقتصادية ، ولذا تعجز عن مد ابن الزبير بحاجته من المال والرجال والعتاد . ولذا كان ابن الزبير يعتمد على ما كان يأتيه بانتظام من بلاد العراق . حتى اذا فقد تلك البلاد واستولى عبد الملك بن مروان عليها ، عجز عن الحصول على حاجته من الجند والأموال والسلاح . في الوقت الذي كانت بلاد الشام الغنية توفر للخليفة عبد الملك وسائل الاستعداد الحربي لقتال ابن الزبير . كما أن بلاد الحجاز كانت تزخر بصور كثيرة من العصبية القبلية التي كانت تمزق وحدة أهل الحجاز وتفرق كلمتهم ، وكان لهذه العصبية أكبر الأثر في

اضعاف قوة جيش ابن الزبير . وكان أهل الحجاز أكثر ميلا
لبنى هاشم من عبد الله بن الزبير ، وكان امتناع بعض الزعماء
الهاشميين مثل محمد بن الحنفية وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب
دافعا لبعض أهل الحجاز ليقفوا من ابن الزبير موقفا سلبيا .

خرجت من الحجاز كثير من العناصر السياسية النشيطة ورحلت
الى سائر الأمصار الاسلامية ، وخاصة بلاد الشام والعراق ؛
وأصبحت بلاد الحجاز مأوى الطبقة الأرستقراطية التي انصرفت
عن النزاع السياسى الذى كانت تضطرب به العراق وتموج به
دمشق ، ومالت الى حياة الترف والنعيم لما تدفق عليها من
الثروة (١) . كما أن المدينة لم تعد تصلح لأن تكون حاضرة دولة
كبيرة واسعة مثل الدولة العربية الاسلامية . وقد فطن على
ابن أبى طالب الى ذلك من قبل ، فنقل حاضرتة الى الكوفة
بالعراق ، ثم نقلها معاوية بن أبى سفيان الى دمشق بالشام . ثم
بدأ أهل العراق يجاهدون فى عودة حاضرة الخلافة الى بلدهم ؛
بينما جاهد أهل الشام فى الاحتفاظ بالحاضرة فى بلادهم .

اتخذ أبناء الصحابة من بلاد الحجاز مقرا لهم ؛ وكان بعضهم
لا يوافق على البيعة بالخلافة لعبد الله بن الزبير ، وخاصة أبناء
الصحابة من بنى هاشم الذين رأوا أحقيتهم بالخلافة دون
ابن الزبير . وكان لهؤلاء وهؤلاء أنصار عديدون حدوا حدوهم
فى الامتناع عن البيعة لابن الزبير .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ١ ص ٤٥١ .

أصر عبد الله بن الزبير على المكوث في الحجاز ، فأضاع كثيرا من الفرص . أولها حينما دعاه الحصين بن نمير قائد الجيش الأموي يعد وفاة يزيد بن معاوية ، للخروج معه الى الشام حيث يبايعه بالخلافة . ورفض ابن الزبير دعوته ، وأبى الشخصوص معه ، ثم شعر بضياح الفرصة فندم على ذلك . أما الفرصة الثانية فقد حانت لابن الزبير بعد وفاة معاوية الثاني . فقد تولى الضحاك بن قيس الفهري أمر الدعوة للحركة الزبيرية ؛ وأخذ البيعة لابن الزبير ؛ فدانت له بلاد الشام جميعها خلا رقعة صغيرة هي الأردن . وبلغت الحركة الزبيرية من القوة حدا جعل مروان بن الحكم يفكر في البيعة لابن الزبير . ولو كان ابن الزبير قد خرج الى الشام في هذه الظروف المواتية ؛ لاستقر الأمر له بالشام ، وخاصة أن عداء بنى قيس لبنى كلب كان قد فرق شمل بنى أمية وشغلهم عن ابن الزبير . ولكن بقاء ابن الزبير في الحجاز أتاح الفرصة لبنى أمية لتوحيد صفوفهم واختيار مروان بن الحكم للخلافة ، ثم تفرغوا لقتال الضحاك داعية ابن الزبير حتى قتلوه . حتى اذا دانت لهم بلاد الشام ، فتحوا مصر ، وتولى عبد الملك بن مروان أمر القضاء على الحركة الزبيرية في العراق ثم الحجاز .

أما الفرصة الثالثة التي أضاعها عبد الله بن الزبير ؛ فكانت متاحة له بعد وفاة يزيد بن معاوية ؛ حين قام أهل العراق بطرد واليهم الأموي عبيد الله بن زياد . فقد كان العراقيون يتلمسون من يأخذ بيدهم للخلاص من الحكم الأموي . ولو خرج ابن الزبير حينئذ الى العراق لهرعوا الى الالتفاف حوله . ولكنه فضل البقاء

في مكة والاعتماد على ولاية ضعاف أساءوا التصرف وأغضبوا أهل العراق مما أضر بالحركة الزبيرية . وأتاحوا الفرصة لقيام حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي .

كان جديرا بابن الزبير أن يخرج بنفسه الى بلاد العراق حين زحف اليها عبد الملك بن مروان لانتزاعها من مصعب بن الزبير ، فقد كان وجوده على رأس جيشه يثير الحماسة في قلوب جنده وأنصاره . كما كان جديرا بابن الزبير أن يخرج من مكة الى بلاد اليمن حين قدم الحجاج بن يوسف على رأس الجيش الأموي للقضاء عليه ، وقد اشتهرت اليمن بشعابها الحصينة .

ثانيا — قلة اهتمام ابن الزبير بنشر الدعوة الزبيرية والدعاية لها : لا بد لنجاح حركة سياسية من تحقق عاملين هامين ، أولهما بث الدعوة لها في شتى الأرجاء ، وثانيهما الدعاية لها بكل الوسائل المعروفة . ولكن عبد الله بن الزبير لم يهتم بهذين العاملين الاهتمام الضروري . فقد قبع في مكة ، واعتمد في نشر الدعوة الزبيرية على رجال غير جديرين بثقته . فهذا هو الضحاك بن قيس الفهري الذي عهد اليه بنشر الدعوة للحركة الزبيرية في الشام ، قد أصبح طامعا في الخلافة ، فترك الدعوة لابن الزبير وطلب من الناس أن يبايعوا له الخلافة ، فانفض الناس عنه وعن ابن الزبير ، وبايعوا لمروان بن الحكم . كما اعتمد ابن الزبير في الدعوة له في العراق على شخصيات ضعيفة أمثال عبد الله بن يزيد وابراهيم بن محمد ابن طلحة ، فأساءوا الى دعوة ابن الزبير وأثاروا مشاعر الناس ضده . فقد كان ابراهيم مكروها من شيعة العراق وتعتمد سبهم

والحظ من شأنهم ، فحققوا عليه واقضوا عن الحركة الزيرية .
كما أننا لم نر نشاطا يذكر لدعاة ابن الزبير في مصر ، فاقصر أمر
الدعوة على الجهود المحدود الذي بذله ابن جحدم ، ولذا تبخرت
الدعوة الزيرية سريرا حين قدم مروان بن الحكم على رأس جيش
أموي الى مصر .

وأهمل عبد الله بن الزبير سلاح الدعاية . وكان خير وسائل
الدعاية في ذلك العصر هو الشعر والشعراء . وعمل الأمويون
على كسب رضا الشعراء ، فغمروهم بالأموال والعطايا ، فكانت
ألسنتهم تلهج بحمدهم والثناء عليهم ، مما وطد دعائم الدولة
الأموية . وفي نفس الوقت ، أخذت ألسنتهم تلهج بهجاء ابن الزبير
وذمه مما أضعف الحركة الزيرية . وإلى جانب الشعراء العديدين
الذين دانوا بالولاء للبيت الأموي ، لا نجد سوى شاعرا واحدا
استمر على إخلاصه لآل الزبير ، وهو ابن قيس الرقيات . وكان
انصراف الشعراء عن ابن الزبير بسبب تقديره عليهم واحكامه
عن بذل الصلات والمال لهم .

ثالثا — اصرار ابن الزبير على تمجيد عثمان : كان بعض
المسلمين في الأمصار الاسلامية غير راضين عن سياسة عثمان
ابن عفان الادارية ، وسخطوا على سياسة ولاته . وقد استمر
عبد الله بن الزبير حتى آخر عهده يمجد ذكرى عثمان ويعظم من
شأنه ، ما لم يرض كثيرا من أهالي الأمصار الاسلامية . وخاصة
أن عثمان كان شيخ بنى أمية ، وكان ابن الزبير على عدااء شديد
للدولة الأموية والخلفاء الأمويين . ولذا كان تمجيد ابن الزبير

عثمان يضعف من حجته في معارضته للخلافة الأموية . كما أن ابن الزبير أراد أن يتبع في العراق النظام الذي اتبعه عثمان في توزيع الفئ والعطاء ، وكان أهل العراق لا يرضون عن نظام علي بن أبي طالب بديلا . وكان اصرار ابن الزبير على تمجيد عثمان دافعا للخوارج الأزارقة لينفضوا عن تأييد ابن الزبير ، بل ثاروا عليه ، وأصبحوا شوكة دائمة في جنب الحركة الزبيرية ، وانشغل مصعب بن الزبير بقتالهم عن التفرغ لقتال عبد الملك ابن مروان .

رابعا — معارضة بني هاشم لخلافة ابن الزبير : شهد التاريخ تنافس بني هاشم وبني أمية على السيادة في العصر الجاهلي ، وعلى الخلافة في العصر الاسلامي . وقد كانت النبوة في بني هاشم مما رفع شأنهم ، وأثار حسد بني أمية . وكان التنافس بين علي ابن أبي طالب وبين عثمان بن عفان ثم معاوية بن أبي سفيان هو في الحقيقة تنافسا بين الهاشميين والأمويين . وكان جديرا بابن الزبير وقد شن حربا شعواء على بني أمية أن يحالف بني هاشم أو يهادنهم . وكان المسلمون ينظرون الى بني هاشم نظرة احترام وتقديس باعتبارهم آل الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكن معارضة بعض الهاشميين لخلافة ابن الزبير مثل محمد بن علي ابن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، وعبد الله بن العباس ابن عبد المطلب جعلت ابن الزبير يناصبهم العدا . فقد كان الهاشميون يرون أحقية بني هاشم للخلافة دون غيرهم ، سواء أكان الخليفة أمويا أو زبيريا .

خامسا — مناهضة الخوارج والمختار لابن الزبير : شن الخوارج على الحركة الزيرية في العراق حربا شعواء ، وامتاز الخوارج بالشجاعة والبسالة ، ولذا عانى ولاية ابن الزبير بالعراق من الخوارج أكثر مما عانوه من قتال الأمويين لهم . وكان تهديد الخوارج للبصرة دافعا لأهلها على التخاذل عن قتال عبد الملك ابن مروان للتفرغ لقتال الخوارج ، كما أن مصعب بن الزبير حرم جيشه من قائده الباسل المهلب بن أبي صفرة الذي وجهه لقتال الخوارج . حقا كانت الخوارج فئة خطيرة قاومها كل من تولى الخلافة ، ولكنها كانت أقل خطرا على الحركة الزيرية من الدولة الأموية . ولو هادن ابن الزبير الخوارج لتوجهوا بعدائهم نحو العدو المشترك أى الخلافة الأموية .

أما المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فقد بدأ حياته السياسية جنديا من جنود عبد الله بن الزبير ، وحارب في صفوفه خلال حصار مكة الأول في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية . وقد بايع المختار ابن الزبير على شروط حددها وقبلها ابن الزبير ، فقد اشترط المختار عليه أن لا يقضى أمرا بدون استشارته وأن يوليه أفضل أعماله . وكان المختار يطمح في أن يتولى حكم بلاد العراق ، وقصر أطماعه على هذا النطاق المحدود ، ولم يطمح يوما في الخلافة طوال حياته السياسية . ولكن ابن الزبير رفض تحقيق أطماع المختار ، كما نكث عهده وتناسى وعوده له ، فتحول اخلاص المختار له الى حرب عليه . وانشغل مصعب في مناهضة المختار عن الاستعداد لقتال الجيوش الأموية . والتقى عبد الملك

بجيش مصعب بعد مصرع المختار وقد آنهك قواه في هذه الحروب
الزروس ، بينما كان عبد الملك قد احتفظ بقواه ، فدارت
الدائرة على مصعب .

سادسا — اعتماد ابن الزبير على العنصر العربي دون الموالي :
اعتمد عبد الله بن الزبير في حركته على العناصر العربية وأهمل
تماما الموالي ، وهم المسلمون من غير العرب ، وكان معظمهم من
الفرس الذين حرّمهم العرب من الحقوق السياسية والاجتماعية ،
وأملوا أن يتساووا مع العرب في هذه الحقوق . وغضب الموالي
لإهمال ابن الزبير حقوقهم ، ومناصرته الأشراف العرب . وكان
هؤلاء الموالي يمثلون الغالبية العظمى لسكان بلاد العراق .

كانت العصبية القبلية تفتت وحدة العنصر العربي حينئذ ،
وظهرت هذه العصبية واضحة في موقعة مرج راهط التي دارت
رحاها بين قيس وكنب . ولم يكن في انتصار مروان بن الحكم
إسدادا للاستار على روح التعصب بين هذين الفريقين الكبيرين
المتعادين ، بل ظهرت العصبية مرة أخرى في موقعة خازر
سنة ٦٧ هـ في عهد عبد الملك بن مروان .

أما الموالي ، فكانوا يمثلون غالبية أهل الأمصار ، فهم يمثلون
الطبقة الكادحة الفقيرة التي تنظر الى أشراف العرب نظرة سخط
وحقد ، فقد حرّموا الموالي من الفئ والعطاء والحقوق السياسية ،
وعاش هؤلاء الأشراف في اقطاعياتهم حياة الترف والنعيم ، وتركوا
الموالي يلقون الشقاء والعناء . وكان هؤلاء الموالي أمضى سلاح
يمكن لابن الزبير أن يعتمد عليه في عدائه للدولة الأموية .

ولو حاول ابن الزبير استمالتهم لوجد منهم كل اخلاص ووفاء وتضحية ؛ فقد كانوا يتلمسون أية حركة تعارض الحكم الأموي ، كما كانوا ينظرون الى أبناء الصحابة نظرة احترام وتقدير ، ولكن ابن الزبير اعتمد على العنصر العربي وحده ، وأهمل الموالي تماما ، ولم يرد لهم حقوقهم المسلوبة ، فانصرفوا عن تأييده ، وألقوا بأنفسهم في أحضان خصمه المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي جعل الموالي عماد حركته السياسية . وخير ما يعبر عن موقف الموالي من ابن الزبير هذا الشعر (١) :

ان الموالي أمست وهى عاتبة

على الخليفة تشكو الجوع والحربا

ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا

أى الملوك على ما حولنا غلبا

سابعا — تقتير عبد الله بن الزبير : أجمع المؤرخون على أن

تقتير ابن الزبير وبخله في المال على أنصاره كان عاملا على اخفاق حركته السياسية . فيقول ابن قتيبة (٢) : وكان (عبد الله) بخيلا فقال الشاعر فيه :

رأيت أبا بكر وربك غالب على أمره يبغي الخلافة بالتمر
ويقول المسعودي (٣) : « وأظهر ابن الزبير الزهد في الدنيا

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ - المفصود بالخليفة هنا هو عبد الله بن الزبير .

(٢) المعارف ص ٧٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢ .

والعبادة مع الحرص على الخلافة وقال : انما بطنى شبر ، فما عسى
أن تسع ذلك من الدنيا على سائر الناس . ففي ذلك يقول أبو حرة
مولى الزبير :

ما زال في سورة الأعراف يقرؤها
حتى فوادي مثل الخزف في اللين
لو كان بطنك شبرا قد شبعث وقد

أفضلت فضلا كبيرا للمساكين .

ويقول المؤرخ ابن طباطبا (١) عن ابن الزبير أنه « كان عظيم
الشح فلذلك لم يتم أمره » . وعرف عبد الملك بن مروان بخل
عبد الله بن الزبير ، فحاول أن يحث مصعب على التخلي عن أخيه
والانضمام إليه ، فقال لمصعب عن أخيه : ان فيه ثلاث خصال
لا يسود بها أبدا ، عجب قد ملاه ، واستغناء برأيه ، وبخل
التزمه ، فلا يسود بها أبدا » (٢) . وكان عبد الملك يذم ابن الزبير
فيقول : ان ابن الزبير لا يصلح أن يكون سائسا وكان يعطى مال
الله كأنه يعطى ميراث أبيه (٣) .

وتحدث المؤرخون المحدثون عن بخل ابن الزبير أيضا وأثروا
في اخفاق حركته السياسية . فقال المؤرخ (أوكلى) (٤) أن

(١) الفخرى ص ١٠٥ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) اليعقوبى ج ٣ ص ٩ .

Ockly : The Hist. of Saracens, P. 479.

(٤)

ابن الزبير كان على نصيب غير عادى من الشجاعة ، الا أنه كان شحيحا لأقصى درجة ، وقد أدى هذا الى شيوع مثل بين العرب بأنه ليس هناك رجل يفوق ابن الزبير فى الشجاعة والبخل . ويرى جورجى زيدان ^(١) أن الأمويين لم يقتلوا ابن الزبير الا بالمال ، ويرى أنه لو كان قد بذل مثلما بذلوا من الأموال لكانت الخلافة فى نسله وليست فى بنى أمية ، ولكن ابن الزبير استنكف أن يعطى الناس من أموال الكعبة فأضر بنفسه .

اعترف عبد الملك بن مروان وهو على فراش الموت بجدارة ابن الزبير بالخلافة ، وبتقواه وورعه ، ونسب اخفاقه الى تقديره ، فقال : ما أعلم أحدا أقوى على هذا الأمر (الخلافة) منى ، ان ابن الزبير طويل الصلاة ، كثير الصيام ، لكنه لبخله لا يصلح للسياسة .

أما مصعب بن الزبير فكان على النقيض من أخيه كريما يذل المال ، حتى أنه بذل مليون درهم فى زواجه من سكينه بنت الحسين بن على . وأدرك الحجاج بن يوسف أهمية سلاح المال ، فانه لما حاصر الكعبة أمر جند الشام أن يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا ، فجاء بكرسى وجلس عليه وقال : يا أهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك .

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٧١ - ٧٢ .

ولكن نرى من واجبنا أن ننصف عبد الله بن الزبير ، فقد
كان عبد الملك بن مروان الذى يعيب على ابن الزبير بخله وتقتيرد ،
يشاركه فى هذه الصفة . فيقول الروحى ^(١) عن عبد الملك : ويقال
أبو مروان ولقبه وشح الحجر لبخله .

(١) الروحى : بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠ .

١٠. أثر حركة ابن الزبير في تاريخ الدولة الأموية

تهدم الكعبة خلال حصار مكة الأولى

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة

بناء عبد الملك قبة الصخرة

أثر حركة ابن الزبير الأدبي

ابن قيس الرقيات شاعر ابن الزبير

أثر حركة ابن الزبير في تاريخ الدولة الأموية

تهدم الكعبة خلال حصار مكة الأول :

حاصر الجيش الأموي بقيادة الحصين بن نمير ، في عهد يزيد ابن معاوية ، عبد الله بن الزبير في الكعبة ، وقذفها الحصين بالمنجنيق ، فتهدمت أجزاء كثيرة منها ، ثم امتدت إليه السنة اللهب فحرقت أجزاء أخرى من الكعبة . وسنحاول هنا أن ندرس هذه الحادثة دراسة تاريخية علمية حتى نصل الى المسئول الأول عما لحق بالكعبة ، هل هو الحصين بن نمير ، أم عبد الله بن الزبير ؟ فقد كان لهذا الحادث دويته في أرجاء العالم الاسلامي ، فقد كانت أول مرة تشهد الكعبة في العصر الاسلامي مثل هذا القتال العنيف .

أذاع الأمويون أن ابن الزبير هو السبب فيما أصاب الكعبة ، على حين ألقى ابن الزبير التبعة على عاتق الأمويين . واختلف المؤرخون فيما بينهم عن يقع عليه الاتهام . وسنستعرض أقوال هؤلاء المؤرخين ، على اختلاف أهوائهم ، حتى نصل الى رأى حاسم . وقد انقسم المؤرخون الى فريقين .

أما المؤرخون الذين ألقوا بالمسئولية على عاتق جند الشام ؛

قضى مقدمتهم المسعودى (١) الذى قال أن جند الشام هم سبب تهمد وحرق الكعبة ، فوصف ما حدث ، فقال : « فتواردت أحجار المنجنيق والعرائد على البيت ، ورمى على الأحجار بالنار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات ، وانهدمت الكعبة ، واحترقت البنية » . ويوجه المؤرخ اليعقوبى (٢) الاتهام الى جند الشام أيضا بأنهم تسببوا فيما لحق بالكعبة من حرق وهدم ، ويتفق ابن عساكر (٣) وابن طباطبا (٤) فى اتهامهما جند الحصين ابن نمير .

أما المؤرخون الذين وجهوا الاتهام الى جند عبد الله بن الزبير ، فمنهم الطبرى (٥) ، فروى أن أصحاب ابن الزبير كانوا يوقدون حول الكعبة نارا تطاير منها الشرر ، فاحترقت ثياب الكعبة وخشب البيت . ثم يؤيد الطبرى اتهامه برواية أخرى ، فقال انه لما تساءل الناس عن سبب احتراق الكعبة « أشاروا الى رجل من أصحاب عبد الله بن الزبير ، قالوا : هذا احترقت بسببه ، أخذ قبسا فى رأس رمح له فطيرت الريح منه ، فضرب أستار الكعبة ما بين الركن اليمانى والأسود » . ويتهم المؤرخ البلاذرى (٦) أتباع ابن الزبير بأنهم تسببوا فى حرق الكعبة . ولكن الطبرى والبلاذرى

-
- (١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٩ .
 - (٢) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٢٤ .
 - (٣) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٣٧٣ .
 - (٤) الفخرى ص ١٠٢ .
 - (٥) الطبرى ج ٤ ص ٣٨٣ .
 - (٦) انساب الأشراف ج ٤ ص ٥٣ .

قصرا اتهامهما لجند ابن الزبير على اتهامهم بالتسبب في حرق الكعبة ، أما تدهمها فكان نتيجة قذف جند الشام لها بأحجار المجنيق .

ووقف بعض المؤرخين موقفا محايدا . ومنهم ابن الأثير (١) الذى ذكر روايتين عن حرق الكعبة . فيقول فى احدهما أن بعض الناس ذهبوا الى أن سبب حرق الكعبة يرجع الى ما كان من قذف جند الشام لها بالمجانيق ، على حين زعم آخرون أن « الكعبة قد احترقت من نار كان يوقدها أصحاب عبد الله حول الكعبة ، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق ثياب البيت » . ولكن ابن الأثير يميل الى تأييد الرواية الأولى . وروى ابن كثير (٢) ثلاث روايات دون أن يرجح احداها ، فقال : « فلما كان يوم السبت ثالث ربيع الأول سنة ٦٤ نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها حتى بالنار ، فاحترق جدار البيت فى يوم السبت . وقيل : انما احترقت لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة فعلمت النار فى بعض أستار الكعبة فسرت الى أخشابها وسقوفها فاحترقت . وقيل : انما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة فى ليلة ظلماء فظن أنهم أهل الشام ، فرفعت نار على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل ، فعلمت فى أستارها وأخشابها فاحترقت ؛ واسودت الركن وانصدع فى ثلاثة أمكنة منه » .

(١) الكامل ح ٤ ص ٥٢ .

(٢) البداية والنهاية ح ٨ ص ١٢٥ .

أما العمري (١) فلا يهتم ابن الزبير أو ابن نمير على السواء فيقول أن سبب حرق الكعبة « أن امرأة أرادت أن تجمر الكعبة ، فطارت شرارة من المجرمة في أستارها فاحترقت » .

وقد حفظ التاريخ لنا رواية عبد الله بن الزبير عن سبب حرق الكعبة ، فيروى ابن قتيبة (٢) أنه حين طلب الحصين بن نمير من ابن الزبير بعد موت يزيد أن يسمح لجند الشام بالطواف بالبيت قال ابن الزبير له : وهل تركتم من البيت الا مدرة وكانت المجانيق قد أصابت ناحية البيت فهدمته مع الحريق الذي أصابه . ونحن نميل الى الرأي القائل أن قذف الكعبة بأحجار المنجنيق قد تتج عنه اشتعال النيران بالكعبة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

رحل الحصين بن نمير بجيشه الأموي الى الشام بعد موت يزيد بن معاوية ، تاركا الكعبة وقد تهدمت معظم أجزائها ، فأصبح أمر إعادة بنائها من شأن عبد الله بن الزبير ، فهدم ما تبقى منها سليما وأعاد بناءها من جديد . وقد عاد ذلك عليه بالفائدة والضرر في وقت واحد .

فقد غضب المسلمون على جند الشام أن تسببوا في تهدم الكعبة وانتهكوا حرمتها اذ قذفوها بالأحجار ، وحمدوا لعبد الله ابن الزبير قيامه بإعادة بنائها . فروى المؤرخ ابن الأثير (٣) .

(١) العمري : مسالك الأبصار ح ١ ص ٩٥ .

(٢) الامامة والسياسة ح ٢ ص ٨ .

(٣) الكامل ح ٤ ص ٨٧ .

« لما احترقت الكعبة حين غزا أهل الشام عبد الله بن الزبير أيام يزيد تركها ابن الزبير يشنّ بذلك على أهل الشام » . ثم أعاد ابن الزبير بناء الكعبة . ولكن بعض المسلمين لم يرضوا عن أن ابن الزبير قد أحدث تغييرات على البناء الأول .

أثارت رغبة ابن الزبير في إعادة بناء الكعبة مشكلة كبرى له ، فقد حار في الطريقة التي يتبعها في بنائها من جديد : هل يهدم الكعبة تماما ثم يعيد البناء من جديد ؟ أم يحاول اصلاحها وترميمها ؟ وروى العمري ^(١) حوار ابن الزبير مع أصحابه حينما حاولوا حل هذه المشكلة المعقدة ، فقال : « فشاور ابن الزبير من حضره في هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم . فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له الا بأكمل اصلاح ، ولا يكمل اصلاحها الا بهدمها . فهدمها حتى أفضى الى قواعد ابراهيم ، فأمرهم أن يزيدوا في الحفر ، فحركوا حجرا منها فرأوا تحته نارا وهولا أفزعهم ، فبنوا على القواعد .. وتمم بناءها وألصق بابها بالأرض ، وعمل لها خلفا أى بابا من ورائها وأدخل الحجر فيها » .

وبذل ابن الزبير جهده في تجميل الكعبة حتى تبدو في أجمل مظهر . وعدد المسعودي ^(٢) جهود ابن الزبير فقال : « وحمل الى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي

(١) مسالك الأبصار ح ١ ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) مروج الذهب ح ٣ ص ٢٩ .

فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشى منقوش ، قد حشى النقش السندروسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً .

عاب الأمويون على ابن الزبير هدمه الكعبة ، وزعموا أنه كان بوسعه ترميمها واصلاحها . ولكننا لا نوافق على ما ذهبوا اليه ، فقد « كانت قد مالت حيطانها من حجارة المنجنيق » (١) . مما يجعل أمر ترميمها عسيراً ، اذ قد تتهار جدران الكعبة فى أى وقت على من فيها . وكان من الضرورى ضمان سلامة هذه الجدران ، فقد كانت الكعبة مقصد آلاف المسلمين كل عام ، حيث يتدافعون ويتزاحمون للطواف والتبرك بها . كما أن النعمري (٢) يذكر أنه سبق هدم واعادة بناء الكعبة قبل ابن الزبير ثلاث مرات .

انتقد الأمويون ابن الزبير لأنه أحدث تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بايين بعد أن كان لها باب واحد . وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر . وعابوا عليه أنه كان « أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والاقطاع ، وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم » (٣) . ولكننا لا نوافق هؤلاء على بعض ما عابوه على ابن الزبير . فان وجود

(١) ابن الأثير : الكامل ح ٤ ص ٨٧ .

(٢) مسالك الأبصار ح ١ ص ٩٥ .

(٣) تاريخ ابن عساکر ح ٧ ص ٤١٣ .

باين يسهل الدخول الى الكعبة والخروج منها . كما أن المصادر القديمة تذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد من ارتفاع الكعبة الى الحد الذي وصل اليه ابن الزبير . كما أن ابن الزبير لم يكن يدفعه فيما فعل سوى مرضاة الله والرسول والمسلمين .

وقد برّر المؤرخ المسعودي ^(١) زيادات ابن الزبير في الكعبة ؛ فقال : « وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخا من قريش أن قريشا حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس ابراهيم الخليل الذي أسسه هو واسماعيل عليهما السلام ، فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ؛ وجعل له باين : بابا يدخل منه ، وبابا يخرج منه » .

ويذكر العمري ^(٢) أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يريد أن يزيد في بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، فقال : « وذلك لأن خالته عائشة ، رضى الله عنها ، حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقترضوا على قواعد ابراهيم . ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر . فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة . فبناها على مقتضى حديث عائشة » .

(١) مروج الذهب ح ٣ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢) مسالك الأبصار ح ١ ص ٩٥ .

ومهما يكن من أمر ، فقد احتفظت الكعبة بالشكل الذي أعاد ابن الزبير بناءها عليه ، حتى حاصر الحجاج بن يوسف الثقفي الكعبة الحصار الثاني في عهد عبد الملك بن مروان وقذفها بالمنجنيق فتهدمت ، فأعاد الحجاج بناءها وجعلها كما كانت قبل التجديد الذي أحدثه ابن الزبير بعد حصار الكعبة الأول . وجعل الحجاج للكعبة بابا واحدا كما أمره عبد الملك بن مروان (١) .

بناء عبد الملك قبة الصخرة :

اتخذ عبد الله بن الزبير الحجاز مركزا لحركته السياسية ولخلافته . وكان المسلمون يفتدون الى الكعبة في مواسم الحج والعمرة ، فيلقون عبد الله بن الزبير ، فكانوا لا يجدونه الا قائما بالصلاة أو طائفا بالكعبة ، ونجح في أن يبهر أنظارهم بزهده وبساطته وصلاحه وتقواه . فقارن أهل الشام بين ما شاهدوه من ابن الزبير وبين مظاهر الملك والترف التي عاشها الخلفاء الأمويون . وانتهم ابن الزبير فرصة قدوم هؤلاء الحجاج ، فأخذ يثبث دعوته فيهم ، ودعاهم لمناصرته وتأييده . وكان هؤلاء الحجاج والمعتنمين لا يعودون الى بلادهم الا وتحدثوا عما رأوه من أحوال ابن الزبير ، مشيدين بفضائله ، معددين سجاياه ، مما أدى الى انتشار دعوة ابن الزبير في شتى أرجاء الدولة العربية الإسلامية .

(١) الطبري ح ٥ ص ٣٥ .

وكان ابن الزبير يسمى نفسه « العائذ بالبيت » مما أثار عطف المسلمين عليه . وزاد من عطفهم عليه كما أثار العاطفة الدينية عامة ، اقدم الخلفاء الأمويين على غزو مكة وحصار الكعبة وقذفها بالمنجنيق . في نفس الوقت الذي استمات ابن الزبير فيه في الدفاع عن الكعبة . وقدمت جماعات عديدة من المسلمين تخالف ابن الزبير في آرائها ومبادئها على عبد الله بن الزبير لتقف الى جانبه في صد الجيوش الأموية عن غزو الكعبة ومكة ، فقد قدم الخوارج الأزارقة وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي ، بل بعث نجاشي الحبشة فرقة من جنده تدافع عن الكعبة . وكان بعض المسلمين حين يقدمون الى مكة للحج أو الاعتمار ويستمعون لآراء ابن الزبير يعلنون تأييدهم لهم وينضمون الى حركته ولا يعودون الى بلادهم . بل ان كثيرا من أهل الشام تظاهروا بالخروج الى الحجاز للحج ، وانضموا الى ابن الزبير .

شعر عبد الملك بن مروان بخطورة اقامة ابن الزبير في مكة الى جانب الكعبة وحاول صرف المسلمين عن الرحيل الى مكة حتى لا يلتقون بابن الزبير ، ولكنه لم يكن بقادر أن ينههم عن أداء فريضة الحج وهي من أركان الاسلام . وأخذ يبحث عن حل آخر ، حتى توصل الى فكرة بناء قبة الصخرة .

بنى عبد الملك قبة الصخرة في بيت المقدس ودعا المسلمين الى الحج اليها ، ونههم عن الحج الى الكعبة في مكة . وروى اليعقوبي ^(١) تاريخ هذا الحدث فقال : « ومنع عبد الملك أهل

(١) تاريخ اليعقوبي ح ٣ ص ٧ - ٨ .

الشام من الحج وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة . فلما رأى عبد الملك ذلك ، منعهم من الخروج الى مكة فضجّ الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا . فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال لا تشد الرحال الا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة وعلّق عليها ستور الديباج وأقام لها سدة وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة وأقام بذلك أيام بنى أمية .

ونعزّز هذه الرواية برواية أخرى للروحي ^(١) هي : « فلما ولي عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج من أن ابن الزبير كان يأخذ الناس بالبيعة إذا حجّوا فضجّ الناس لما منعوا الحج ، فبنى عبد الملك قبة الصخرة ، وكان الناس يحضرونها يوم عرفة ويقفون عندها » .

كان اليعقوبي هو أول مؤرخ روى قصة بناء عبد الملك لقبة الصخرة . أما الروحي فلا شك في أنه نقل هذه الرواية . ولكن الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن قتيبة لم يتحدثوا عن هذه القصة . ويذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن الوليد بن

(١) لفة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء ص ٢٠٢ .

عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة وذهب بعضهم مذاهب أخرى ، منها أنها من بناء هيلانة أم قسطنطين معتمدين فى ذلك على أن بناء هذه القبة لا يتمشى مع الفن العربى ، وانما هو مطابق للفن البيزنطى ولكن معظم المؤرخين المحدثين يؤيدون الرواية القائلة أن عبد الملك هو الذى بنى قبة الصخرة ويميلون الى الأخذ برواية اليعقوبى ، ويعتمدون فى ذلك على أن النقش الموجود على قبة الصخرة يقطع بأن تاريخ البناء هو سنة ٧٢ هـ أى فى عصر عبد الملك

أثر حركة ابن الزبير الادبى :

اعتمد الأمويون فى القضاء على حركة عبد الله بن الزبير على السيف والشعر . وكان الشعر سلاحا ماضيا لا يقل خطوره عن السيف . وقد اتخذ العرب الشعر منذ الجاهلية وسيلة سياسية . واستغل معاوية بن أبى سفيان الشعر فى صراعه لعلى بن أبى طالب (١) . وبدأ الصراع بين الأحزاب الاسلامية ، كيف تكون الحكومة ، وأين تكون ؛ ومن هذا الحاکم ، وكان الحلاف يبدو اما خالصا للمذهب والرأى ، واما متصلا بالمصالح المادية والعصبيات القبلية ، وكان الشعر صفحة ذلك وأداته . وكان الأمويون أحرص الناس على السلطة ، وبرروا فى سبيله كل وسيلة ، واستعانوا بدهاة العرب وأساطين السياسة ؛ كما استعانوا بالشعر والشعراء .

(١) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ح ١ ص ٢٣٩ .

وفي الحقيقة ، أن الزيريين لم يقصروا في جهادهم ضد الدولة الأموية ، بالسيف والقلم واللسان . بينما لم يحاول الموالي والمرجئة والمعتزلة محاولة مادية تعتمد على السيف . وكان الشعر حصا مشتركا بين الجميع وجدوا فيه متنفسا ووسيلة قوية (١) .

وفطن الأمويون الى قوة الشعر في استمالة القلوب والعقول ، فجاهدوا في ارضاء الشعراء وغمروهم بالعطايا والصلوات ، ليضمنوا اخلاصهم وحتى لا ينضموا الى أعدائهم . فقد كان معاوية بن أبي سفيان يحث بنى أمية على ذلك فيقول لهم اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم . وزاد اهتمام الأمويين بالشعر بعد دعوة عبد الله بن الزبير ، فقد كان شاعرا بليغا فصيحاً . وقد حرص معاوية حين كتب لابن الزبير يدعوه للبيعة ليزيد بن معاوية بولاية العهد أن يكون كتابه شعرا ، كما رد ابن الزبير أيضا بآيات من الشعر . وكان يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان شاعرين مجيدين . فلا عجب أن جذب الخلفاء الأمويون الشعراء اليهم .

ولكن بخل ابن الزبير وسخاء الأمويين ، صرف أنظار الشعراء عن الحركة الزيرية ، وتركوا مديح ابن الزبير ، بل جاهر بعضهم بهجائه ، مثل الضحاك بن فيروز الديلمي . بل بلغ بخل ابن الزبير حدا جعل مولاه أبا حرة يغادره ويهجوه .

أما عن الشعر السياسي الزيرى ، فهو شعر عبید الله بن قيس الرقيات ، ذلك الشاعر القرشي الذي اختص هذا الحزب بقسط

(١) احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ص ١٢٨ .

كبير من انتاجه الأدبي . وهناك شعراء آخرون وفدوا على آل الزبير ومدحوهم ، ولكن لم يكن أحدهم معبرا عن رأى هذا الحزب ، بل لعلهم كانوا مرتزقة أو من المؤمنين بمذاهب أخرى . ولذلك ستكون دراسة الجانب السياسى لشعر ابن قيس الرقيات ؛ دراسة الشعر السياسى لحزب الزبيرين .

ابن قيس الرقيات شاعر ابن الزبير :

هو عبيد الله بن قيس الرقيات من قریش (١) . وقد لقّب بالرقيات لأنه شتّب بثلاث نسوة سمين جميعا رقية (٢) . عاش ابن قيس فى القرن الأول الهجرى الذى شهد أحداثا سياسية هامة ، فشهد شروق شمس الحركة الزبيرية ثم رأى أفولها ، ولعب فيها دورا كبيرا فكان لسانها الناطق .

كان ابن قيس قرشيا متعصبا ، ولذا غضب أشد الغضب لاقدام يزيد بن معاوية على قتل سادة قریش فى موقعة الحرة ، وشعره يعطينا صورة واضحة عما لحق بالمدينة من مذابح وفظائع ، فقد قال (٣) :

ينامى يكون آباءهم ولم يبق دهر لهم سائمة
وأرملة يعترىها النحيب اذا نامت الأعين النائمة
وقد كان لتعصب ابن قيس لقریش وغضبه على الأمويين
اعتمادهم أحيانا على العناصر غير العربية ، أكبر الأثر فى انضمامه

-
- (١) الأصفهاني : الأغاني ح ٥ ص ٧٣ .
(٢) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .
(٣) على النجدى ناصف : ابن قيس الرقيات ص ٥٩ .

الى عبد الله بن الزبير ، الذى تعصب للعرب . ولكن الشاعر ليس له تجارة يربح منها ؛ غير ما تجود به قريحته من قصائد ، فهو فى حاجة دائما الى ما يقضى به تفقاته وحاجاته . ولكن عبد الله ابن الزبير كان مقترا بخيلا ، فلم يكافئ ابن قيس بما يستحقه مقابل ما أنشده فى مدحه فلما ضاق ابن قيس ببخل ابن الزبير ، انصرف عنه الى أخيه مصعب بن الزبير ، فان تعصبه لقريش وحبّه للزبيرين ، دفعاه الى عدم التنكر للحركة الزبيرية .

عاش ابن قيس فى بلاد العراق الى جانب مصعب ، وقد كان مصعب كريما لم يبخل بماله على الشاعر ، ولذا نظم فيه من المدائح والمراثى مالم يقل مثله أحد سواه ، لا من ناحية المقدار وحده ، ولكن من ناحية القيمة الفنية أيضا ؛ ثم شاهد ابن قيس خروج عبد الملك لقتال مصعب ؛ ورأى ما كان من خيانة قواد مصعب له . وقد شعر مصعب بحرج موقفه ، فدعا ابن قيس اليه ، وأعطاه مالا كثيرا وأذن له فى الانصراف الى حيث يشاء ، ولكن ابن قيس أبى الا أن يقيم الى جانبه الى اللحظة الأخيرة . ولما علم ابن قيس بمصرع مصعب سارع الى الفرار التماسا للنجاة . ورحل الى الكوفة حيث اختفى عاما كاملا ، فلما رأى أن الأمويين جادين فى البحث عنه ، هرب الى مكة ، وقصد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الذى كان يغدق عليه الصلات والعطايا . فكتب عبد الله الى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهى زوجة الوليد بن عبد الملك يطلب منه الشفاعة عند عبد الملك بن مروان ، فما زالت

تلق عليه حتى منحه الأمان ، فقصده ابن قيس دمشق ومدح
عبد الملك بعدة قصائد .

هذه هي خلاصة لتاريخ حياة ابن قيس الرقيات . وسنبحث
الآن في عدة مسائل هي : (الأولى) مبادئ ابن قيس السياسية
(والثانية) أسباب ومظاهر عدائه للأمويين (والثالثة) موقف
ابن قيس من الحركة الزيرية بعد القضاء عليها (والرابعة) موقفه
من بنى هاشم .

أما مبادئ ابن قيس السياسية ، فقد كان ابن قيس من أنصار
عبد الله بن الزبير ، وكان مغاليا في نصر الزيريين ، يحبهم أشد
الحب ، ويبغض خصومهم بغضا شديدا ، جاهد معهم بسيفه
ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى أن عبد الملك
بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له حسن قوله في مصعب
ابن الزبير (١) .

وان كان ابن قيس زيريا في ميوله السياسية ، الا أنه كان
قرشيا قبل كل شيء ، فكان له مذهب سياسي لم يتغير رغم تغير
الظروف وتطور الأمور ، فيرى أن تكون الكلمة العليا لقرش
قولا وفعلا . فهو في كرهه لبنى أمية ، انما يكرهم لأنهم اعتزوا
على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية . فقد كان يرى
أن الخلافة يجب أن تكون في قرش ومعها المضرية ، وعلى قرش
أن تجتمع حول هذه الخلافة تحوطها وترعاها معرضة عن هذه

(١) طه حسين : حديث الأربعة ج ١ ص ٣٢٢ .

الفرقة التي قسمتها شيعة وأحزابا يضرب بعضها بعضا ، كان حريصا على وحدة هذه القبيلة ذات المجد القديم منذ الجاهلية ، ولعله بذلك كان أوسع أفقا من الزبيريين أنفسهم ، ومن الهاشميين والأمويين (١) .

وهنا تظهر أرستقراطية ابن قيس السياسية ، فالخلافة من حق قريش دون غيرها من العرب أو المسلمين . وكم فخر بقريش ، وبكى أيام وحدتها ، وخاف عليها العوادى ، ودعاها الى توحيد كلمتها قبل أن تشمت الأعداء . وكان في فنه الشعرى أرستقراطية كذلك ؛ فلم يسف ولم يهج كما أقذع غيره ، بل كان جزل الأسلوب ، رقيق الشعور ، مهذب النفس ، تقى الضمير ، عف اللسان ، لم يتأذ أحد بنسيبه ؛ عنده رقة الحضر وجزالة البادية ، ولكنها البادية الحجازية بوجه خاص (٢) .

ومن البديهي اذا ، ألا يروقه الخوارج أنصار الجمهورية الاسلامية ، ولا الأمويين الذين يعتزون باليمينية ولا الموالي الذين يدعون للكسروية ، ومع هذا فهو مطمئن ما دامت الحكومة في قريش ، ومستعد أن يقف بجانبها ، زبيرية كانت أم أموية أم هاشمية ، فالجميع قرشيون وأولو قرباه ، ولا غرابة اذا اتصل بعد الزبيريين بالأمويين والهاشميين دون أن يجد في ذلك غضاظة وان وجد الأمويون في ذلك غضاظة ؛ ثم العباسيون بعد ذلك حين كانوا يسمعون شعره في مدح الأمويين .

(١) احمد الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق .

ويلخص الأستاذ الدكتور طه حسين (١) مبادئ ابن قيس الرقيات السياسية الى قسمين : أولا : ان السلطان يجب أن يكون قريش وخاصة لمضر . ثانيا : ان من الاثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذي كان بعد موت معاوية :

أيها المشتكى فناء قريش بيد الله عمرها وفناء
ان تودع من البلاد قريش لا يكون بعدهم لحى بقاء (٢)
أما المسألة الثانية التي نريد بحثها ، فهي أسباب ومظاهر
عدائه للأمويين . كان ابن قيس مستعدا لمناصرة بنى أمية ومدحهم
باعتبارهم من قريش التي يعتز ابن قيس بها ، وليس لأنهم أعداء
لابن الزبير . وغضب ابن قيس على الأمويين في أول الأمر لأنهم
لم يتعصبوا للقريشيين . كما غضب لقتلى الحرية واقدام الأمويين
في عهد يزيد على قتل سادة قريش وأشرفها في المدينة ، وحصارهم
الكعبة . كما أغضبه اعتماد الأمويين على بعض العناصر غير
العربية ، وكذا نقل حاضرة الخلافة من الحجاز مهد الاسلام ومقر
قريش الى بلاد الشام البيزنطية الأصل . كما زاد من غضبه اعتماد
الأمويين على اليمانيين دون المضرين .

هذه هي الأسباب التي دفعت ابن قيس الى اظهار العدواة
والبغضاء للأمويين ، أما مظاهر هذا العداء فانها حقا تستلفت
النظر وتدعو للاهتمام . فقد اتخذ ابن قيس الغزل وسيلة الى

- (١) حديث الأربعاء ح ١ ص ٣٢٢ .
(٢) على النجدي ناصف : ابن قيس الرقيات ص ١١٩ .

الهجاء . فكان يتغزل لا للغزل نفسه أو لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ، فكان يذكر نساءهم بما يحسن ولا يحسن ؛ فكان يتخذ النساء وسيلة الى حرب الرجال (١) .

فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وبنت عبد العزيز ابن مروان ، قاصدا اغاظة عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجال بني أمية . ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتقرب منها . ولم تغضب أم البنين لهذا الغزل ، بل لقد صادف هوى في نفسها ، لأن فيه ارضا لطبيعة المرأة ، ومجاوبة لنوازع التيه والدلال (٢) .

وقد وصل ابن قيس الرقيات بهذا النوع من الغزل الهجائي الى كل ما كان يريد ، فأحفظ بني أمية عليه أشد احفاظ حتى هدروا دمه ، وأبرءوا ذمتهم ممن آواه ، ولكنه أَرْضَى أم البنين عن نفسه ، وبلغ منها مبلغا حسنا حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك (٣) .

ونذكر الآن بعض أبيات قليلة من شعر ابن قيس ؛ نرى فيها صورة واضحة لمبادئه السياسية ، وسجلا للأحداث . ففي قصيدة له يبكي قريشا ويسخط على بني أمية لمصرع الحسين بن علي يقول :

(١) طه حسين : حديث الأربعة ح ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٢) علي النجدي ناصف : ابن قيس الرقيات ص ٢٨ .

(٣) طه حسين : حديث الأربعة ح ١ ص ٣٢٠ .

عين فابكى على قريش وهل ير
 كيف نومى على الفراش ولما
 تشمل الشام غارة شعواء
 عن براها العقيلة العذراء
 أنا عنكم بنى أمية مزو دة ؛ وأتم فى نفسى الأعداء
 ان قتلى بالطف قد أوجعتى كان منكم لئن قتلتم شفاء (١)
 وبعد واقعة الحرة فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية
 حيث استبيحت المدينة ثلاثة أيام ، أنشد ابن قيس :

ان الحوادث بالمدينة قد أوجعتى وقرعن مروتيه
 أما طريقة ابن قيس الفريدة فى الهجاء ، وهى اتخاذ الغزل
 وسيلة للهجاء ، فنراها واضحة فى هذه الأبيات :

الى أم البنين متى يقر بها مقربها
 أتى فى المنام فقط ت هذا حين أعقبها
 فلما أن فرحت بهما ومال على أعذبها
 شربت بريقها حتى نهلت وبت أشربها (٢)

وقد مدح ابن قيس صديقه مصعب بن الزبير بقصائد عصماء ؛
 حتى اذا أتاه نعيه حزن عليه ورثاه رثاء حارا . ولرثاء ابن قيس
 مصعب قيمة تاريخية ، فهو يذكر لنا أسباب هزيمته ويصف غدر
 أصحابه فيقول :

(١) ديوان ابن قيس الرقيات (طبعة فينا) ص ١٧٠ .

(٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٢٦١ .

ان الرزية يوم مسـ كن والمصيبة والفجعة
 بابن الحوارى الذى لم يعده أهل الواقعة
 غدرت به مضر العرا ق وأمكنت منه ربيعة
 فأصبت وترك يا ربيـ ع وكنت سامعة مطيعة^(١)

أما المسألة الثالثة فى دراستنا ؛ فهى موقف ابن قيس من الحركة الزبيرية بعد القضاء عليها . لقد نجح عبد الملك فى القضاء على الحركة الزبيرية بعد قتله عبد الله بن الزبير ، فاستقر الأمر للدولة الأموية فى العراق والحجاز بعد أن ظلت خارجه عن طاعة الأمويين منذ عهد يزيد بن معاوية . وطلب عبد الملك ابن قيس الرقيات ؛ وبعث فى طلبه فى سائر الأمصار وأهدر دمه . فلم ين ابن قيس بدا من الخضوع للأمر الواقع ، فبعث الى عبد الملك يطلب منه الأمان ؛ وحصل عليه بعد جهد كبير . ثم بدأ ابن قيس مدح الأمويين ، ولكنه لم يسلك فى مدحهم طريق ذم خصومهم وخاصة عبد الله بن الزبير ؛ فقد ظل على وفائه لآل الزبير ولم يتنكر لمبادئهم . كما أن امتداح ابن قيس للأمويين لا يناقض مذهبه السياسى فى أصله وجوهره ، لقيامه كما سبق على التعصب لقريش واعتبارها أصلح الناس للخلافة وأحقهم بها^(٢) .

أما عبد الملك بن مروان ؛ فإن كان قد أمّن ابن قيس تحت الحاح أم البنين ، فانه ما زال غاضبا عليه ؛ فقد حرّمه من العطاء ولم يغمره بعطاياه وصلاته كما كان يفعل مع باقى الشعراء

(١) المسعودى : مروج الذهب ح ٣ ص ٥٢ .

(٢) على النجدي ناصف : ابن قيس الرقيات ص ١٢٤ .

ولذا كان ابن قيس مقصرا في مدحه عبد الملك ، وخاصة أنه ما زال في قلبه بقايا حقه القديم على الأمويين ، ولذا كان يشعر في قرارة نفسه أنه أصبح منافقا متملقا . فقد أنشد ابن قيس في مدح عبد الملك قصيدة جاء بها :

ان الأغر الذي أبوه أبو العاصي عليه الوقار والحجب
يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
وكان عبد الملك فصيحا يفهم الشعر ويتذوقه ، ف شعر بما في نفس ابن قيس ؛ فقال له : يا بن قيس تمدحني بالتاج كأنى من العجم وتقول في مصعب (١) :

انما مصعب شهاب من اللـ تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزّة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

أما المسألة الرابعة والأخيرة في بحثنا ، فهي موقف ابن قيس من بنى هاشم . علمنا اخلاص ابن قيس للحركة الزبيرية ، في مجدها وفي أفولها ، ولكن هذا الاخلاص لم يمنعه من مدح بنى هاشم رغم ما يعرفه من معارضة الهاشمين للحركة الزبيرية ؛ فقد كان بنو هاشم عدّة قريش وعمادها . فقد أبدى ابن قيس ألمه لمقتل الحسين بن على ، ثم رثى قتلى الحرة من بنى هاشم خاصة وقريش عامة ، ثم ساق المديح لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وقد كان ابن جعفر يصدق الصلات على ابن قيس ، كما شفع فيه عند أم البنين . ولما رفض عبد الملك منحه العطاء ، عوضه

(١) ابن قتيبة . الشعر والشعراء ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

أبن جعفر عن ذلك بأضعاف ما كان يأمل أن يمنحه عبد الملك له (١) . فقد مدح ابن جعفر فقال :

إذا زرت عبد الله ، تقسى فداؤه

رجعت بفضل من نداء ونائل

وان غبت عنه كان للود حافظا

ولم يك عنى فى المغيب بغافل

ويلخص الأستاذ الدكتور طه حسين (٢) موقف ابن قيس من

الأحزاب المختلفة فيقول : فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة

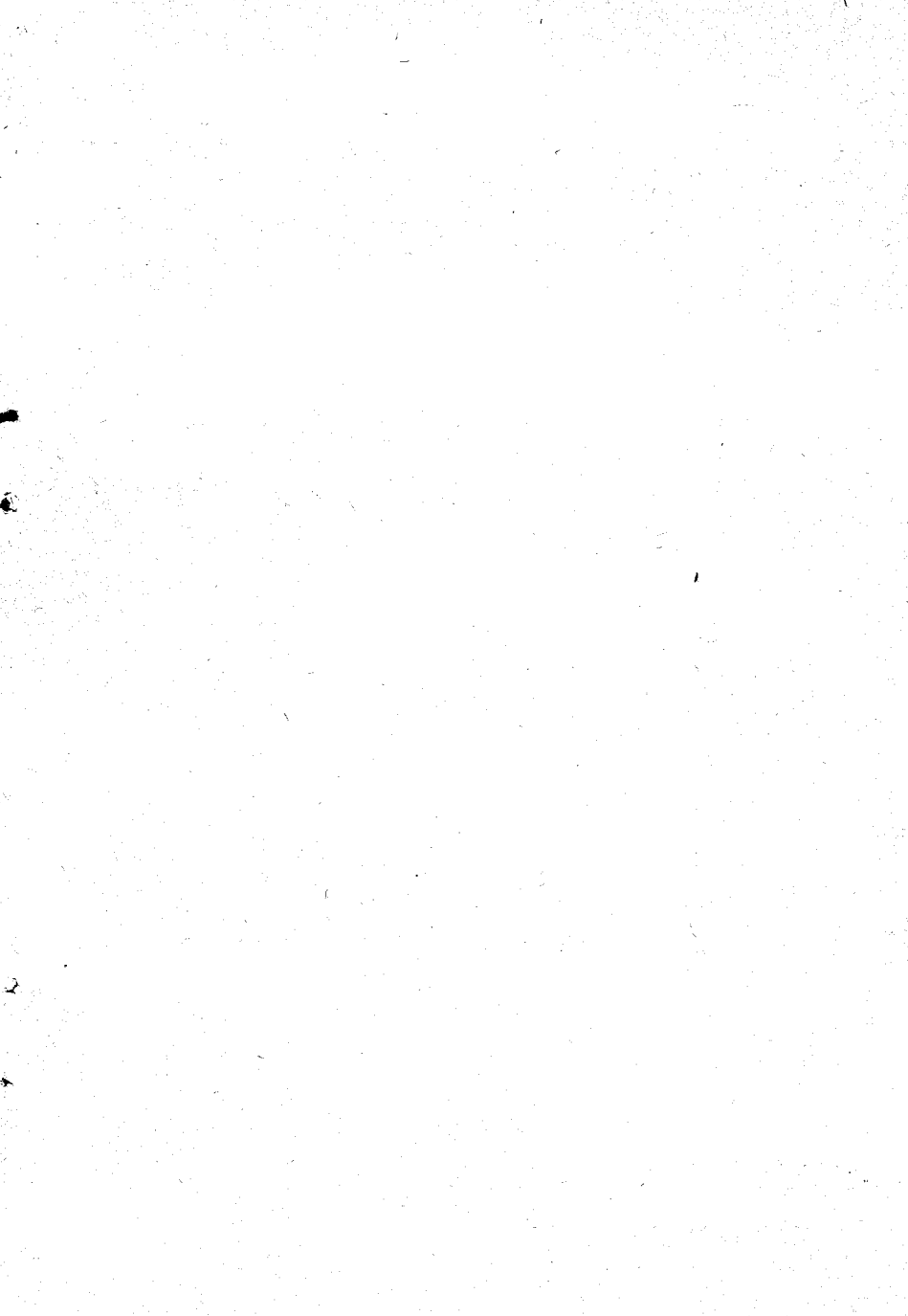
مختلفة ؛ اتصل بحزب الزبيريين وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل

بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد ، واتصل بالهاشميين وفيهم

أحسن المدح وأجاده ، ولم يكن مع ذلك متلونا ولا فاسدا

(١) حديث الاربعاء ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .



المصادر

أولا المصادر العربية :

ابن الانير .

الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٠٢ هـ ٢ .

أسد الغابة في معرفة الصحابة (طبعة المعارف ١٢٨٦ هـ) .

احمد امين :

فجر الاسلام (القاهرة ١٩٥٥) .

احمد الشايب :

تاريخ الشعر السياسي (القاهرة) .

الأصفهاني :

الاغاني ، مطبعة التقدم ١٣٢٣ هـ) .

مقاتل الطالبيين (القاهرة ١٩٤٦) .

الألوسي : محمود شكرى :

بلوغ الارب في احوال العرب (المطبعة الرحمانية ١٩٢٤) .

انيس زكريا النصولي :

الدولة الاموية في الشام (بغداد ١٩٢٧) .

البغدادي :

الفرق بين لفرق (القاهرة ١٩٤٨) .

البلاذرى :

- فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات بالقاهرة ١٩٠١)
- أنساب الأشراف (الجزء الرابع والخامس - فلسطين ١٩٣٨)

البياسى :

- الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام ، جزءان ، (مخطوط
بدار الكتب رقم ٣٩٩ تاريخ) .

البيرونى :

- الآثار الباقية عن القرون الخالية (لينزج ١٩٢٣)

البيهقى :

- المحاسن والمساوىء ، جزءان (مطبعة السعادة ١٩٠٦)

الجاحظ :

- كتاب الحيوان (مطبعة السعادة ١٩٠٧)
- كتاب التاج (المطبعة الاميرية ١٩١٤)
- كتاب المحاسن والاضداد (مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ)
- البيان والتبيين (مطبعة الفتوح القاهرة ١٣٣٢ هـ)
- رسائل الجاحظ ١١ رسالة (القاهرة ١٣٢٤ هـ)

الجهشيارى :

- كتاب الوزراء والكتاب (مطبعة الحلبي ١٩٣٨)

جورجى زيدان :

- تاريخ التمدن الاسلامى خمسة أجزاء (مطبعة الهلال
١٩٢٤)

ابن حجر العسقلاني :

الاصابة في تمييز الصحابة (القاهرة ١٩٢٢ .)

ابن حجر الهيتمي :

تاريخ اخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفاء (مخطوط بدان
الكتب المصرية رقم ٢٧٦ تاريخ) .

حسن ابراهيم حسن : الدكتور :

تاريخ الاسلام الجزء الأول (القاهرة ١٩٢٥) .

الخضري : محمد :

تاريخ الامم الاسلامية (القاهرة ، الطبعة الثالثة) .

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية) .
المبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ اجزاء (القاهرة ١٢٨٤) .

ابن خلكان :

وفيات الاعيان (طبعة مكتبة النهضة ١٩٤٨) .

الدينوري :

الأخبار الطوال (ليدن ١٨٨٨) .

الروحي :

بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٠٩) .

ابن سعد :

كتاب الطبقات الكبير (لجنة نشر الثقافة الاسلامية بالقاهرة) .

سيدة كاشف : الدكتورة :

مصر في فجر الاسلام (القاهرة ١٩٤٧) .

السيوطي :

تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين القائمين بأمر الأئمة (المطبعة
المنيرية ١٣٥١ هـ) .

شكري فيصل : الدكتور :

المجتمعات الاسلامية في القرن الاول الهجري (القاهرة ١٩٥٢) .

الشهرستاني :

الملل والنحل (القاهرة ١٣٤٨) .

ابن الصباغ :

الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة (النجف ١٩٥٠) .

ابن طباطبا :

الفخرى في الآداب السلطانية والدول الاسلامية (المطبعة
الرحمانية القاهرة ١٣٤٠ هـ) .

الطبري :

تاريخ الأمم والملوك (المطبعة الحسينية بالقاهرة ، وطبعة
المكتبة التجارية ١٩٣٩) .

طه حسين : الدكتور :

على وبنوه (دار المعارف ١٩٥٣) .
حديث الأربعاء .

ابن طولون :

فيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط بدار الكتب المصرية
برقم ١١٣٢ تاريخ)

أبو عبيد :

الاموال (المطبعة التجارية ١٣٥٣ هـ ٧)

عبد الجواد الكلدار :

تاريخ كربلاء وحائر الحسين (بغداد ١٣٦٨ هـ ٧)

عبد الحميد اصبدي :

صور من التاريخ الاسلامي (الاسكندرية ١٩٤٨)

ابن عبد ربه :

العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨)

ابن العربي :

العواصم من القواصم (المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ)

عبد العزيز الدوري : الدكتور :

مقدمة في تاريخ صدر الاسلام (بغداد ١٩٤٩)

ابن عساكر :

تهذيب التاريخ الكبير (دمشق ١٣٣٢ هـ)

العدوي : ابراهيم الدكتور :

الامبراطورية الاسلامية وامبراطورية الروم (القاهرة)

على بن الحسين الهاشمى النجفى :

محمد بن الحنفية (طهران ١٣٦٨ هـ) .

على حسنى الخربوطلى : الدكتور :

فجر القومية العربية فى القرن الاول الهجرى
(القاهرة ١٩٥٨) .

تاريخ العراق فى ظل الحكم الاموى (دار المعارف
القاهرة ١٩٥٩) .

القومية العربية من الفجر الى الظهر (الحلبى ، القاهرة ١٩٥٩) .
محمد والقومية العربية (مؤسسة المطبوعات الحديثة
القاهرة ١٩٥٩) .

المجتمع العربى (مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٦٠) .
الدولة العربية الاسلامية (الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠) .
حياة محمد (ترجمة لكتاب واشنجتون ارفنج . دار المعارف
القاهرة ١٩٦٠) .

الحضارة الاسلامية (ترجمة لكتاب خودابخش ، الحلبي ،
القاهرة ١٩٦٠) .

المجتمع العربى فى العصور الوسطى (ترجمة لكتاب ا.و. لين ،
القاهرة ١٩٥٩) .

الحضارة العربية الاسلامية (طبعة الأنجلو القاهرة ١٩٦٢) .

المختار بن أبى عبيد الثقفى (سلسلة أعلام العرب ١٩٦٣) .

مصر العربية الاسلامية (طبعة الأنجلو بالقاهرة ١٩٦٣) .

البحر المتوسط بحيرة عربية (سلسلة اقرا ١٩٦٣) .

العرب ورسالتهم الانسانية (سلسلة اقرا ١٩٦٠) .

غروب الخلافة الاسلامية (مؤسسة المطبوعات الحديثة
بالقاهرة ١٩٦٢) .

المسجد في فجر الاسلام (بحث في مجلة جامعة عين شمس)
ملكية الاراضى في الدولة العربية الاسلامية (بحث في مجلة
جامعة عين شمس) .

المجوس في العصور الفارسية والاسلامية (بحث في مجلة
جامعة عين شمس) .

العرب واليهود في العصر الاسلامى (سلسلة كتب قومية)

ابن العماد :

شذرات الذهب في أخبار من ذهب (مطبعة المقدسى . ١٣٥٠ هـ)

عمر أبو النصر :

السياسة عند العرب (بيروت ١٩٤٩) .

الحضارة الأموية العربية في دمشق (بيروت ١٩٤٨) .

الخوارج في الاسلام (بيروت ١٩٤٩) .

العمرى :

مسالك الابصار في الممالك والأمصار (دار الكتب

المصرية ١٩٢٤) .

العيني :

عقد الجمان في تاريخ أهل زمان (تصوير شمسي بدار

الكتب المصرية برقم ١٥٨٤) .

أبو الفدا :

المختصر في أخبار البشر أربعة أجزاء (المطبعة الحسينية

القاهرة) .

فيليب حتى :

تاريخ العرب ترجمة مبروك نافع (دار العالم العربى

القاهرة)

ابن قتيبة :

- الامامة والسياسة (القاهرة ٣٢٥ هـ) .
- المعارف (المطبعة الاسلامية ١٩٣٥) .
- عيون الأخبار (دار الكتب المصرية ١٩٢٥) .

ابن كثير :

- البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .

كرد علي :

- الاسلام والحضارة العربية (دار الكتب المصرية ١٩٣٦) .

الماوردي :

- الاحكام السلطانية (مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ) .

أبو المحاسن :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩) .

محمد جمال الدين سرور : الدكتور :

- قيام الدولة العربية الاسلامية (القاهرة ١٩٥٦) .
- الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية (القاهرة) .

المسعودي :

- مروج الذهب ومعادن الجوهر (مطبعة دار الرجاء بالقاهرة) .
- التنبيه والاشراف (مكتبة الشرق الاسلامية ١٩٣٨) .

المقرئ :

الجمان في أخبار الزمان (مخطوط بدار الكتب المصرية
برقم ١٤١٢ تاريخ) .

المقرئ :

امتناع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة
والمناجاة (القاهرة ١٩٤١) .
النزاع والتخاصم فيما بين بنى امية وبنى هاشم .

الملطى :

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (القاهرة ١٩٤٩) .

ناصر : على النجدي :

ابن لقيس الرقيات (القاهرة) .

النويرى :

نهاية الأرب في فنون الأدب (دار الكتب المصرية ١٩٣١) .

ابن هشام :

سيرة النبي (القاهرة ١٣٥٦ هـ) .

ياقوت :

معجم البلدان (مطبعة السعادة ١٩٠٦) .

اليقوبى :

تاريخ اليقوبى (النجف ١٣٥٨ هـ) .

ثانيا : مصادر افرنجية مترجمة الى اللغة العربية

ارنولد :

- الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين
(القاهرة ١٩٤٧) .
الخلافة ، ترجمة جميل معلى (دار اليقظة العربية ١٩٤٦) .

بارتولد :

- تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر
(القاهرة ١٩٤٢) .

بروكلمان :

- تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ومتمى
بعلبكي (بيروت ١٩٤٨) .

نرتون :

- اهل الذمة في الاسلام ، ترجمة حسن حبشى (القاهرة ١٩٤٩) .

جوزى :

- من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ، ترجمة على حسن
عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦) .

دوزى :

- نظرات في الاسلام ترجمة كامل الكيلانى (الحلبي ١٩٣٣) .

ديمومبين :

- النظم الاسلامية ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر
(بغداد ١٩٥٢) .

دينيه :

محمد رسول الله ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود
(القاهرة ١٩٥٩).

سيد أمير على :

مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ترجمة وياض
رافت (لجنة التأليف ١٩٣٨).

سيديو :

تاريخ العرب العام ترجمة عادل زعيتر (الحلبي ١٩٤٨).

فان فلوتن :

السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بنى أمية
ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وزكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤).

كريم :

الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية ترجمة
الدكتور طه بدر (الفكر العربى بالقاهرة).

لوبون :

حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر (الحلبي ١٩٤٨).

مولاي محمد على :

محمد رسول الله ترجمة مصطفى فهمى (القاهرة ١٩٤٥).

المودودى :

نظام الحياة في الاسلام ترجمه من الأوردية محمد عاصم
رجاد (دمشق ١٩٥٨).

ثالثا : المصادر الأفرنجية :

- Browne : Literary History of Persia (London 1905).
- Finlay : History of the Byzantine Empire (London 1856).
- Gibb and Kramers : Shorter Encyclopaedia of Islam
(Leiden 1953).
- Hell : The Arab Civilization (Lahore 1943).
- Khuda Buksh : Contributions to the History of Islamic
Civilization (Calcutta 1930).
- Kremer : The Orient Under the Caliphs, Translated by
Khuda Buksh (Calcutta 1920).
- Lammens : Etudes Sur le Règne du Calife Omayyade
Moawia ier.
Etudes Sur la Siècle des Omayyades (Byrouth 1936).
Le Califat yazid ier.
- Lane- Poole (Stanly) : The Mohammadan Dynasties
(Paris 1925).
- Mawlana Mohamed Ali : Early Caliphate (Lahore 1932).
- Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall (London
1924).
- Nicholson : Literary History of the Arabs (London 1923).

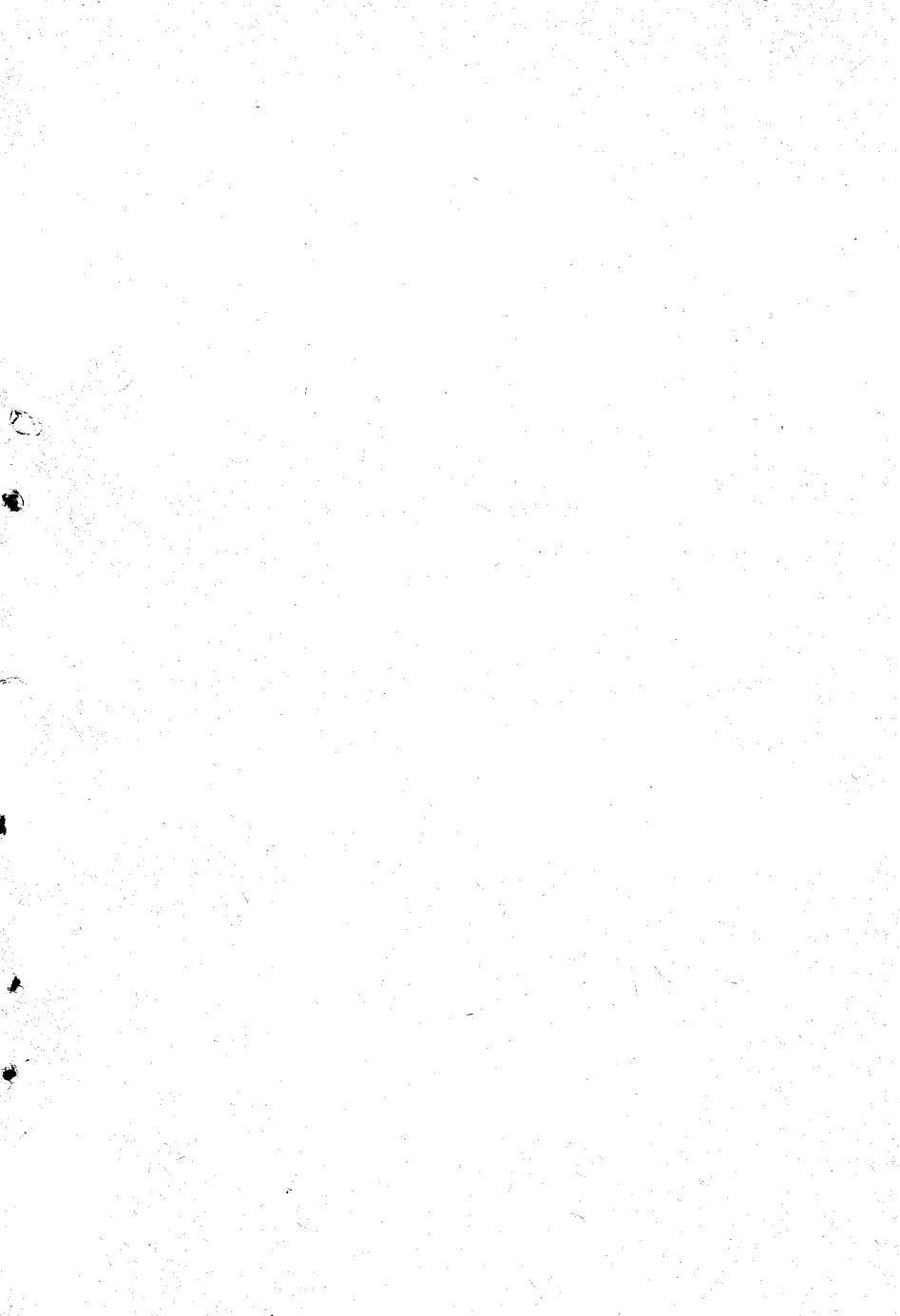
Ockly : The History of the Saracens (London 1774).

Quatremere : Mémoire Historique sur la Vie d'Abd Allah
ben Zobair (Journal Asiatique 25 érie IX, Avril 1832).

Shedd : Islam and the Oriental Churches, (Philadelphia
1904).

Sykes : History of Persia (London 1901).

Wellhausen : The Arab Kingdom and its Fall, Translated
From German by Margret Grahame weir (Calcutta
1927).



فهرس

رقم الصفحة

مقدمة

- ١ - فجر حياة عبد الله بن الزبير
الأب والأم - مولد ابن الزبير ونشأته - اشتراك
ابن الزبير في فتح شمال افريقية - ابن الزبير : صفاته
وأسرته .
- ٢ - دفاع ابن الزبير عن عثمان بن عفان
ترشيح الزبير للخلافة بعد مصرع عمر - حزب زبير
في الكوفة - ابن الزبير يزود عن عثمان .
- ٣ - دور ابن الزبير في حرب الجمل
موقف عبد الله بن الزبير من خلافة على بن أبى طالب -
طلائع حرب الجمل - ابن الزبير بطل حرب الجمل -
موقف ابن الزبير من الصراع بين على ومعاوية .
- ٤ - موقف ابن الزبير من قيام الدولة الأموية
ابن الزبير في صدر الدولة الأموية - موقف ابن الزبير
من خلافة معاوية - ابن الزبير زعيم حزب المدينة -
ابن الزبير زعيم حزب أبناء الصحابة - معاوية يحاول
استمالة ابن الزبير - ابن الزبير يشترك في غزو
القسطنطينية - معارضة ابن الزبير البيعة ليزيد
بولاية العهد .

راقم الصفحة

٥ - ثورة ابن الزبير على خلافة يزيد بن معاوية ٧٥

ابن الزبير في وصية معاوية ليزيد - يزيد يحاول
الفوز ببيعة ابن الزبير - ابن الزبير العائد بالبيت -
موقف ابن الزبير من ثورة الحسين بن علي - عوامل
انتشار دعوة ابن الزبير - موقف أبناء الصحابة من
الدعوة لابن الزبير - أهل المدينة يعلنون ولاءهم
لابن الزبير .

٦ - خلافة ابن الزبير وسيطرته على الدولة الاسلامية .. ١٠٩

مقاومة يزيد الايجابية لدعوة ابن الزبير - واقعة
الحرّة - غزو ابن الزبير في الكعبة - الأمويون يعرضون
الخلافة على ابن الزبير - نقد وتحليل لرفض
ابن الزبير الخلافة الأموية - تنازل معاوية الثاني
عن الخلافة -بيعة الحجاز لابن الزبير - بلاد العراق
تباع لابن الزبير - البيعة لابن الزبير في مصر -
البيعة لابن الزبير في الولايات الاسلامية - نفوذ
ابن الزبير بالشام - مؤتمر الجابية .

٧ - الصراع بين ابن الزبير خليفة الحجاز والخلفاء

الأمويين بالشام ١٣٩

مروان يستعد لصراعه مع ابن الزبير - ابن الزبير
ومروان في كفتي ميزان - مروان ينتزع مصر من ابن
الزبير - صراع مروان وابن الزبير حول العراق -
مروان يخفق في انتزاع المدينة من ابن الزبير - عبد الملك
يوصل الصراع مع ابن الزبير .

الذائر القوميين للطبائعية والنشئة